

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

موسوعة

العلامة الشيخ التسخيري

المجلد الاول

المقدمة وعلوم القرآن

تقديم: سماحة الشيخ د. حميد الشهريري

المعهد العالي للدراسات التقريبية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي

«باسمه تعالى»

المرحوم الشيخ محمد علي التسخيري شخصية فريدة من نوعها، ونوعية متميزة في عالم الدعوة والإصلاح الديني والوحدة والتقريب بين المذاهب على مستوى العالم الإسلامي، وهو من أهم الشخصيات الإصلاحية والدعوية والدينية والسياسية في العصر الحديث؛ إذ قلّ وجود دعاة ومصلحين ممن اتخذوا نمطاً دعوياً يشابهه في حلّه وترحاله، وأسلوبه وبيانه، وشجاعته وإقدامه، وتوكله وإيمانه.

وهو ظاهرة دعوية إصلاحية جديرة بالدراسة والتحليل، كما أنّه ظاهرة نادرة جديرة بالتتبّع والاقتفاء التحليلي والمنهجي. وقد كان جدياً في تأدية الواجبات، طموحاً ذا همّة عالية، نقي السريرة صادق السلوك، قوي الحافظة سريع البديهة، غزير العلم لين الجانب، عفيف اللسان كريم النفس، كما كان قمة من قمم الفكر الإسلامي الحديث، ومصلحاً كبيراً، وداعيةً من الطراز الأول.

وشخصية العلامة التسخيري متّسعة الأرجاء مترامية الأطراف، فهو مجاهد صادق، ومؤلف بارع، وداعية فطحل، وخطيب مؤثر، وعارف بأدواء المجتمع الإسلامي في شتى ربوعه. ملك من روعة البيان وقوة الإيمان وصلابة المعتقد أسلوباً حامياً يوهج حمية ويلتهب غيره.. أسلوباً يملك مشاعر من يستمع إليه، ويأسر عواطف من يقرأ كتاباته.

وقد حمل راية التقريب بين المذاهب والأديان سنوات عديدة مديدة، لا يهدأ له مضجع، ولا تنام له عين.. فهو في النهار عامل يشتغل، وبالليل ساهر يفكر، قد تفاذفته فجاج الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً في سبيل الوحدة والتقريب.

كما ترك الشيخ تراثاً فقهياً وقرآنيّاً واقتصادياً وأدبياً وفكريّاً وثقافياً عظيماً، قلّ نظيره في

العلماء المعاصرين، واتّسمت كتاباته بالتحليل وجودة العرض وحرصه الأسلوب ودقّة الملاحظة وشمولية البحث، فالينبوع دافق، والمعاني واضحة لامعة، والإعجاب دافع سائق! ومن أكثر العلماء الذين تأثر بهم الشيخ علمياً وأخلاقياً ومسلِكياً هو أستاذه السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، تشهد بذلك كتاباته وعباراته وخطاباته.

وكان يركّز كثيراً على إذكاء الروح الإسلامية في النفوس، والدعوة إلى إحياء الفضائل والأخلاق الحسنة، وتحسين صورة المجتمع الإسلامي، والتقليل من الافتتان بالحضارة الغربية، وقمع موجة الكفر والإلحاد التي سعى إليها الاستكبار العالمي، والتخفيف من ويلات الجهل والمفاسد الاجتماعية، وتوعية الأمة بتاريخها وحضارتها، ومدّ جسور التواصل مع العلماء والنخب في العالم الإسلامي وإقامة العلاقات والصدقات معهم ومع رجال الدعوة والإصلاح الديني ورجال الفكر والأدب والثقافة.

ومن الفعاليات المطلوبة بيان آراء ورؤى العلامة التسخيري، وهذا ما قام به المعهد العالي للدراسات التقريبية، حيث جمع الكثير من الآثار العلمية لهذا العَلَم - المكتوبة باللغة العربية - وحقّقها وصحّحها، وذلك في موسوعة حملت اسمه.

وأخيراً أودّ أن أقدم جزير شكري وامتناني لجميع الباحثين والكادر الفئّي الذين حملوا أعباء إعداد هذه الموسوعة القيّمة، وأخصّ بالذكر سماحة الشيخ أكبر راشدي نيا رئيس المعهد العالي للدراسات التقريبية.

والله ولي التوفيق والسداد.

د. حميد الشهر ياري

الأمين العامّ للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

المقدمة

المقدمة

يعدُّ الشيخ العلامة التسخيري من الشخصيات المرموقة في عالم الإسلام، والذي بذل جهداً واسعاً في تحكيم أصول الأمة الإسلامية بواسطة المعرفة العميقة من التعاليم الدينية التي كانت لديه، وبكتابه عشرات الكتب والمقالات ممّا كان له الأثر البالغ في ساحة التقريب بين المذاهب الإسلامية والفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي.

وكانت من خصائصه البارزة رؤيته الشمولية والعميقة إلى القضايا الثقافية والاجتماعية للعالم الإسلامي، كما كان ينظر إلى العالم الإسلامي والقضايا المتعلقة به ككلّ متواصل. ومن خصائصه الأخرى التي قلّت نظائرها اليوم نستطيع أن نشير إلى تنوع الحقول الدراسية والآثار لديه. كما يدل على جامعية هذا العالم المتقي حضوره في المؤتمرات الدينية المختلفة وإلقاؤه الأبحاث في حقول مختلفة مثل الفقه، والحديث، و التفسير، والقانون، وكذلك المشاركة في الحوارات بين الأديان وبين المذاهب الإسلامية والبحث والحوار مع العلماء المتخصصين في المسائل المختلفة.

ورغم أنه كان كسائر المسلمين ينتمي إلى مذهب ويعتقه وكان راسخاً في عقيدته، إلا أنه كان يرى المذهب مقوماً لإسلام الشخص وليس بديلاً عن الإسلام. وكان يعتقد بالهوية المتكثرة للعالم الإسلامي، وكان يرى هذه الظاهرة مجالاً لتطوير الحضارة والثقافة الإسلامية في أقصى حدود وأقطار العالم.

وهو عالم وحدويّ، مصلح نير الفكر، ومفكّر خلاق ومبتكر، ومعتقد بأسس وقيم مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في رفع المشكلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. وكان مورد احترام وتعظيم أكثر المفكرين وكبار العالم الإسلامي، وكثير منهم مدحوه "وفي هذا المجال

فقط نذكر وصفاً "لمفتي الشام الأعظم المرحوم الدكتور وهبة الزحيلي حول هذه الشخصية الكبيرة: ولقد عرفت العلامة الجليل الشيخ محمد علي التسخيري منذ أكثر من ربع قرن، في أوساط علمية عديدة وإسلامية متميزة، سواء في المجال الفقهي أو العمل الإسلامي العام، في طهران والأردن والبحرين والسعودية والكويت والمغرب وغير ذلك من البلاد الإسلامية والعربية. فوجدته شخصية نابهة وطريفة، ووجدته ذا أفق علمي واسع وعريق، يتقن اللغة العربية وآدابها وشعرها وأمثالها، واللغة الفارسية. كما أنه المفكر اللامع الذي يبدل بدلوه في كل المجالات الإسلامية والعلمية، وهو أيضاً ذو شفافية عالية، شاعر وأديب وخطيب وفقه.

عرفته مطلعاً على قضايا العالم الإسلامي ومعرفة مشكلاته وعلاقاته مع الفكر الغربي ودهاقنته. يقدر ظروف الأمة الإسلامية، وتقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة، مبتعداً عما يعكر الصفو في التاريخ الحاضر والمستقبل؛ لإيمانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ حتى صار من أعلام الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وكان ممثلاً لجمهورية إيران الإسلامية ردهاً طويلاً في المحافل الإسلامية والدولية، وهو منبع احترام وتقدير ومحبة.

لا تلمس منه حقداً ولا تعصباً ولا تمزقاً أو تشدداً، ولا يسوؤك كلامه، ولا تستغرب منطقته وعلاجه للأمر، فهو في مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران الأمين العام، وممثل إيران في مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دوراته المختلفة. ويتجلى توقده العلمي والذهني في هذا المجال وغيره، سواء في المجال السياسي أو الطبي أو الاقتصادي أو العقدي أو الأخلاقي أو الاجتماعي، ولا سيما إبراز حقوق المرأة ودورها في الإسلام، أو المجال الفقهي العام والخاص، في العبادة والمعاملة والعلاقات الإنسانية المحورية بين المسلمين وغيرهم، في داخل ديار الإسلام و خارج المجتمعات الإسلامية، ويقدم في المؤتمرات الإسلامية عادة أكثر من بحث علمي معمق. ويظهر حماسه وإخلاصه في الحفاظ على حقوق الأمة الإسلامية في فلسطين وغيرها من البلاد المتعرضة للظلم والاضطهاد والاحتلال البغيض، ويركز على صلة العلمانية بالصهيونية.

وإذا عبّر عن المذهب الشيعي تراه دقيقاً وحكيماً، مع تقديره للصحابة الكرام ولأئمة المذاهب الإسلامية الأخرى. وإذا خاض في البحث عن مشكلات العالم الإسلامي تجده جريئاً

وصريحاً وغيوراً، لم يتبدل. ولله الحمد. موقفه وفكره وعطاؤه ونباهته في حال الصحة أو حال المرض الشديد الذي ابتلي به.

إنه بحق رجل كبير، وداعية حكيم، وسياسي محنك، وخبير في آفاق العلوم الإسلامية العامة والخاصة. أطال الله عمره، وحقق الخير الكثير على يديه، ونحن اليوم بأشد الحاجة إلى جهوده الوحودية والتقريبية والأخوية الإيمانية في مظلة الإسلام ودوحته الكبيرة. ونحن في هذه المقدمة ندرس ونحلل في البداية شخصيته الفردية والاجتماعية والسياسية ومن ثم شخصيته العلمية والآثار التي خلفها بصورة إجمالية.

أولاً: بطاقته الشخصية وقبس من حياة

١. ولادته

ولد محمد علي بن علي أكبر بن محمد حسين التسخيري التنكابني في مدينة النجف الأشرف بتاريخ ١٩/١٠/١٩٤٤ م المصادف ليوم ١١/١١/١٣٦٤ هـ.

ينتسب الشيخ محمد علي التسخيري إلى أسرة طيبة محافظة على الدين والقيم الأخلاقية، وهي موضع احترام وإجلال وتقدير، عاشت منذ أزمان بعيدة في مازندران في شمال إيران. عرف والده الشيخ علي أكبر بالتدين والتمسك بأحكام الإسلام ومكارم الأخلاق، وكانت والدته امرأة صاكة ملتزمة مهذبة.

وفي وسط هذه البيئة المتمسكة بالدين والمهتمة بالعلم نشأ الشيخ، فكان لها أثر كبير في شخصيته وتكوينه العلمي.

٢. نشأته ودراسته

لقد حظي الشيخ محمد علي التسخيري بنشأة طيبة، حيث ولد وسط أسرة محترمة وجّهته منذ نعومة أظفاره إلى تعلّم القرآن، وهيأت له سبل الوصول إلى أفضل المعاهد العلمية في عصره والاتصال بخيرة الأساتذة.

درس المرحلة الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في مسقط رأسه، ثم واصل دراسته الأكاديمية في كلية الفقه بالنجف الأشرف، وحاز على شهادة الليسانس في الفقه الإسلامي. كما درس إلى جانب ذلك العلوم الإسلامية في الحوزة العلمية، فأنتهى المقدمات والسطوح العالية، ووصل إلى مرحلة البحث الخارج وتفتّح.

٣. أساتذته

حظيت الحوزة العلمية في النجف وقم بأساتذة وعلماء متميزين في علمهم وسلوكهم وإخلاصهم وقدرتهم على التأثير في طلابهم. ولم يقتصر أثر هاتين الحوزتين في الشيخ محمد علي التسخيري على شخصيته التربوية والإصلاحية، وإنما تعدى ذلك إلى الشخصية العلمية له، والتي تميّزت بالبحث والتدقيق والتحرير. فتلقّى العلم عليهم، وتنسّم نسيم العلم والمعرفة في وجوههم، وتغذّت روحه بأفويق المعرفة من فيضهم.

ومن هؤلاء الأساتذة العلماء:

١. السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي.
٢. السيّد الشهيد محمد باقر الصدر.
٣. السيّد محمد تقي الطباطبائي الحكيم.
٤. السيّد محمد الرجائي.
٥. الشيخ جواد التبريزي.
٦. الشيخ كاظم التبريزي.
٧. الشيخ مجتبي اللنكراني.
٨. الشيخ صدرا البادكوي.
٩. الشيخ حسين الوحيد الخراساني.
١٠. السيّد محمد رضا الكلبيكاني.
١١. الشيخ هاشم الأملي.

٤. شعره

أحسّ الشيخ محمد علي التسخيري من نفسه في مقتبل عمره الشريف بطبعه الشعاري وميله نحو الشعر والأدب، فنظم القصائد الشعرية، وألقى الخطب الأدبية في مختلف المناسبات الإسلامية والمحافل الأدبية والشعرية.

وديوانه الشعري «الشفق الوهوب» و كذا «أوراق وأعماق» خير شاهد على قريحته

الشعرية الراقية.

ومن الجدير بالذكر أنّ الشيخ قد استفاد في مجال الشعر والأدب العربي من عدّة أساتذة في هذا المجال، منهم:

١. السيّد هادي فيّاض.
 ٢. الشيخ محمّدرضا المظفّر.
 ٣. الشيخ محمّد أمين زين الدين.
 ٤. الشيخ محمّد صالح الدجيلي.
 ٥. الشيخ محمود الدجيلي.
 ٦. الشيخ عبدالمهدي مطر.
 ٧. الأستاذ محمّد جواد الغبّان.
- ولا يخفى أنّ بعض هؤلاء من العلماء الأعلام كالشيخ زين الدين والشيخ محمّد رضا المظفّر.
٥. هجرته إلى إيران

انتظم الشيخ التسخيري في صفوف حزب الدعوة الإسلامية سنة ١٩٦٤ م، وأضحى من مسؤولي التنظيم الحوزوي والطلّابي للحزب في النجف الأشرف. واعتقل بتاريخ ١٩٦٩/٣/٢٤ م، وأودع السجن في «قصر النهاية» الرهيب، ثمّ أبعث إلى إيران عام ١٩٧٠ م في حملة التسفيرات التي طالت طلبة الحوزة الإيرانيين وغيرهم. وقد صدر بحقه حكم غيابي بالإعدام بعد سنوات من تسفيره.

وبعد هجرته هذه سكن في مدينة قم المقدّسة، وواصل دراسته الحوزوية فيها ما يقارب (١٠) سنوات، فدرس على أيدي أساتذتها الكبار وآياتها العظام، أمثال: السيّد محمّد رضا الكلبايكاني، والشيخ هاشم الأملي، والشيخ حسين الوحيد الخراساني.

كما قام بتدريس العلوم الحوزوية والإسلامية في حوزة قم وعدد من الجامعات والمراكز العلمية في مختلف أنحاء الجمهورية الإسلامية في إيران.

وفي إيران أصبح عضواً في مجلس الفقهاء المركزي لحزب الدعوة الإسلامية الذي تأسس هناك، لكنّه انسحب من المجلس عام ١٩٨٤ م ليتفرّغ للمسؤوليات الدعوية والحكومية التي أنيطت به من قبل الحكومة الإيرانية.

٦. شخصيته وأخلاقه

الشخصية: اصطلاح يضمّ في ثناياه عدّة معان، فقد يشير أحياناً إلى القدرة على حسن التعامل مع الناس اجتماعياً. وعلم النفس (Psgchology) ينظر إلى مصطلح (الشخصية) من خلال كونه موضوعاً للدراسة، له علاقة بالسلوك الإنساني المعقّد، بما في ذلك العواطف والأفعال والعمليات الفكرية أو المعرفية. وللشخصية أنماط وسمات يتمّ تشخيصها حسب التقديرات الذاتية والاختبارات الإسقاطية، كما هو موضّح في محلّه. وللبيئة التي يعيشها الإنسان التأثير الكبير في شخصية الفرد والجماعة، فأفعال الناس وتفكيرهم وشعورهم قد تعتمد إلى درجة كبيرة على الظروف المحيطة بالسلوك .

وشخصية الفرد يتمّ عكسها إلى الخارج عن طريق هيئته العامة وعن طريق أفعاله وتصرفاته كذلك. فمن ناحية السمات الجسدية للتسخيري فقد كان رجلاً أبيض اللون مشرباً بحمرة واسع الجبين ممتلئ الحاجبين متألئ العينين أشمّ الأنف رقيق الشفتين، وكان متوسط القامة تميل قامته إلى القصر متناسب الجسم ناعم اليدين رقيق الصوت ذا الحية. كما كان حسن المظهر والهندام، يهتمّ بأناقته ونظافة لباسه، ولباسه هو اللباس الديني الحوزوي المعروف، يعتّم بعمامة بيضاء.

ومن ناحية الصفات الأخلاقية فقد كان رجلاً متديناً متواضعاً صريحاً مرهف الحسّ شريفاً حنوناً ذا دعابة وروح مرحة. كما كان متّصفاً بالذكاء وطيب الخلق وحسن الحديث وصفاء النفس والإخلاص في العمل.

وبالنتيجة كانت للشيخ التسخيري شخصية قويّة جذابة محبّبة، تنفذ إلى قلوب الآخرين بكلّ تقدير واحترام وإجلال وهيبة، سواء كان الآخرون ممّن يوافقونه في الرأي أم يخالفونه. وهذه الشخصية استندت إلى عدّة مقوّمات أساسية، هي: المواهب المودعة فيه كالذكاء والحفاظة القوية وسرعة البديهة، والوفرة في العلم والاطّلاع الواسع، والسمات الرفيعة المتعالية على سفاسف الأمور.

٧. فعالياته الثقافية

نذكر فيما يلي موجزاً عن أهمّ النشاطات الثقافية للشيخ محمّد علي التسخيري:

١. المشاركة في تأسيس الكثير من المؤسّسات والمراكز الاجتماعية والفقهية والثقافية.

٢. المشاركة في عضوية العديد من المراكز العلمية والثقافية.
 ٣. التدريس في عدد من الحوزات العلمية والمعاهد والجامعات والمؤسسات.
 ٤. إقامة أو المشاركة فيها يقرب من ألف مؤتمر وندوة عالمية نيابةً عن الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
 ٥. مستشارية المرشد الأعلى في إيران وكذا لبعض الوزراء.
 ٦. إعداد أكثر من ست مائة وخمسين برنامجاً إذاعياً وتلفزيونياً باللغتين العربية والفارسية.
 ٧. الإنشاد لأكثر من ثلاثين قصيدة شعرية، وكتابة ديوانين للشعر.
 ٨. الإشراف أو المساهمة في الإشراف على أكثر من خمس وعشرين رسالة جامعية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.
 ٩. إنشاء بعض دور النشر للكتب الثقافية والدينية، كدار نشر الهدى.
 ١٠. الإشراف على الكثير من المجلات العلمية والثقافية.
 ١١. تأليف أكثر من خمسين كتاباً في مختلف المواضيع، كالفقه والتفسير والاقتصاد الإسلامي والتاريخ والفكر الإسلامي.
 ١٢. تدوين ما يقرب من خمس مائة مقالة، تم نشرها في الصحف والمجلات الإيرانية والعربية.
 ١٣. ترجمة ما يقرب من ثلاثة عشر كتاباً من الفارسية إلى العربية.
 ١٤. تقرير بعض بحوث أساتذته العلماء فقهاء وأصولاً، وذلك فيما يقرب من ثلاثة عشر تقريراً علمياً.
 ١٥. تقلد العديد من المناصب الإدارية والعلمية والحكومية.
 ٨. وظائفه ومسؤولياته
- لا يخفى أن الموظف في أية وظيفة ما يقدم خدمة عامة لأُمَّته وناسه، والوظيفة تكليف، وليست مغنماً يغنم أو متعة يستمتع بها، إنما هي قربة لله تعالى.
- من هذا المنطلق قدم الشيخ التسخيري على توالي العديد من الوظائف، وأنيطت به الكثير من المسؤوليات، وتحمل بعض المهام. وهي لا تخرج بمجملها عن إطار العمل الأكاديمي والعلمي. وها نحن هنا نذكر بعض مهامه ووظائفه ومسؤولياته:
١. رئاسة رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، وذلك منذ تأسيس هذه الرابطة سنة ١٩٩٤ م لغاية عام ٢٠٠١ م.

٢. رئاسة اللجنة الثقافية في مؤتمر القمة الإسلامية الثامن للدول الإسلامية في العاصمة الإيرانية طهران.
٣. رئاسة لجنة العمل الإسلامي المشترك في منظّمة المؤتمر الإسلامي.
٤. رئاسة الهيئة العليا لجامعة المذاهب الإسلامية في طهران.
٥. رئاسة اللجنة المشرفة على تعليم الطلاب الأجانب داخل وخارج إيران.
٦. نيابة رئاسة لجنة الشورى العليا في مجمع فقه أهل البيت (ع) في قم.
٧. نيابة رئاسة الأتحاد العالمي للعلماء المسلمين في لندن.
٨. نيابة رئاسة المجلس الأعلى للتقريب في المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو» في المغرب.
٩. ممثلية أهالي محافظة جيلان (رشت) في مجلس خبراء القيادة، ولعدة دورات، وذلك ابتداءً من عام ١٩٩٨ م.
١٠. ممثلية الجمهورية الإسلامية الإيرانية في الكثير من المؤتمرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية خارج البلد.
١١. ممثلية الحوزة العلمية في إيران والمذهب الإمامي في مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة، وذلك منذ تأسيسه سنة ١٩٨٣ حتى سنة ٢٠٢٠ م.
١٢. الإشراف العام على بعض المجلّات العربية الصادرة في إيران، كمجلّة «رسالة التقريب» الطهرانية، ومجلّة «التوحيد» القميّة.
١٣. الأمانة العامّة للمجمع العالمي لأهل البيت: لمدة تسع سنوات.
١٤. الأمانة العامّة للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية لمدة إحدى عشرة سنة.
١٥. مستشار مرشد الجمهورية الإسلامية في إيران سماحة الإمام الخامني في الشؤون الثقافية للعالم الإسلامي.
١٦. مستشار وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي للعلاقات الدولية.
١٧. وكيل وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي في إيران.
١٨. المستشار الأعلى للشؤون الدولية لبعثة قائد الجمهورية الإسلامية الإيرانية للحجّ.
١٩. معاون العلاقات الدولية في مكتب القيادة الإسلامية منذ عام ١٩٩٠ م.

٢٠. معاون العلاقات الدولية في بعثة القيادة لشؤون الحج والزيارة.
٢١. معاون العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، وذلك منذ سنة ١٩٨١ م إلى سنة ١٩٩١ م.
٢٢. أستاذ الدراسات العليا في جامعة الإمام الصادق ٧ في طهران لهادة الفقه المقارن.
٢٣. أستاذ الدراسات العليا في جامعة إعداد المدرسين لهادة الاقتصاد الإسلامي.
٩. عضويته في المراكز العلمية والثقافية الإسلامية
- كانت للشيخ التسخيري عضوية في الكثير من المراكز واللجان والهيئات والمؤسسات والمجالس والمعاهد الإسلامية؛ وذلك لما توفر عليه من شخصية علمية فذة ومسؤوليات عليا أنيطت به.
- والآن نستعرض عضويته فيما ذكرناه:
١. هيئة أمناء الشورى الدولية وشورى الكتاب لمنظمة الإعلام الإسلامي.
 ٢. هيئة أمناء منظمة الحوزات العلمية والمدارس الدينية والأكاديمية خارج إيران.
 ٣. هيئة الأمناء في لجنة الدفاع عن حقوق الطفل (كافل).
 ٤. الهيئة المشرفة على كلية أصول الدين للسيد مرتضى العسكري في طهران.
 ٥. هيئة أمناء المجمع الثقافي لمنظمة «الإكو».
 ٦. الهيئة المركزية لملتقى العلماء والمفكرين في مكة المكرمة.
 ٧. الهيئة المركزية لرابطة علماء المسلمين في مكة المكرمة.
 ٨. لجنة الشورى العليا للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
 ٩. لجنة الشورى العليا لمجمع فقه أهل البيت (ع) في قم.
 ١٠. لجنة الثقافة العليا لمؤسسة «أمير كبير» من عام ١٩٨١ م لغاية عام ١٩٨٦ م.
 ١١. اللجنة الفقهية لبنك التنمية الإسلامية في جدة.
 ١٢. لجنة خبراء منظمة المؤتمر الإسلامي لدراسة تحديات القرن الحادي والعشرين.
 ١٣. لجنة الشخصيات البارزة المشكلة لدراسة وضع منظمة المؤتمر الإسلامي، وذلك بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيسها.

١٤. مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة، وذلك منذ تأسيسه سنة ١٩٨٣ م حتى سنة ٢٠٢٠ م.
 ١٥. مجمع اللغة العربية في دمشق.
 ١٦. المجلس الشرعي لهيئة محاسبة المؤسسات المالية في البحرين.
 ١٧. المجلس الشرعي لهيئة الإشراف على المؤسسات المالية العالمية.
 ١٨. مؤسسة آل البيت: للفكر الإسلامي في الأردن.
 ١٩. مركز الحوار بين الحضارات والتنوع الثقافي في فاس (المغرب).
 ٢٠. المعاهد العلمية الجامعية في سوريا والسودان (عضوية فخرية).
 ٢١. مجلس خبراء القيادة في إيران منذ سنة ١٩٩٨ م حتى سنة ٢٠٢٠ م.
 ١٠. أوسمته وميدالياته
- نظراً للمكانة العلمية التي حازها الشيخ التسخيري حرصت الجهات العلمية المختصة وغيرها على تكريمه والاستفادة مما لديه من علم وخبرة في المجالات العلمية. وها هي قائمة ببعض ميدالياته وأوسمته:
١. وسام الاستقلال من الدرجة الأولى من قبل حكومة المملكة الأردنية الهاشمية.
 ٢. وسام الشخصيات الممتازة والبارزة من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي.
 ٣. وسام الشرف (الميدالية السامية) لمسلمي روسيا من قبل إدارة المفتيات في موسكو.
 ٤. وسام الصلح من قبل بعض المنظمات الإسلامية.
 ٥. ميدالية السلام العالمي من قبل المؤتمر العالمي للسلام في الهند لعام ٢٠١٠ م. وقد يكون هو نفسه المتقدم في النقطة الرابعة.
 ٦. الميدالية الذهبية من قبل المنظمة الإسلامية للعلوم والفنون والثقافة «الإيسيسكو».
 ٧. الميدالية العالمية للمؤلفين من قبل وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
 ٨. الميدالية التقديرية من قبل رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية (ميدالية الخدمة من الدرجة الأولى).
 ٩. درع تقديري من قبل تجمّع العلماء المسلمين في لبنان.

١٠. درع تقديري من قبل حزب الدعوة الإسلامية في العراق.

١١. حفلات التكريم المقامة له

أقيمت للشيخ محمد علي التسخيري عدّة حفلات تكريمية من قبل بعض المراكز العلمية والحكومية والإسلامية؛ وذلك لمكانته العلمية السامية وجهوده الجبارة للخدمة.

نأتي هنا لذكر بعضها:

١. المفتي العالمي لروسيا الاتحادية / موسكو.

٢. منظمّة التعاون الإسلامي / جدة.

٣. مؤسّسة آل البيت: للفكر الإسلامي / عمّان.

٤. تجمّع العلماء المسلمين / بيروت.

٥. مجمع اللغة العربية / دمشق.

٦. المنظمّة العالمية للسلام العادل / نيودلهي.

٧. حزب الدعوة الإسلامية / النجف.

٨. المنظمّة العالمية للسلام العادل / طهران.

٩. مؤسّسة الفكر الإسلامي / طهران.

١٠. رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية / طهران.

١١. بلدية طهران / طهران.

١٢. وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي / طهران.

١٣. المراكز الثقافية لمحافظة مازندران الإيرانية / ساري.

١٤. منظمّة الإيسيسكو.

هذا، وقد نشرت له أو عنه حوالي (٢٠٠) صحيفة ومجلّة في مختلف أقطار العالم وبلغات مختلفة.

١٢. الشيخ التسخيري والوحدة الإسلامية

الشيخ التسخيري رجل غزير العلم عالي الهمة سريع البديهة حاضر الذاكرة، وهو متابع أصيل للقضايا الإسلامية، من يعايشه يتعلّم منه دروساً في التواضع ودمائة الأخلاق، وترى البشاشة والابتسام لا تفاقو حيّاه، الأمر الذي ينمّ عمّا يعتمل في قلبه الكبير من فيض الحبّ

العظيم للمسلمين على مختلف مذاهبهم.. أمّا سعة صدره ورؤيته في التعامل مع الناس فحدّث عنها ولا حرج!

ومن الإحساس بوجود تحدّ مشترك يواجه الإسلام بكلّ تلويناته المذهبية ينطلق الشيخ التسخيري للدعوة إلى الوحدة الإسلامية والتنظير لها والكفاح من أجلها. ومن هنا كانت الوحدة الإسلامية همّاً فكرياً له قبل أن تكون همّاً فعلياً إدارياً من خلال تصديده برهه من الزمن للأمانة العامّة للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

وهو يرى أنّ «الاحتباس الطائفي» هو أحد أمراض الصحوة الإسلامية ومن معوّقات تطوّرها واستمرار بقائها؛ لأنّ تحوّل المذهب بعد ذلك إلى طوائف وتدخّل الأهواء الشخصية ومصالح حكام السوء خلق النزاع بينها وأفقد الأمة حلاوة الاجتهاد الحرّ، ما دعا البعض إلى إغلاق باب الاجتهاد.

وبحسب الشيخ التسخيري ليست الدعوة إلى الوحدة هوية يمارسها المرء في أوقات فراغه، بل هي ضرورة ماسّة، على الجميع السعي لتحقيقها وتمتينها.

وقد تميّز التسخيري في سعيه الوحدوي من خلال مجمع التقريب عن كثير من أقرانه، حيث سعى لتأصيل مفهوم الوحدة وبنائها على أسس محكمة البنين. ومن أهمّ ما يشار إليه في هذا المجال المشروع الرائد الذي أشرف عليه ورعاه «موسوعة الأحاديث المشتركة عند السنّة والشيعه». وأهميّة هذا المشروع. والذي تحقّق على أرض الواقع. تكمن في أنّه يكشف عن جذور مشتركة مهمّة يمكن أن يبني عليها للوصول إلى التكامل والتواصل بدل التناقص والانفصال.

يقول الشيخ التسخيري: «إنّنا نعتقد بكلّ وضوح أنّ سبيلنا الحقيقي هو سبيل الوحدة الإسلامية الكبرى، ولذا فلن نضعف عن الدعوة إليها والاستجابة لنداء الإمام القائد الكبير لتحقيقها... إنّ المسلمين جميعاً ينطلقون عن أصول العقيدة الأولى، يرجعون إلى المنبعين الرئيسيين الكتاب الكريم والسنّة الشريفة، ويؤمنون بالإسلام منهج حياة... فليعمل المفكرون والمسؤولون والواعون المتألّمون لقضايا أمتهم العاملون على دفع مسيرتها إلى الأمام على تحقيق الهدف الكبير عبّر تعميق هذه الأسس المشتركة في وجود الأمة وتوضيح مقتضياتها العملية، ولتسكت كلّ صرخة مفرّقة؛ لأنّها لا تصدر إلا من شيطان أو جاهل أو متعصّب مقيت».

ويرى الشيخ التسخيري أنّ الوحدة بين المسلمين ينبغي أن لا تبني على أسس زائفة من المصالح السياسية والقومية أو التعصّب القبلي أو العامل الجغرافي أو التاريخ المشترك أو الحضارة الماديّة أو المصالح الطبقية، بل يجب أن تبني على أساسين: العقيدة الحيّة الواقعية، والعاطفة القائمة على أساس عقائدي ينطلق من القرآن الذي يؤكد على وحدة القلوب، تلك الوحدة التي لو أنفق ما في الأرض على تحقيقها بالعوامل الماديّة لما تحققت.. يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

لقد بين الشيخ التسخيري أسس ومعالم التلاقي الفكري والعقدي بين أبناء الأمة الإسلامية استناداً إلى الكتاب العزيز والسنة المكرّمة، وعدّها منهجاً مهيباً للوصول إلى الوحدة الإسلامية المنشودة.

وهذه المعالم والأسس كما يلي:

١. الإيمان الاجمالي بالتوحيد الإلهي.
٢. الإيمان برسالة النبي الأعظم ٩ ولزوم طاعته فيما يصدر عنه.
٣. الإيمان بالكتاب الكريم والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وقبول تعاليمه.
٤. الإيمان الاجمالي بالمعاد واليوم الآخر.
٥. الإيمان بالتشريع الإسلامي لمجموعة الأحكام المنظّمة للسلوك الفردي والاجتماعي، ولزوم تنفيذ تلكم الأحكام فيما لو كانت ملزمة .

ووضع الشيخ الراحل رؤية واضحة المعالم لتحقيق الوحدة الإسلامية من خلال الالتفات إلى بعض المسائل الجوهرية، وهي:

١. الأصول والأركان الإسلامية الأولى الواقعة موقع البدييات في عالم الإسلام، حيث يجب أن تشكل المساحات الفكرية المشتركة.
٢. الأخلاقية العامة التي تشكل الخصيصة المشتركة الأخرى، بل يتعدّى هذه المساحة إلى حيث يشغل كلّ الخصائص العامة للأمة الإسلامية، فيجب العمل من قبل المسلمين للتحلّي بهذه الخصائص.

٣. تطبيق الشريعة الإسلامية في كافة مرافق الحياة. ويمكن أن يعدّ هذا من البديهيّات الفقهية للدين الإسلاميّ باعتباره أطروحة حياة جاء بها الأنبياء والرسل ليعدّوا البشرية لتقبّلها وتطبيقها.
٤. الموقف السياسي الموجّه من القضايا العالمية، خصوصاً من مواجهة أعداء القضية كلّها، وهم المشركون والمنافقون والمستكبرون، والعمل على الدفاع عن بيضة الإسلام .
- ومن ثمّ يبيّن الشيخ معالم الآليات التي مآلها تحقيق الوحدة الإسلامية، ويلورها في البنود التالية:
١. إقامة الوحدة الإسلامية التي يسعى لها الإسلام على أساس العقيدة والعاطفة معاً، ويتمّ التعبير عنها بوحدة القلوب.
٢. إيقاف النظام الإسلاميّ للمسلمين جميعاً أمامه على حدّ سواء دونما تمييز، وإشعارهم بلزوم تحمّل مسؤولياتهم المشتركة تجاهه دونما أيّ تقصير وتهاون، وإلا لوجّه اللوم للجميع على حدّ سواء.
٣. حذف الإسلام لمقاييس التفاضل كلّها، والإبقاء على المقاييس المعنوية فقط، وهي التقوى والعلم والعمل والجهاد، وبذلك وفرّ أروع أرضية للوحدة.
٤. وجود مساحات فعلية تشعر المسلمين بوحدتهم من ناحية ما تقرّره الشريعة الإسلامية من ملكية عامّة لأفراد الأُمّة.
٥. وقوف نظام العبادات في طليعة النظم التي تؤدّي إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، حيث يقف المسلمون في كلّ بقاع الأرض في وقت واحد عرفاً متّجهين إلى مكان واحد مردّدين ذكراً واحداً مؤدّين لعمل واحد ملتزمين بشروط واحدة. وحين تدخل الأُمّة الإسلامية جمعاء في عملية تربوية كبرى كلّ عام شهراً واحداً. وبمحض إرادتها. تتدرّب على استرجاع إنسانيتها. وهكذا نصل إلى الحجّ كعملية تربوية رائعة يجتمع فيها ممثّلوا الأُمّة الإسلامية من كلّ حذب وصوب، فتنغرس في نفوسهم معاني الأُمّة الواحدة العابدة الطائفة حول التوحيد والرافضة للنظم الوضعية والأخلاق الصنمية والملتزمة بحدود الله والمبتعدة عن حرّماته .
١٣. وفاته ومدفنه

أصيب الشيخ التسخيري في أواخر عمره بالوهن والضعف نتيجة لإصابته ببعض الأمراض، ومنها السكتة الدماغية، غير أنّه كان يكافح وينافح ويسعى بجِدّ وإقدام، فتراه

مشاركاً في مؤتمر أو ندوة أو كاتباً لبحث ما أو خطيباً في محفل ما.. وهكذا كانت حياته الشريفة كلها حركة وجهاد ومثابرة وسعي.

وفي تاريخ ٢٤/١٢/١٤٤١ هـ. ق. المصادف لـ ٢٤/مرداد/١٣٩٩ هـ. ش. رحل الشيخ عن عالمنا في إحدى مستشفيات طهران عن عمر ناهز ٧٦ سنة، قضاها في التأليف والتدريس والجهاد والمصابرة والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين.

وقد شاع خبر وفاته، وأذيع في المحطّات الإذاعية والتلفزيونية والألكترونية، ونشر في الصحف والمجلّات، فتألّم محبّوه ألماً عظيماً وزلزلوا زلزالاً شديداً ونزل عليهم نبأ وفاته كالصاعقة، فكان يوماً ثقيلاً على الشعب الإيراني وعلى الأمة الإسلامية.

وثمّ نقل جنازته إلى مدينة قم المقدّسة، فأقبر هناك عند ضريح السيّدة فاطمة المعصومة ابنة الإمام موسى الكاظم ٧.

ثانياً: شخصيته العلمية والتمعن في آثاره

١. آثاره وكتاباته

لقد استطاع الشيخ محمّد علي التسخيري أن يثري المكتبة الإسلامية بطائفة كبيرة من المؤلفات التي خطّها قلمه ودبّجتها يراعه، فكانت ثروة ضخمة وتراثاً علمياً كبيراً، حيث ناهزت الستين مجلّداً وبحثاً، هذا فضلاً عن مئات المقالات التي كان يحرّرها في المؤتمرات والندوات العلمية، والتي نشرتها مختلف المجلات العلمية الإسلامية. وقد ترجمت بعض آثاره إلى اللغة الفارسية والتركية والإنجليزية والأوردية.

إنّ عناية الشيخ باللغة والأدب جعلته يدرك قيمة الكلمة وأثرها في بناء الشخصية وتكوين الرأي العامّ الفاضل، ومن هنا جاء اهتمامه بالتأليف وتدوين الكتب والبحوث والمقالات وإعداد المحاضرات العلمية والثقافية. ولم يكن مجرد كاتب يكتب ما يوحي إليه قلمه، وإنّما كان صاحب فكر ودعوة ومنهج متميّز في التأليف والكتابة.

وقد تسنّى له. وذلك من خلال حياته العلمية المليئة بالعمل المثمر الجاد. أن يضع إنتاجاً علمياً غزيراً ومتنوعاً في أغلب علوم الشريعة الإسلامية، من فقه وأصول وتفسير وعلوم قرآن وعقيدة وفكر إسلامي وحديث واقتصاد وتاريخ.

ولا يخفى أن بعض آثاره هي ترجمة لبعض الكتب الثقافية التي خطتها يراعة أستاذه الشيخ الشهيد مرتضى المطهري والشيخ العلامة محمد تقي مصباح اليزدي، وكذا لبعض منشورات مؤسسه «في طريق الحق».

وها هي عناوينها الواحد تلو الآخر:

١. نظام العبادات في الإسلام.
٢. القواعد الأصولية والفقهية على مذهب الإمامية (بالاشتراك).
٣. مع مؤتمرات مجمع الفقه الإسلامي.
٤. نظرة في نظام العقوبات الإسلامية.
٥. رأي الإسلام في السلام المفروض.
٦. الاقتصاد الإسلامي.
٧. خمسون درساً في الاقتصاد الإسلامي.
٨. التعليقة على كتاب الأحاديث المشتركة في الاقتصاد الإسلامي للدكتور منذر قحف.
٩. الأحاديث المشتركة حول الصوم.
١٠. الأحاديث المشتركة حول صلاة الجمعة.
١١. الأحاديث المشتركة حول الحج.
١٢. الأحاديث المشتركة حول الزكاة.
١٣. الدولة الإسلامية.. وظائفها السياسية والاقتصادية.
١٤. حول كتاب الآيات الشيطانية لسلمان رشدي.
١٥. حول الدستور الإسلامي في مواده العامة (الأسس المهمة في النظام الإسلامي).
١٦. حقوق الإنسان بين الإعلان العالمي والإسلامي.
١٧. المختصر المفيد في تفسير القرآن المجيد (بالمشاركة).
١٨. خرافة أزلية الهادة.
١٩. الإنسان والقدر (ترجمة).
٢٠. الدوافع نحو الهادية (ترجمة).

٢١. دروس في أصول الدين (ترجمة).
٢٢. الإمامة والولاية في القرآن الكريم.
٢٣. حول النظرية الكونية (ترجمة).
٢٤. الفطرة والله.
٢٥. حول القرآن.
٢٦. في الطريق إلى التوحيد الإلهي.
٢٧. من حياة أهل البيت .:
٢٨. بحث حول المهدي (عج).
٢٩. النبي الأمي (ترجمة).
٣٠. حياة نبي الإسلام (ترجمة).
٣١. الشفق الوهوب (أوراق وأعماق).
٣٢. النبع والسمة.
٣٣. مع بعض المؤتمرات الإسلامية لوزراء الخارجية.
٣٤. التقارب الإسلامي. المسيحي.
٣٥. الصحوة الإسلامية والإعلام.
٣٦. ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر.
٣٧. الظواهر العامة في الإسلام.
٣٨. التوازن في الإسلام.
٣٩. الإسلام دين الكرامة الحقّة.
٤٠. المؤتمر الدولي للسكان والتنمية.
٤١. الحجّ.. أهدافه ودوره.
٤٢. الأقليات الإسلامية وعلاقتها بمجتمعاتها.
٤٣. نشيد المقاومة الفلسطينية.
٤٤. الهدف السامي للحياة الإنسانية (ترجمة).

٤٥. نحو حياة أفضل (ترجمة).
٤٦. التكامل الاجتماعي للإنسان (ترجمة).
٤٧. العودة إلى الذات (ترجمة).
٤٨. حول المثالية والواقعية.
٤٩. مع الأمة والذكريات.
٥٠. أضواء على طريق الوحدة الإسلامية.
٥١. حول الوحدة والتقريب.
٥٢. حول الشيعة والمرجعية.
٥٣. الوحدة.
٥٤. الحوار مع الذات والآخر.
٥٥. الحوار مع الآخر.
٥٦. رسالتنا تقريب الفكر وتوحيد العمل.
٥٧. إلى الوحدة أيها المسلمون.
٥٨. نظرات حول المرجعية.
٥٩. حول دستور الجمهورية الإسلامية في إيران.
٦٠. حول الصحوة الإسلامية.
٦١. محاضرات في علوم القرآن.
٦٢. القرآن والطبيعة (ترجمة).
٦٣. لمحات من فكر بعض الشخصيات التقريبية.
٢. الميزات الكلية لآثار آية الله التسخيري العلمية
وبنظرة كلية نستطيع القول: إن آثاره تحتوي على ميزتين بارزتين:

أ. الانسجام والانطباق مع مقتضيات الزمان

يجب اعتبار الشيخ بحق أحد الأمثلة البارزة لـ "العالم بزمانه". أولئك الذين، حسب قول الإمام الصادق (عليه السلام)، لم يكونوا منفعلين في مواجهة هجمة الأحداث والشكوك الفكرية في

عصرهم، بل كانوا يؤدون رسالتهم بوعي كامل وبصيرة: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللواسب». ونظرة إجمالية إلى مجموعة آثاره تظهر لنا بوضوح أن في كل منها نوعاً من التنسيق والتطبيق مع متطلبات العصر، وكذلك الاستجابة للاحتياجات الأساسية للمجتمعات الإسلامية.

ب. وحدوية الآثار

والميزة الأخرى لآثاره هي طبيعتها التقريبية. وهو من نوادر المفكرين الذين تتشابه حياتهم العلمية مع قضية التقريب والوحدة الإسلامية. يمكن رؤية هذا النهج في جميع أعماله العلمية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه السمة تنبع أيضاً من نظراته العميقة لقضايا العالم الإسلامي. لا شك في أن هيمنة العالم الغربي على البلدان الإسلامية منذ قرون ترجع إلى الانقسامات الموجودة بين المسلمين. لذلك فإن أي جهد فكري وعملي لتقريب المسلمين بعضهم من البعض سيكون له الدور الحيوي والحاسم في إحياء الهوية الإسلامية.

ج. الاشتغال على البعد التقريبي والوحدوي

نظراً إلى تأثير آية الله التسخيري من الأساتذة، كان يُعدُّ ملخصاً موجزاً من المعرفة الصدرائية للشهيد السيد محمد باقر الصدر وتزامناً مع ذلك نظرة الشهيد لمطهري الجديدة والاستكشافية. إلا أن انتصار الجمهورية الإسلامية الإيرانية بقيادة الإمام الخميني أتاح له ولكل المفكرين الأحرار فرصة اختبار مواردهم في مجال الممارسة. وهذا شيء لم يستمتع به حتى أساتذتهم أنفسهم. هذا التجوال في العالم، جنباً إلى تلك الآراء فوق المذهبية وفوق الدينية، عندما يتم دمجها معاً، تخلق مزيجاً لطيفاً يجعل أخلاقه وخطابه مريحاً للجميع. وحقاً إن آية الله التسخيري هو مثال واضح على هذه الحقيقة. وبفضل سفراته العديدة ولقاءاته العلمية ومحادثاته الكثيرة مع مفكري العالم الإسلامي وغير الإسلامي، أصبح هو نفسه مكتبة متنقلة في تبين وانعكاس المعارف الإسلامية. إطلالة على آراء ونظرات الشيخ التسخيري العلمية:

أولاً: في حقل علوم القرآن والتفسير

(١) التفسير الترتيبي للقرآن الكريم من وجهة نظر آية الله التسخيري

يُعَدُّ كتاب (المختصر المفيد في تفسير القرآن المجيد) الذي جمع بمساعدة أحد أصدقاء آية الله التسخيري . وهو الشيخ محمد سعيد النعماني . وتوجيه من أستاذهم الشهيد السيد محمد باقر الصدر، من أفضل أعماله . رغم أن العديد من تفاسير القرآن الكريم قد كتبها علماء الطوائف حتى الآن، إلا أن معظمها يقع بعيداً عن متناول عامة المسلمين بسبب المحتوى الثقيل والتفصيل للقضايا المطروحة فيها . وبمقارنة هذا التفسير بتفسيرات أخرى، لا بد من القول بأنه حتى التفسيرات التي تعادل تفسير "المختصر المفيد" من الناحية الكمية، إلا أنها بعيدة عن ذلك من حيث المضمون .

تتمثل إحدى المزايا الرئيسية لهذا الشرح في أنه أمام كل صفحة من صفحات القرآن ورد تفسيرها بتعبير واضح وسلس . وهذا يعطي القارئ الفرصة للوصول إلى مستوى عالٍ من الفهم القرآني في أقصر وقت ممكن . على الرغم من أن هذا النهج واضح في جميع أعماله، إلا أنه يبدو أكثر وضوحاً هنا، حيث يمكن لجميع المسلمين بمختلف طوائفهم الاستفادة منه . يحاول مؤلف هذا التفسير تجنب الخوض في قضايا غير ضرورية مثل القراءات المختلفة والبيان التفصيلي للأقوال، وما إلى ذلك مما يصرف الجمهور عن الهدف الرئيسي . تتيح هذه الميزة في تفسير "المختصر المفيد" للقارئ الوصول بسهولة إلى مستوى عالٍ من فهم القرآن . وفي النهاية، فإن الاهتمام الجاد بأبعاد الإسلام المختلفة، بما في ذلك قضاياها الاجتماعية، هو أحد سمات هذا العمل القيم .

(٢) التفسير الموضوعي للقرآن من وجهة نظر آية الله التسخيري

تجدر الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى التوضيح الإجمالي لعمل آية الله التسخيري الثمين في تدوين التفسير الترتيبي للقرآن الكريم باسم "المختصر المفيد في تفسير القرآن المجيد"، هناك عدة مقالات ألفتها في التفسير الموضوعي للقرآن والتي تم فيها تناول أهم الموضوعات الأساسية التي هي مورد ابتلاء المجتمعات الإسلامية . وعناوين بعض المقالات المذكورة هي كالتالي:

١. الفطرة فن الله وإبداعه الخالد .
٢. سيدنا إبراهيم ٧ نموذج الإنسان الحضاري الكامل .
٣. سيدنا موسى ٧ منقذ المستضعفين في وجه فرعون رمز الطغيان .

٤. سيدنا عيسى ٧ في وجه التحريف والأوهام والهادية.
٥. رسول الله ٩ في وجه الوثنية والجاهلية والتحريف.
٦. مستقبل المجتمع الانساني.
٧. شروط الحوار.
٨. الحقوق الفردية والاجتماعية.
٩. العلاقات الدولية.

(٣) العلوم القرآنية من وجهة نظر آية الله التسخيري

تعتبر العلوم القرآنية من العلوم الأساسية التي تعتبر معرفتها مهمة للغاية قبل الدخول في مجال تفسير وتبيين المعارف. و من جملة الموضوعات في هذا المجال: حقيقة الوحي وكيفية علاقة الله الكلامية بالإنسان، والآيات المحكمة والمتشابهة واختلافها مع التأويل، وكيفية تجميع القرآن، والتطورات التي حدثت في نزول هذا الكتاب، وعشرات، القضايا الأخرى التي يبتني عليها تفسير القرآن.

ولهذا السبب يحتل البحث في هذا القسم مكانة خاصة بين مجموعة أعمال آية الله التسخيري. وقد كتبت مقالات عديدة عن العلوم القرآنية في كتاب "محاضرات حول القرآن"، الذي يتكون من جزئين: "البحث في علوم القرآن" و "نماذج من التفسير الموضوعي". وإن أهم ما يميز كل هذه هو النهج التقريبي والنظرة الشمولية والاهتمام بانطباقها مع قضايا وشبهات المجتمع اليوم.

ثانياً: في حقل علوم الحديث

تعدُّ موسوعة "سلسلة الأحاديث المشتركة بين السنة والشيعة" الكبرى من بين الأعمال الخالدة لآية الله التسخيري والذي بذل جهداً جاداً في الإشراف. و حتى المشاركة. على تجميع وتدوين الروايات المشتركة بين الفريقين.

على الرغم من أن الخطة الرئيسية لهذا المشروع العلمي قد تم اقتراحها من قبل اثنين من الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي: آية الله البروجردي (المرجع الشيعي الكبير المعروف) والشيخ محمود شلتوت (رئيس جامعة الأزهر في مصر)، لكن توقف تنفيذها بسبب ما، وأما الإقدامات الجزئية التي تم اتخاذها في وقت حياة هذين العالمين لتطبيق الخطة، تم التخلي عنه تماماً مع وفاتها.

مع بداية قيادة المرشد الأعلى للثورة وتأسيس مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية عام ١٩٩٠، تم وضع هذا المشروع على جدول أعمال مجمع التقريب. فاتخذ آية الله التسخيري نفسه الخطوات الأولى في تحقيقها من خلال تدوين عدة مجلدات من هذه المجموعة يعني: (صلاة الجمعة، الصوم، الحج في "مجلدين").

إن متابعة وتكميل هذه الحركة العلمية من قبل مجموعة القرآن والحديث التابعة لـ "معهد الدراسات التقريبية" والدعم البالغ والجاد من قبل آية الله التسخيري، قد مكّن هذه المجموعة من إكمال هذا المشروع في حوالي ١٢ عاماً بحمد الله من خلال الاستفادة من العشرات من الباحثين الحوزويين. وأخيراً، نشرت وبطريقة وزينة ورائعة عن دار الولاء بيروت الموسوعة الكبرى لسلسلة الأحاديث المشتركة بين السنة والشيعة تحت عنوان: "السنة النبوية في مصادر المذاهب الإسلامية" على شكل ٦٣ جزءاً وفي ٢٠ مجلداً ضمّ ٥٠ عنواناً (الكلامي، الفقهي، السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي والأخلاقي، إلخ).

و. بالتأكيد سيكون تنفيذ هذا المشروع خطوة كبيرة في تقريب المذاهب الإسلامية والوحدة الحقيقية بين المسلمين.

في هذا الصدد ينبغي أن يقال:

١. تعتبر موسوعة "سلسلة الأحاديث المشتركة بين الفريقين" التي حك على غلاف مجلداتها عنوان: "السنة النبوية في مصادر المذاهب الإسلامية" مصدراً موثقاً به وشاملاً لجميع الباحثين الذين يستخدمون المنهج المقارن في بحوثهم القرآنية، والفقهيّة، والكلامية .. و ...
٢. إن الموسوعة المذكورة أعلاه، إذا راجعها علماء المذاهب الإسلامية في مقام استنباط الأحكام والتعاليم الدينية، يمكن أن تمهد الطريق لوجهات نظر والفتاوى المشتركة بينهم، وتحرر المجتمعات الإسلامية من ويلات الانقسامات والتشتت الفكري.
٣. إن تعريف موسوعة "سلسلة الأحاديث المشتركة" الكبرى في المجتمعات الإسلامية سيضع حداً للعديد من شكوك الجهلة حول ضرورة التقريب والوحدة بين أتباع المذاهب الإسلامية، ويمهد الطريق للوحدة والتماسك الفكري في العالم الإسلامي.

ثالثاً: في حقل الفقه المقارن

ما كتبه ساحة آية الله التسخيري في الفقه يقتصر على المقالات التي قدمها "للمجمع الفقهي الإسلامي بجدة"، وهي نفس المقالات التي نُشرت فيما بعد في مجلة "رسالة التقريب" وبعض المجلات الأخرى، والتي جمعت ودوّنت معظمها في كتاب بعنوان "مع مؤتمرات مجمع الفقه الإسلامي" في ستة مجلدات في معهد الدراسات القرآنية. وتجدر الإشارة إلى أن معظم تلك المواد مكرسة لقضية الفقه المقارن والمسائل المستحدثة الفقهية.

آية الله التسخيري هو من المفكرين القلائل الذين استفادوا من معين الإسلام في المستويات العقائدية، والتعبدية، والتشريعية، والفكرية، والفقهية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وكأنه أصبح يشبه بموسوعة شاملة. ولهذا رأينا أنه وجّه حياته نحو تطبيق فكره وقلمه في مسارات علمية وفكرية وثقافية مختلفة.

وكان للشيخ التسخيري العديد من الدراسات والبحوث والمقالات الفقهية التي تم نشرها في مجلات علمية وفكرية ودينية وثقافية وخاصة في مجلتي: "مجمع الفقه الإسلامي" بجدة و "رسالة التقريب" في طهران. وله مؤلفات مختلفة منها: "مبادئ هامة في النظام الإسلامي"، "نظام الجزاء في الإسلام"، "الاقتصاد الإسلامي"، "الصوم" آثاره وأحكامه، "طهارة الكتابي"، "القواعد الفقهية والأصولية طبقاً للمذهب الإمامي" (بمشاركة جماعة) و "مع مؤتمرات مجمع الفقه الإسلامي". الآن، ومع التفسيرات المذكورة أعلاه، فإننا نعيد النظر في "خصائص المنهج الفقهي لآية الله التسخيري":

الميزة الأولى: محورية العرف

على الرغم من انتهاء آية الله التسخيري إلى المدرسة العقلانية الدقيقة للشهيد الصدر، فإن مقارنته للتفاعل العرفي مع الأدلة الشرعية كانت واضحة تماماً. وكان يعتقد أن الفهم العرفي يستخدم في بعض مجالات الفقه لاكتشاف السنة والتعرف على مراد الشارع. وهذه الميزة الاستنباطية له تتماشى تماماً مع منهج الشارع المقدس في تشريعاتها وحواراتها؛ لأن الشارع في تعبيره اللساني يتفاعل كالأسلوب المتعارف الذي يتفاعل فيه الناس مع بعضهم البعض وفقاً لمبادئ وقواعد المحاوراة فيما بينهم.

الميزة الثانية: النزعة التاريخية

يُعدُّ الاهتمام بالبعد التاريخي من أهم سمات الأبحاث الفقهية لآية الله التسخيري؛ لأن النزعة التاريخية لها تأثير كبير على الأبحاث الفقهية وعملية الاستنباط. ولذلك فإن البعد التاريخي له دور كبير في فهم النصوص الشرعية وتحديد مصاديق الحكم الشرعي. وبحسب معتقد آية الله التسخيري، إذا كان هناك من يجهل هذا البعد، فإن هذا الإهمال سيكون له تأثير معاكس على طبيعة تفكيره والبيانات التي يتم الحصول عليها من هذا التفكير. ولذلك، فإن المباحث المقدمة الفقهية والأصولية و... لها مكانة مؤثرة في فهم ذاك المجال العلمي.

الميزة الثالثة: المرجعية القرآنية

إن "مرجعية القرآن" في الاستنباطات الفقهية أمر ضروري ويجب على جميع فقهاء المذاهب الانتباه إليه. وفي الواقع القرآن هو الفصل المشترك بين الفقهاء في الدراسات الفقهية. يقول آية الله التسخيري في هذا الصدد: «إن معنى "مرجعية القرآن" وجعله حكماً لا يعني أن القرآن هو المصدر الرئيسي للتشريع؛ لأن هذا أمر لا شك فيه. ولكننا نعني أن تكون للقرآن الكريم مرجعية في فهم الأخبار والروايات وفهم الآيات القرآنية الأخرى. فيجب تفسير السنة النبوية الشريفة وروايات أهل البيت (عليهم السلام) في إطار النظام القرآني؛ لأن فهم السنة بدون القرآن غير ممكن».

الميزة الرابعة: الإيجاز المفيد

ومن خصائص آية الله التسخيري الأخرى في استنباطاته الفقهية هي التركيز على مكان الخلاف والابتعاد عن المناقشات الهامشية. فكان يعتقد بأنه لا بدَّ على الفقيه ألا يكون له دور جاد في المناقشات اللفظية مثل ما هو دارج في إعطاء تعريفات من العناوين والمواضيع، إلا أن يكون للتعريف المذكور دخلاً في نتيجة المناقشة.

الميزة الخامسة: التجديد الفقهي

على الرغم من أن آية الله التسخيري كان يتمتع بعمق كبير في الفقه في مجال التراث العلمي، سواء

من حيث المضمون أو من حيث الآليات والأدوات، إلا أن لديه ميل كبير لتفعيل الفقه وحدائته، من أجل اتخاذه في اتجاهات جديدة تلبى احتياجات المجتمع الإسلامي المعاصر وتستجيب لتطلعاته.

رابعاً: في حقل التقريب بين المذاهب والوحدة الإسلامية

إن الموسيقى الكلية لآيات القرآن الكريم تحدد استراتيجية الوحدة للمجتمع المسلم، وتخلق تصوراً في العقيدة الإسلامية بأن وحدة الأمة هي خطة استراتيجية ومصدر للشرف والعزة والحياة والقوة للمسلمين. ومع ذلك، بعد وفاة الرسول الكريم ٩، أصبح الخلاف على خليفته مصدراً لمزيد من الخلافات بين أمة النبي ٩. وأصبح لهذا الإرث المشؤوم لهذه الاختلافات والصراعات داخل ديني وداخل مذهبي في العالم الإسلامي، والتي توغلت في جسد العالم الإسلامي في فترات مختلفة وبأشكال مختلفة كمرض عضال، ومن وقت لآخر تحت ذرائع مختلفة، مما وعرض العالم الإسلامي للتشويه الفكري والانحراف السلوكي. في غضون ذلك، كانت "الوحدة" أهم سلاح في العالم الإسلامي، سواء في الماضي البعيد أو في الوضع الحالي. وبالتالي، فإن الوحدة هي أكثر "إستراتيجيات العالم الإسلامي" فاعلية. وحول أهمية الوحدة قال المرشد الأعلى للثورة: "اليوم تبينت مدى أهمية الوحدة في العالم الإسلامي، ولو كان قد تم تحقيقها لكانت قد حالت دون وقوع الكثير من النزاعات والحروب الدموية في المنطقة".

لقد تناول العلماء والمفكرون الإسلاميون في العقود الأخيرة ضرورة الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية مع فهم عميق لقضايا ومشاكل العالم الإسلامي، وتناولوا هذه المسألة بمزيد من التركيز وسرعة مضاعفة، إلى درجة أنه على الرغم من شدة الخلافات والصراعات في بعض أنحاء العالم الإسلامي اليوم، أصبحت قضية التلاحم والوحدة الإسلامية من أهم الاهتمامات الرئيسية والقضايا المركزية للشخصيات والمجتمعات الفكرية في العالم الإسلامي، وتدرس عبر طرح الأفكار والخطط المختلفة، ومن زوايا مختلفة.

يمكن اعتبار آية الله التسخيري. و الذي كان يُعدُّ على حد تعبير المرشد الأعلى للثورة: "اللسان البليغ للإسلام والشيعة". من الشخصيات العلمية والثقافية المعروفة في العالم الإسلامي، و كان يحاول دائماً تعريف التشيع الحقيقي، وخلق التفاهم والتعاطف بين

المسلمين. وكان هذا المجاهد الدؤوب أميناً عاماً للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية لما يزيد على ١٠ سنوات، وقدم خدمات قيمة للإسلام والتشيع. إن دراسة موضوع الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية هي الخطوة الأساسية في الاتجاه الصحيح والتفسير الصحيح لاستراتيجية الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية. وإن عدم معالجة هذه القضية بشكل صحيح وعدم التعبير عنها بوضوح ودقة يدفع مجموعة من الشيوخ ورجال الدين المهتمين بحماية المعتقدات الدينية إلى النظر إلى القضية بتشكيك وذهول، ويرونها كخطوة لإضعاف آرائهم ومعتقداتهم المذهبية. إن عدم التبيين وعدم الشفافية في اتجاه الوحدة والتقريب يسبب حدوث تساؤلات وغموض، ويؤدي توضيح هذه الأسئلة وحلها إلى إزالة هذه الغموض. أسئلة من قبيل:

- هل التقريب يعني تجاهل المعتقدات الشيعية في مسألة الإمامة وقيادة أئمة أهل البيت (عليهم السلام)؟
 - هل التقريب يعني تجاهل الحقائق التاريخية؟
 - هل التقريب يعني التساهل في حق أهل البيت وكتان حقائقهم؟
 - هل التقريب يعني أن يصبح السني شيعياً أو أن يصبح الشيعي سنياً؟
- وعشرات من الأسئلة الغامضة والمتشابهة التي توضح أهمية معرفة مسألة الوحدة والتقريب. ينظر بعض الناس إلى القضية نظرة كلامية، وكانوا يعتقدون أن دعاة الوحدة والتقريب من أجل تحقيقها. يتساهلون في الاختلافات العقائدية، ويضحون بالعقيدة لمصلحة التقريب والوحدة، وبالنتيجة كانوا يعتقدون بتضاد الوحدة وحفظ الأصول الاعتقادية "ولهذا السبب كانوا يرون الوحدة والتقريب أمراً مستحيلاً، وفي الحقيقة فهم يستخلصون استنتاجاً فقهيّاً بنظرة كلامية، في حين أنه من الأخطاء الإستراتيجية في موضوع الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية هي استخدام المنهج الكلامي للوصول إلى نتيجة فقهية. وعليه فإن بعض الطوائف المتطرفة بارتكاب الخطأ المذكور وكذلك عدم الاعتقاد بالتعايش السلمي توصلوا إلى نتيجة فقهية، وكانوا يصدرن الحكم بالتكفير والشرك للمسلمين الآخرين.

أما إذا اعتبرت الوحدة والتقريب مسألة فقهية وقانونية، فإن المسألة ستكون لها مقتضياتها الخاصة، بما في ذلك حرية التعبير عن المعتقدات المذهبية.

في الموضوعات الفقهية والقانونية يدور الحديث حول تكليفنا وواجبنا في التعامل مع أتباع المذاهب الإسلامية. أما في المسألة الكلامية فهناك يطرح البحث عن الحق والباطل والسعادة والشقاوة في الآخرة. ومن هنا فإن فكرة الوحدة والتقريب هي مسألة فقهية وقانونية، ومنهج مناقشتها هو أيضاً منهج فقهي وقانوني، والمرحوم آية الله التسخيري هو من الذين يعتبرونا قضية الوحدة والتقريب قضية فقهية.

من وجهة نظر آية الله التسخيري كان لفكرة التقريب توجهان مهمان: "الفقه التقريبي" و "التقريب الفقهي". والقاسم المشترك بين هذين الاتجاهين هو الاعتقاد بوجود صلة بين الفقه والتقريب. والفرق هو أن "التقريب الفقهي" يدرس مسألة التقريب من منظور موقعه في مجموعة الفقه و "الفقه التقريبي" ينظر إلى الفقه من منظور موقعه في عملية التقريب.

الفقه التقريبي: يسعى هذا النوع من الفقه إلى تعزيز المجالات المشتركة والديناميكية بين المذاهب، لا سيما القضايا الهامة والمصيرية التي لها مكانة خاصة في الفقه وليس لها بديل أو مشابه. هذا التوجه نابع من الواقعية، ولا يقوم إلا على فهم "ضرورة التقريب"، وليس على فهم ضرورة فقهية معينة لتحليل عيني وعلمي.

التقريب الفقهي: يدرس هذا النوع من التوجه التقريب من الناحية الفقهية ويحلل المشاكل التي يواجهها قادة التقريب في طريق تحقيقه العملي. الفكرة في هذا التوجه هي إزالة العوائق والصعوبات التي تقف في طريق التقريب. والواقع أن دافعهم في التقريب ينبع من نص وبطن الفقه.

ويثبت البحث في آثار آية الله التسخيري أن نظريته التقريبية تقوم على مسألتين أساسيتين: إحداهما هي الهيكلية، والأخرى هي المضمون.

لذلك من الضروري معالجة هاتين المسألتين هنا.

الأول: التقريب الهيكلي

إن التقريب في بنية الفكر وكذلك مقدمة التقريب للوحدة العملية، يُعدُّ الأصل في

التفكير التقريبي لآية الله التسخيري. ويرى: "الوحدة كمشروع لا يمكن أن تتحقق دون توفير آلية قوية وأدوات فعالة له، ومن هذا المنطلق تكون هذه الطريقة تطرح كأساس للوحدة العملية للمسلمين موازاة مع الإيمان بضرورة الوحدة".

ويرى أن: "التقريب في الفكر من أهم المهام التي يجب التركيز عليها من أجل تعزيز وحدة مواقف المسلمين وأفعالهم".

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة "تقريب المذاهب الإسلامية" هي فكرة متأخرة مقارنة بفكرة "الوحدة الإسلامية". كانت القضية الرئيسية للوحدة الإسلامية، التي بدأت في عهد السيد جمال الدين، هي "الوحدة العملية" وتشكيل جبهة موحدة ضد الاستعمار والغزو الأجنبي. لم تسع فكرة الوحدة الإسلامية إلى التوفيق بين وجهات النظر الفقهية والكلامية للمذاهب، لذلك لم يكن للوحدة أساس تجانسي "مذهبي"، ولم يكن من الواجب تقارب "المذاهب".

إلا أن الفشل العملي لنظرية "الوحدة السياسية" دفع المصلحين والمفكرين في العالم الإسلامي إلى الاعتقاد بأنه إذا لم يستطع أتباع المذاهب الإسلامية التقريب بين أفكارهم الكلامية والفقهية وتقليل الاختلافات بينهم، وكذلك ما لم يتمكنوا من تنحية الاختلافات الدينية والمذهبية في علاقاتهم الاجتماعية جانباً والتحرك وفقاً للقواسم المشتركة، فإنهم لا يستطيعون اتخاذ موقف موحد ضد العدو المشترك. لذلك لا بد أن ننظر إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية كأساس ومقدمة للوحدة الإسلامية.

و يعتقد بأن تحقيق التقريب بين المذاهب الإسلامية يعتمد على إجماع العلماء والخبراء والمثقفين على آراء جميع المذاهب، وكذلك يحتاج إلى إيراد المسائل الخلافية في أجواء سليمة وهادئة و ودية بعيدة عن التعصبات وصولاً إلى الحقائق والواقعيات الإسلامية في أبعادها العلمية والكلامية والفقهية والأصولية والتفسيرية، ومن ثم نشر وإعلان نتائج المناقشات والمحادثات والمناظرات لأتباع المذاهب الإسلامية.

وبعبارة أخرى: فإن العلاقة بين الوحدة والتقريب هي بهذا الشكل: الوحدة هي فعالية عملية، والتقريب هو تقارب نظري، أي أن الأفكار لا تصل أبداً إلى الوحدة كي تصبح واحدة. تتجمع الأفكار من خلال الحوار والتفاهم، وهذا هو تقريبها، لكن للتقريب في

الممارسة نتيجة وصدى، وهي الوحدة. بمعنى آخر تشير الوحدة إلى البعد والطبقة السياسية، والتقريب يشير إلى البعد العلمي والنظري.

الثاني: التقريب المضموني (الفقهي)

إن المنظرين في مجال الوحدة وتقريب المذاهب الإسلامية رغم اتجاهاتهم المختلفة ذهبوا إلى التقريب الفقهي. وآية الله التسخيري هو من الذين تناولوا هذه القضية بتوجه فقهي. فهو يعتقد جازماً ويقول:

"على الرغم من أن فكرة الوحدة في شكل نصائح اجتماعية وفي شكل دعوة للتوعية بالموضوع وتجنب مخاطر الانقسام والتشتت، لها مفاهيم مثمرة وديناميكية ويمكن أن تكون لها صورة واضحة في التعريف بمقولة "التقريب" وعرض ضرورة الحاجة إلى وجودها في المجتمع، لكنها في الواقع تفتقر إلى الضمانات اللازمة لضمان حضورها الفعال وديمومتها المؤثرة في متن المجتمع، وخاصة بين النخب والطبقة الواعية والمستنيرة. وللتخلص من هذه المشاكل يجب إدخال فكرة الوحدة والتقريب بين المذاهب في المجال الفقهي".

خامساً: في حقل الحضارة

النزعة الحضارية هي حاجة جادة أصبحت مصدر قلق كبير للعديد من المفكرين المسلمين. يعتبر آية الله محمد علي التسخيري من أكثر المفكرين اهتماماً في نموذج الفكرية بالنزعة الحضارية والفكر الحضاري.

التوجه الحضاري هو نموذج فكري يوجه الشخصية والسلوك. وهذا النهج هو نوع من الرؤية الشمولية والمستقبلية التي تحرك الأفكار والسلوكيات المتنوعة الجزئية في مسير هادف. كانت لدى آية الله التسخيري أيضاً رؤية لمستقبل العالم الإسلامي، واستفاد من التعاليم الدينية في مسير تعالي المجتمعات الإسلامية. لقد كان يرى أفقاً واسعاً ومشرقاً للأمة الإسلامية، ولذلك سعى إلى تقديم صورة إستراتيجية لتوجيه الحركات المتفرقة والجزئية لجمهوره في جميع أنحاء العالم الإسلامي من خلال الاعتماد على النظرة الشمولية للحضارة. إنه لم يكن يجد بُعد الحضارة الغربية عن الطبيعة البشرية السليمة وتأكيده على التأسيس

الذاتي للإنسان إلى مدرسة واحدة، ويرى الاشتراكية والرأسمالية من هذا المنظار، على أن في كليهما نقطة ضعف مشتركة. فوفقاً لقوله: "الاشتراكية، مثل الرأسمالية، تؤسس حركتها على تحفيز الدوافع الفردية والأنانية".

وعرّف بصدق وحقّ آية الله التسخيري الإسلام على أنه محور لصنع الحضارات في العالم، معتمداً في ذلك على قدرات الإسلام وتعاليمه السامية.

ويقول في هذا الصدد: "من الطبيعي أن يرى الإسلام نفسه على أنه محور ونموذج الحضارة الإنسانية"، بمعنى أنه نهاية نماذج الحضارات التي أتى بها خالق العالمين للبشرية باقتضاء لطفه، واعتبر الأمة الإسلامية نموذجاً وشاهداً على كل العالمين".

رأى الراحل آية الله التسخيري بعض المشاريع المتعجرفة والمالية للغرب في الحضارة المعاصرة من قبل أناس مثل فوكوياما وصموئيل هنتنغتون وأبراهام برايان، فاقترح نظرة منهجية على تحليل الحضارات وعلاقتها.

يقول: "في رأيي، فإن دراسة العموميات ومقارنة المفهومين العامين لن يؤدي إلى نتائج. يجب أن نقيس ونحلل كل حضارة باستخدام مبادئها وأسسها الجزئية، وبعد ذلك، مع مراعاة الافتراضات البشرية المشتركة وكذلك الضمير المشترك، نسعى إلى مقارنة هذه المبادئ والأسس، وفي هذه الحالة نأمل أن نصل إلى نتائج وإنجازات كبيرة، وإلا سنقع في حلقة دور باطل".

يمكن تمحور جوهرة بناء الحضارة الإسلامية حول التوحيد. ومن هنا فإن عودة المجتمعات البشرية إلى الله تعالى ينبغي اعتبارها بشارة إلى عودة العالم إلى الحضارة التوحيدية.

من وجهة نظر الشيخ التسخيري، تم وضع الأرضيات للإقبال على الحضارة التوحيدية في جميع أنحاء العالم، ويعتقد أن البشرية جمعاء تتحرك خطوة تلو أخرى من أجل القضاء على النزعات الإلحادية وظواهر إنكار الله تعالى.

سادساً: في حقل الفكر الإسلامي

يُعدُّ آية الله التسخيري شخصية دينية بنظرة دولية أثمر على العديد من المفكرين في العالم الإسلامي. وكانت من أهم اهتماماته الفكرية والسلوكية هو تطبيق الفكر الإسلامي، الذي

كان من مظاهره العيش السلمي للمتدينين في العالم، وخاصة في العالم الإسلامي. ولتحقيق هذا الاهتمام، قام بأنشطة مكثفة فكرية والأبحاث العلمية والتدابير العملية.

وبعد أن ذكر طرق التوازن المرغوب والمعقول لحياة الإنسان وتحدياتها، أشار إلى التعبير عن الفكر الإسلامي من منظور القرآن كمقدمة للدخول في مناقشة الحدائث في الفكر الإسلامي. ويولي اهتمامه الكامل لعالمية "الإسلام" و "الدين" و "الطبيعة" كأدوات فعالة في الفكر الإسلامي، كما يؤمن بـ "النقد الذاتي" كعامل في ديناميكية الفكر الإسلامي.

آية الله التسخيري شخصية دينية وعالمية، له تأثير عميق على مفكري العالم الإسلامي، بما في ذلك الشيعة والسنة، وحتى غيرهم من المفكرين المطالبين بالعدالة وذوي التفكير الحر في العالم. وباختصار، يمكن اعتباره مفكراً موسوعياً من نوع الشهيد الصدر والشهيد المطهري، حيث برزت وتوحدت في شخصيته مدرستا قم والنجف؛ لأنه كان آخر جيل من طلاب الشهيد الصدر، واستفاد من العلم الفقهي والأصولي والأفكار الفلسفية والاجتماعية لذلك الشهيد العظيم. ومن ناحية أخرى عندما جاء إلى إيران، كان من الذين شاركوا في حلقة دروس الشهيد المطهري التي كانت تقام في مسجد أرك في مدينة قم الإيرانية.

لا ينبغي إغفال أن آية الله التسخيري كان متفوقاً على بعض الشخصيات الشيعية المعاصرة الكبرى في العالم الشهيد الصدر والشهيد المطهري في العالم في مسألة معرفة البلدان والدول. وكان في الواقع التجسيد الخارجي لرؤية بعيدة النظر التي سعى هذان المنظران الإسلاميان العظيمان إلى تحقيقها وإثباتها.

وكان من أهم اهتمامات آية الله التسخيري الانتباه إلى موقف الفكر الإسلامي وتأثيره الأساسي.

وفي هذا الموجز نتناول آراء آية الله التسخيري حول الفكر الإسلامي.

وبما أن الحياة البشرية يجب أن يكون لها توازن مرغوب فيه ومعقول، فقد منح الله الإنسان الأدوات التالية لتحقيق هذا الهدف:

أ. العقل وقوة الفكر والتحليل والاستنباط وقدرة اكتشاف المجهولات.

ب. إرادة الإنسان للسيطرة على الدوافع والغرائز وكبح جماحها إذا لزم الأمر وباستخدام

قوة العقل المفكر.

هذه أدوات بشرية فطرية، وسرّ الانحراف في هذه أنّه في بعض الأحيان يعصي المرء إحدى هذه الدوافع الغريزية ويتحول إلى الانحراف.

وسر هذا الانحراف يكمن في نقطتين مهمتين تاليتين:

النقطة الأولى: حاجة العقل والإرادة للرعاية المستمرة التي تقويها وتمنحها القدرة على تحقيق ما هو مطلوب منها.

النقطة الثانية: جهل الإنسان بالحقائق اللامتناهية عن نفسه والجمع بين وجوده والعالم وتاريخ البشرية وعلاقتها مع الكون بأسره والطرق العليا والعادلة والنظام الأكثر اكتمالاً للتقدم نحو الكمال. هذا هو المكان الذي تنشأ فيه الحاجة إلى العناية الإلهية في شكل تدخل تشريعي (إلى جانب الموهوبة التكوينية) من أجل ضمان اعتلاء العقل والإرادة وتوفير نظام اجتماعي مرغوب فيه للإنسان في ضوء المعرفة الإلهية للحقائق .

يقول آية الله التسخيري حول ضرورة دينامية الفكر الإسلامي: «عندما نتحدث عن أهمية المراجعة المستمرة في مضمون وشكل الفكر الإسلامي من أجل تحديث (تجديد) وتفعل عناصره الثابتة، فإننا لم نطرح نقطة جديدة؛ لأن فهم هذه الأهمية واضح جداً للمفكرين والخبراء بحيث لا يحتاج إلى حجة.

أليس أن الحقائق المتغيرة والأحداث الناشئة وسرعة التقدم التي نشهدها كل يوم تشر كنا باستمرار وبشكل مباشر في الحاجة إلى التجديد في الفكر الإسلامي؟ طبعاً هذا لا يعني فتح الباب أمام أي دعوة أو مكتب جديد للحدثة والسماح لها بالدخول. على العكس من ذلك، تتناسب أهميته المتزايدة مع الحاجة المتزايدة لضبط التحديث وتقنينه».

يعتقد آية الله التسخيري بأن التحديث الصحيح للأفكار على شكل الاجتهاد ممكن في الشريعة؛ لأن الاجتهاد هو أداة لترويض الحقائق، وفي هذه الحالة الحدثة أو التجديد ليس الهدف في حد ذاته بل وسيلة لتحقيقه، وهي النهاية التي سيحقق فيها الدين أهدافه . وفي هذه التقلبات في التغييرات الفكرية لا ينبغي أن نصاب بالإفراط والتفريط؛ لأننا كما نصرّ على التحديث واستمراره، نبرز حساسيتنا حول سلامة المناهج وأصالة التجديد.

سابعاً: فى حقل العلوم الاقتصادية الإسلامية

إحدى الاختلافات الرئيسية بين مدرسة الاقتصاد الإسلامية ومدارس الاقتصاد الأخرى هي أنه فى سائر المدارس الاقتصادية يلعب عالم الاقتصاد دور المخترع الذى يخلق ويقدم شيئاً جديداً، وبالتالى للأفكار والآراء سيرها الطبيعي، بحيث تدرس حقائق الخلق البشرى، ثم تحدد الأصول والقواعد التى تشكل فيما بعد أساس البنى الفوقية القانونية. لكن فى المدرسة الاقتصادية الإسلامية يكون دور عالم الاقتصاد دور مكتشف، ومن خلال دراسة البنى الفوقية القانونية يكتشف أصول مدرسة الاقتصاد الإسلامية. وبالتالى فإن لحركته ثلاث مراحل: أولاً: دراسة القواعد. ثانياً: اكتشاف أصول المدرسة الاقتصادية، ثالثاً: الحصول على أصول المدرسة من خلال الأسس النظرية للنظام الاقتصادي. ولأن قواعد مدرسة الاقتصاد الإسلامية معروفة بشكل غير مباشر، فإن نتائجها فى بعض الأحيان تختلف عن بعضها البعض، مما يسبب اختلاف الآراء فى المدرسة الاقتصادية للإسلام. يعتقد آية الله التسخيري بأن النظام الاقتصادي أو النظرية الاقتصادية لأي مدرسة تنبع من أيديولوجية تلك المدرسة. وكان يسعى إلى تبين النظرية الاقتصادية للإسلام. ولكن فى الوقت الذى كتب سماحته كتاب «الاقتصاد الإسلامي» كانت نظريتان اقتصاديتان تسودا العالم إحداهما: كانت «نظرية أو النظام الاقتصادي الهاركي الذى كانت تمثله الكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي السابق، والأخرى النظرية أو النظام الاقتصادي الرأسمالي الذى كانت تمثله الكتلة الغربية وتقوده الولايات المتحدة. إن انتقاد أسس هاتين المدرستين شرط أساسى للالتحاق بمدرسة الاقتصاد الإسلامية. وعليه فإن الشيخ الراحل التسخيري شرح وانتقد فى الدروس العشرين الأولى من الكتاب أسس النظرية الاقتصادية للهاركسية. ثم فى شرحه للاقتصاد الإسلامى يلفت آية الله التسخيري الانتباه أولاً إلى حقيقة أننا نعني من الاقتصاد الإسلامى "المدرسة الاقتصادية للإسلام"، وليس علم الاقتصاد. أى: أن الاقتصاد الإسلامى هو منهج عملي وبرنامج ينظم العلاقات الاقتصادية. ثم يدخل فى خصائص مدرسة الاقتصاد الإسلامى.

ثامناً: في حقل الأدبي السياسي العالمي

العولمة من وجهة النظر آية الله التسخيري يُعدُّ مصطلح العولمة من المصطلحات التي دخلت الأدب السياسي العالمي في العقود الأخيرة من القرن العشرين، والذي تُرجم إلى الفارسية على أنه globalization "العولمة" (جهان سازی).

تم استخدام المصطلح في الأصل في مجال الاقتصاد، ولكنه يشمل اليوم مجالات أخرى أيضاً. يرجع تاريخ طرح هذا المصطلح في الأدب السياسي . و ذلك كظاهرة متعددة الأبعاد ذات تأثيرات ونتائج متعددة على مستوى العالم. إلى وجود كتابين مشهورين: أحدهما ينتمي إلى "مارشال ماكلوهان" و"كنت فيور" بعنوان "الحرب والسلام في القرية العالمية" « war and peace in the global village»، والآخر ينتمي إلى "زبيغنيو بروجنسكي" بعنوان «Two ages Americans role in the technotronic era» "مرحلتان لدور الأمريكيين في العصر التكنولوجي"، فاختر المفكرون عنوان "العولمة" لها. لقد أدت ظاهرة العولمة، بسبب تقنيات الاتصال الجديدة ووسائل الإعلام، إلى تقليص المسافات بين الثقافات في ساحات الاتصال والإعلام والمعلومات، وجعلت شعوب العالم مترابطة على الرغم من تنوعها العرقي والثقافي. وقد دفعت المفكرين إلى التشتت والاختلاف في التعامل مع هذه الظاهرة. وهم في التعامل مع هذه الظاهرة يصنفون إلى عدة أقسام:

عشاق العولمة

ينهر بعض المفكرين بهذه الظاهرة ويعتبرونها مصيراً مؤكداً وحتماً بحيث إنه لا يوجد سبيل آخر سوى قبولها غير المشروط؛ لأن "العولمة"، في رأيهم، تمثل تغييراً في مصالح البشرية جمعاء أو "إنها تطور طبيعي في مراحل التكامل البشري نحو اللانهاية".

المنكرون للعولمة

هؤلاء، خلافاً للمجموعة الأولى، ينكرون أو يرفضون بشكل مطلق ظاهرة العولمة، ويعتقدون

أنها ليست سوى إعادة إنتاج لهيمنة الرأسمالية القديمة وإجراء تعديلات في أدواتها وآلياتها.

المتوقفون حول العولمة

كما اتخذت مجموعة ثالثة موقفاً حذراً تجاه العولمة، واصفة الظاهرة من مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية، وامتنعوا عن إصدار أي حكم بشأنها.

المتأملون حول العولمة

مجموعة من العلماء والمراقبين المسلمين لم يقبلوا أياً من وجهات النظر الثلاثة الماضية، بل نظروا فيها بتأمل دقيق وواصلوا بجديّة بحث مختلف جوانب هذه الظاهرة وخصائصها الإيجابية والسلبية، ووزنوها مع الشريعة الإسلامية، فهم يستخدمون استنتاجاتهم في هذا الصدد في أبعاد مختلفة .

فالهدف من العولمة هو خلق "نظام عالمي جديد"، وهو مصطلح سياسي، وقد استخدمه الغرب مؤخراً لفرض هيمنته السياسية، واتخذت في فترات مختلفة من حيث شدة الحرب أو ضعفها أشكالاً مختلفة.

يعتقد المرحوم آية الله التسخيري أن الرأسمالية لم تبدأ من منظور عالمي وأن تركيزها على الغرب والدول الغربية كان فقط بالمعايير الجغرافية، ولكن نموّ قوة الغرب واستفادته من إنجازات ثورة المعلومات والقوة الإعلامية الهائلة التي يتمتع من تأثيرها في كل العالم من ناحية، وتقوية الإسلام وانتشار وجهات النظر الإسلام العالمية (والتي عرض كل الحضارة الغربية للخطر من وجهة نظر الغرب) من ناحية أخرى، وكذلك انهيار الاتحاد السوفيتي كقوة منافسة للغرب، تضافرت لتوفير فرصة صياغة نظرية العولمة على هذا النطاق الواسع .

الفرق بين العولمة وعالمية الإسلام

أي مدرسة تدعي أنها تجلب البشر إلى السعادة وتحقق هدفها النهائي، يمكنها هذا الإدعاء، إذا تمكنت من إخضاع جميع البشر لنظام عالمي شامل بحيث يكون للجميع قانون وقائد واحد. يسعى دين الإسلام أيضاً إلى إسعاد الإنسان، وبالتالي يدعي أنه عالمي وشامل.

ففي هذه الصورة، لماذا نتهم الغرب بالسيطرة للعولمة دون الإسلام؟ ما هو الفرق بين عالمية الإسلام والعولمة الغربية؟

يعتقد آية الله التسخيري أن هناك خلافات كثيرة بين الاثنيين. إنه يعتقد أن الإسلام دين عالمي ويدعي الشمولية، لكن هذه الشمولية مختلفة تماماً عما يتم مناقشته في الغرب. تتمثل إحدى طرق معرفة الفرق بين الاثنيين في معرفة خصائص كل منهما.

موسوعة الشيخ التسخيري وعملنا في هذه الموسوعة

أولاً: طريقة جمع وتنظيم آثار آية الله التسخيري

نظراً لأن شخصية آية الله التسخيري كانت تتمتع بنظرة شاملة من الجانب النظري وكذلك ديناميكية مستمرة من الجانب العملي، فقد خلف مجموعة معارف إنسانية وإسلامية متنوّعة ذات سمات فريدة على نطاق واسع ملحوظ يشمل الأخطار والتحديات التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم.

وهو رغم أنه كان مفسراً إسلامياً وفتياً عميق النظر ومبتكراً، في الوقت نفسه لم يتجاهل الأبحاث الاجتماعية، بما في ذلك الاقتصاد والسياسة، والأفكار الصحيحة والخاطئة فيها. وكل ما قيل يجب أن يضاف إلى أسفاره ولقاءاته العلمية والصانعة للفكر، التي يمكن أن يكون كل منها مصدر منهج علمي وحركة عملية شاملة في العالم الإسلامي. ومن الطبيعي أنه في مثل هذه الحالة لن يكون من السهل جمع آثار مثل هذه الشخصية وكذلك ترتيبها في مجموعة مترابطة.

وقد أجرت لجنة البحوث عملياتها في مرحلتين:

أ. تجميع آثار العلامة التسخيري

نظراً إلى جهود آية الله التسخيري على مدار الساعة لتقديم معارف الإسلام، لم يُبذل جهد كبير لجمع أعماله في الماضي؛ ولهذا السبب تلقت الأمانة العامة لتجميع ونشر آثار العلامة قوائم مختلفة من آثاره، والتي كانت مختلفة من حيث العدد والعناوين. فكانت المهمة الأولى للأمانة العلمية لتكريم العلامة التسخيري هي جمع كل الأعمال التي نُسبت إليه بطريقة أو بأخرى، فكانت أكثر من ٧٠٠ أثر، سواء كانت مقالات أو كتباً، من المقالة والتي دونتها هذه الصورة:

١. الآثار العلمية التي كتبها آية الله التسخيري نفسه، التي نُشر بعضها ككتب وبعضها كمقالات.
٢. المؤلفات العلمية للآخرين التي ترجمها آية الله التسخيري إلى العربية.
٣. المصنفات العلمية التي كتب الشيخ التسخيري مقدمة لها.
٤. المصنفات العلمية المكتوبة التي كانت برعاية آية الله التسخيري.
٥. المكتوبات التي تم نشرها أحياناً في الصحف أو المجلات العامة، بعضها من تأليف آية الله التسخيري والبعض الآخر ما هو إلا مجموعة مختارة من كتاب لأحد علماء العالم الإسلامي.
٦. المقابلات والخطب منه التي تمت كتابتها ونشرها في وسائل الإعلام.
٧. المؤلفات العلمية غير منشورة لآية الله التسخيري.

ب. تنقيح الآثار المكررة واختيار الآثار العلمية

كما قيل سابقاً تنسب العديد من الآثار إلى آية الله التسخيري، ولكن ما كان مهماً بالنسبة إلينا في هذه الموسوعة هو أن نكون قادرين على عرض أفكار وآراء العلامة التسخيري في موضوعات مختلفة وفي شكل أعماله العلمية. وفي هذا الصدد، أولاً وقبل كل شيء، ركزنا على آثاره العربية؛ وذلك باعتبار أن معظم آثار آية الله التسخيري العلمية هي باللغة العربية، وبعض آثاره بالفارسية، وهي في الواقع ترجمات لهذه الآثار العربية.

ومن بين الآثار التي أشرنا إليها قد تم اختيار آثار كانت بقلم آية الله التسخيري على شكل كتاب أو مقالة في الموضوعات العلمية، وقد امتنعنا عن ذكر الآثار التي نسبت إليه بواسطة كتابة مقدمته عليها أو الآثار التي ألفت تحت إشرافه أو الآثار غير البحثية في هذه الموسوعة. طبعاً حاولنا ألا نكتفي فقط بأعماله المنشورة، وسيتم البحث ونشر بعض أعماله العلمية غير المنشورة في هذه الموسوعة لأول مرة.

كما تجدر الإشارة إلى أن جمع واختيار آثاره العلمية لم يكن خالياً من المشاكل، وواجه فريق البحث في هذا المجال العديد من المشاكل، سنذكر بعضها هنا:

١. نشر أثر واحد في مجالات متعددة

كان يُعدُّ اختيار الأعمال من بين المقالات المنشورة في مجلات مختلفة من المشاكل في هذه المحاولة العلمية، وخاصة أنه في بعض الأحيان كنا نشاهد أن مقالة واحدة لآية الله التسخيري قد نشرت عدّة مرات في مجلات مختلفة، وفي بعض الأحيان كانت هذه المقالات مصحوبة بإضافات وتغييرات طفيفة.

٢. الاختلاف في تسمية الأعمال

إن نشر آثاره بمحتوى واحد، ولكن مع عناوين مختلفة، كان يسبب الصعوبة في توحيد هذه الموسوعة وتجنب نشر الآثار المكررة.

٣. تدوين بعض مقالاته في كتاب واحد

والمشكلة الأخرى في هذه المجموعة كانت هي أن بعض الكتب التي تركها المرحوم كانت في الواقع تجميع وتدوين المقالات ذات موضوع واحد، لذلك تم حذف جزء كبير من المقالات التي تم جمعها بصعوبة، لكن حذفت بسبب تكرارها في طيّات الكتاب.

٤. كتابة آثاره في المؤتمرات والاجتماعات

ومشكلة أخرى في هذا العمل كان عدُّ البعض لخطاباته القصيرة و كلماته في بداية المؤتمرات والاجتماعات مقالة. فجمعها البعض على شكل مقالة ونشروا بعضها، رغم أنه كان نص هذا الخطاب إشارة إلى أقوال أخرى لآية الله التسخيري في مؤلفاته أو مقالاته؛ أو كان مجرد تقرير لواقع خارجي، وليس تعبيراً عن وجهة نظر علمية وعرض نظرية علمية خاصة.

ثانياً: التوبيع وتصنيف الآثار

كل جهودنا في هذه المجموعة كانت لتقديم آثار العلامة التسخيري في شكل أثر علمي متماسك، لذلك بعد جمع آثاره العلمية حاولنا إزالة الأعمال المكررة واختيار النص الأكثر اكتمالاً. طبعاً كما ذكرنا سابقاً نظراً لتدوين بعض هذه المقالات في شكل كتب ووجود مقال واحد في كتابين أو استخدام جزء من المقال كمقدمة لبحث في مقالتين أو أكثر، تسبب ذلك في أنه لم نتمكن بالطبع من إزالة جميع المحتويات المتكررة، فإن تكرار بعض هذا المحتوى في بعض الموضوعات كمقدمة للبحث لم يكن عديم الفائدة.

في النهاية تمكّننا من تنظيم الأعمال المختارة بعنوان عام ونظرة شاملة في المجالات التالية:

١. علوم القرآن .
٢. التفسير .
٣. الفقه .
٤. أصول الفقه .
٥. التقريب والوحدة .
٦. العقيدة .
٧. الحضارة .
٨. الاقتصاد الإسلامي .
٩. السياسة .

لقد حاولنا في هذه الموسوعة أن ندون في البداية آثار آية الله التسخيري التي كانت مطبوعة تحت عناوين مثل الكتاب، وبعده أرفقنا المقالات العلمية التي لم يتكرر محتواها. بالطبع، أثناء تجميع المقالات، حاولنا الحفاظ على مدى علاقة بعضها البعض وكذلك سبق ولحوق المباحث.

كلمة شكر و تقدير

أود أن أعبر عن جزيل شكري لجميع زملائي في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ولكل من تمكّن من خلال جهوده أن يحافظ على هذه الأعمال القيمة التي هي الإرث الثمين لحضرة العلامة الشيخ محمد علي التسخيري.

وكذلك أشكر بصورة خاصة جميع أصدقائي في معهد الدراسات التقريبية الذين أعدوا هذه الموسوعة بجهودهم الدؤوبة، وخاصة أصدقائي الباحثين: أحمد شفيعي نيا (مدير لجنة التحقيق)، مصطفى الإسكندري، السيد مصطفى حسيني الرودباري، ذبيح الله نعيميان، خليل العالمي، مهدي عزيزي، محسن مدني نجاد.

وكذلك نقدّم شكرنا إلى مجموعة إعداد الطبع (التحرير والتصميم): محمد تقي مهجور (مدير قسم الطباعة)، عبد الله براتي، السيد محمد حسني زاده، أحمد أبو الحسيني، سعد الطهراني.

كما أشكر أحناء آخرين ساعدونا في تهيئة هذا الأثر وتدوينه، وأخص بالذكر أحناء الأستاذ محمد الساعدي الذي قام بمراجعة حقل الفقه في هذه الموسوعة وبتصحيح المقدمة، كما استفدنا من كتابه حول الشيخ التسخيري في مساحة الواسعة من هذه المقدمة. وأخيراً أود أن أشكر الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، سماحة الشيخ الدكتور حميد الشهريري، على دعمه واهتمامه الفوري أثناء إعداد هذه الموسوعة، فجزاه الله خيراً.

الشيخ أكبر راشدي نيا

مدير المهذ العالي للدراسات التقريبية

محاضرات في علوم القرآن وتفسيره

محمد علي التسخيري

القسم الأول: بحوث في علوم القرآن

الفصل الأول: تمهيد في علوم القرآن

الفصل الثاني: تاريخ القرآن

الفصل الثالث: المكي والمدني

الفصل الرابع: المحكم والمتشابه

الفصل الخامس: القرآن مصون من التحريف

الفصل السادس: القرآن كما تصوّره روايات الكافي

الفصل السابع: النسخ في القرآن

الفصل الثامن: حجية الظهور القرآني

الفصل الأول: تمهيد في علوم القرآن

تعريف علوم القرآن

لابدّ من الإشارة إلى تعريف يشمل بحوثه ويميّزها من غيرها. نقل الدكتور الصالح في (مباحثه) تعريفاً مشهوراً هو عبارة عن: «مجموعة من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم من حيث نزوله وأدائه وكتابه وجمعه وترتيبه في المصاحف وتفسير ألفاظه وبيان خصائصه وأغراضه»^١.

ومن الواضح أنه جمّع العناوين الرئيسة لمسائله وصاغ منها هذه العبارة التي ذكرت كتعريف لهذا العلم، ومع ذلك فإنه غير مانع؛ لدخول بحوث التفسير فيه وهي خارجة. ولكن لو تساءلنا عن سرّ تميّز هذا العلم عن علم التفسير - خصوصاً وأنه نشأ في أحضانه - لم نجد لذلك تفسيراً، إلاّ أنه لما لم تكن بعض بحوثه تتعلق بالجنبه التفسيرية فقد خرجت عن ذلك الإطار واتّخذت لها صفة المقدمية لعلوم التفسير تارة أو صفة الاستقلال عنه تارة أخرى، وإن اشتركت في تيسير التفسير مباشرة. مثلها في ذلك مثل العلوم القرآنية الأخرى كعلم إعراب القرآن إن صح أن نسّميه علماً، وعلم تجويده وغريبه وغير ذلك.

وقد قلت: «بعض بحوثه» وأنا أعني ذلك كمسألة نزول القرآن ومسألة التفسير وأساليبه والقراءات وغير ذلك. ولكننا نلاحظ أن الكثير من مسائله هي من صميم التفسير القرآني كـ«المحكم والمتشابه» و«الناسخ والمنسوخ» و«الحروف المقطعة»، فلماذا ألحقت بعلم علوم القرآن يأتري؟

١. مباحث في علوم القرآن: ١٠.

توجد هنا احتمالات منها:

١ - إنها لما كانت تشكّل لوحدها موضوعاً متكاملًا نسبيًا فقد قام العلماء بادئ الأمر بتأليف مصنفات فيها بصورة مستقلة عن التفسير، وأطالوا الكلام فيها، وذلك مثل: ما ألفه أبان بن تغلب في «علم القراءة»^١ وعليّ بن المديني من شيوخ البخاري في «أسباب النزول» والقاسم بن سلام في «الناسخ والمنسوخ»^٢ وغير ذلك. ولما كانت طريقتهم استقصاء جزئيات القرآن، لذلك وجب اختصار تلك العلوم في علم جديد موحد سمّوه «علوم القرآن».

٢ - إنها بحوث عامّة يمكن أن تطرح نفسها في موارد متعددة فلذا كان لابدّ أن تكون معلومة مسبقاً للمفسّر كمسألة (الناسخ والمنسوخ) و (المكي والمدني) وغير ذلك. والخلاصة: أننا لا نستطيع - إن أردنا أن نعرّف هذا العلم كما هو مدوّن - أن نعطي إطاراً عاماً، جامعاً مانعاً - كما يقال - فيجب إذن أن نرجع إلى ذلك التعريف السابق رغم عدم فنيته فهو الشارح لبحوثه - طبعاً - بعد أن نهذبه ليصبح هكذا: «العلم الذي يبحث عن أحوال القرآن من حيث نزوله وأدائه وكتابته وجمعه وترتيبه في المصاحف وبيان خصائصه العامة الأخرى مع إدخال بعض البحوث على أساس الإلحاق».

كل هذا إذا التزمنا بانفصاله عن علم التفسير. بقي أن نشير إلى نقطة لا بأس بمعرفتها هنا، وهي: أن أغلب البحوث في هذا العلم تمتلك صفة تاريخية، وإن كانت تعتمد أحياناً على الذوق والاستنباط، وخصوصاً في البحوث الملحقة.

لمحة تاريخية عن سير هذا العلم

يرى الدكتور الصالح أن أول من كتب في هذه العلوم هو عليّ بن المديني والقاسم بن سلام، فقد ألف الأول في (أسباب النزول)، والثاني في (الناسخ والمنسوخ) ومحمد بن أيوب

١. تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام: ٣٤٣.

٢. مباحث في علوم القرآن: ١٢١.

الضريس (ت ٢٩٤) في (ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة) ومحمد بن خلف المرزبان (ت ٣٠٩) إذ أُلّف (الحاوي في علوم القرآن)^١.

في حين ينقل النجاشي أنّ أبان بن تغلب كان مقدّمًا في كل فن من العلم في القرآن^٢، وذكر ابن النديم تصنيف أبان في (القراءة)، قال: وله من الكتب (معاني القرآن)^٣. قال صاحب (تأسيس الشيعة): «ولم يعهد لأحد قبل أبان وحمة؛ تصنيف في القراءات؛ فإنّ الذهبي وغيره ممن كتب في طبقات القراء، نصّوا على أنّ أول من صنّف في القراءات هو أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (٢٢٤)، ولا ريب في تقدّم أبان؛ لأنّ الذهبي في «الميزان» والسيوطي في «الطبقات» نصّوا على أنّه توفّي سنة (١٤١) وكذلك حمزة إذ توفّي سنة (١٥٤)، وعقّب على تقديم الحافظ الذهبي له بأنّه يقصد أول من أُلّف من السنّة»^٥.

وعلى أيّ حال، فيبدو أنّ التأليف فيه بدأ في أوائل أو أواسط المئة الثانية للهجرة.

وقد أُلّف فيه في المئة الرابعة كلّ من: الأنباري (عجائب في علوم القرآن)، والأشعري (المختزن في علوم القرآن)، والسجستاني (في غريب القرآن)، والكرخي (نكت القرآن الدالّة على البيان)، والأدفوي (الاستغناء في علوم القرآن)، وغيرهم.

في المئة الخامسة جماعة منهم: الحوفي (البرهان في علوم القرآن) و (إعراب القرآن).

وفي المئة السادسة جماعة منهم: السهيلي (مبهمات القرآن)، ابن الجوزي (فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن)، والمجتبي (علوم تتعلق بالقرآن)، وابن شهر آشوب المازندراني (متشابه القرآن).

وفي المئة السابعة: ابن عبد السلام (مجاز القرآن)، والسخاوي (جمال القراء وكمال الإقراء)، وأبو شامه (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز).

١. مباحث في علوم القرآن: ١٢١ - ١٢٢.

٢. رجال النجاشي: ١١.

٣. فهرست ابن النديم: ٢٧٦.

٤. هو حمزة بن حبيب أحد السبعة من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) كما ذكر ابن النديم.

٥. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣١٩.

وفي المئة الثامنة: الزركشي (البرهان).

وفي المئة التاسعة: السيوطي (الإتقان)، وهكذا.

وقد ظهرت أخيراً كتب تبحث في هذا العلم، منها: (البيان) للسيد أبي القاسم الخوئي، و(مباحث في علوم القرآن) للدكتور الصالح، و(البيان) للشيخ طاهر الجزائري، و(محاسن التأويل) للشيخ القاسمي، و(مناهل العرفان) للشيخ الزرقاني، و(منهج الفرقان) للشيخ سلامة، و(إعجاز القرآن) للرافعي، و(الظاهرة القرآنية) لابن نبي. على أننا يجب أن نشير إلى أن أغلب هذه المسائل قد تناولتها التفاسير، ولربما على نفس المستوى الذي تناولها به هذا العلم، وهذا ما نلاحظه في تفسير (الميزان) القيم.

أسماء القرآن

عددها: نقل عن القاضي شيدلة الفقيه الشافعي أنها خمسة وخمسون، وعن الحرالي أنها نيف وتسعون اسماً، ونقله الشيخ طاهر الجزائري في كتابه (التبيان) عن بعض العلماء وكذلك ذكره الزرقاني أيضاً^١.

ونقل عن الجاحظ أن الله تعالى اختار لكتابه اسماً مخالفاً لما سَمَّى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سَمَّى جملة كتاباً كما سَمَّوا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت وآخرها فاصلة كقافية^٢.

ونقل السيوطي عن المظفري أنه لما جمع أبو بكر القرآن قال: سَمَّوه، قال بعضهم: سَمَّوه إنجيلاً فكرهوه، وقال بعضهم: سَمَّوه السفر، فكرهوه من يهود، فقال ابن مسعود: رأيت بالحبيشة كتاباً يدعونه المصحف، فسَمَّوه به، ونقل مثلها عن ابن اشته في كتاب المصاحف^٣.

ويحسن هنا أن نلتفت إلى بعض النكات

النكتة الأولى: الهدفية في القول والعمل، هي الروح السارية في كل خطوة وكل حركة

١ . البرهان في علوم القرآن ١: ٣٤٣.

٢ . الإتقان في علوم القرآن ١: ١٤١.

٣ . الإتقان في علوم القرآن ١: ١٤٦.

تنتسب إلى الإسلام، ولذا فإننا نجد أن هناك تناسباً رائعاً بين مركز القرآن الرئيسي في الدعوة الإسلامية ووظائفه الأساسية، وبين التسميات التي سُمي بها أو ادّعت تسميته بها. وقد التفت الدارسون القدامى والمحدثون إلى ذلك، فراحوا يحاولون استكشاف السرّ حسبما يتصوّرون اعتماداً على ذلك العلم الإجمالي بالتلاؤم الحتمي بين الاسم والعنوان ومركز المسمّى والمعنون؛ كما نجد فيما يلي:

١- **قال السيوطي:** وأما الكلام فمشتق من الكلم بمعنى التأثير؛ لأنه يؤثر في ذهن السامع فائدة لم تكن عنده، وأما النور فلائته يدرك به غوامض الحلال والحرام، وأما الهدى فلائته في الدلالة على الحق، وهو باب إطلاق المصدر على الفاعل، وأما الفرقان فلائته فرق بين الحق والباطل، وجّهه بذلك مجاهد، كما أخرجه ابن أبي حاتم، وأما الشفاء فلائته يشفي من الأمراض القلبية - كالكفر والجهل والغل - والبدنية أيضاً، وأما الذكر فلما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية... إلى آخر ما قال^١.

٢- **قد فسّر بعض المفسّرين المحدثين (الفرقان) فقال:** وسماه الفرقان لما تضمّنه من فارق بين الحقّ والباطل والهدى والضلال، بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج، وبين عهد للبشرية وعهد، فالقرآن يرسم منهجاً واضحاً... ويمثّل عهداً جديداً... فرقان ينتهي به عهد الطفولة ويبدأ به عهد الرشد، وينتهي به عهد الخوارق المادية ويبدأ به عهد المعجزات العقلية، وينتهي به عهد الرسالات المحليّة الموقوتة ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة^٢. هذا على أن البعض لم يلتفتوا إلى السرّ تماماً، وإنّما حاولوا أن يجدوا مجرد مأخذ التسمية، فقالوا بأنه سمي قرآناً مثلاً؛ لأنّ القارئ يظهره ويبيّنه من فيه؛ أخذاً من قول العرب: «ما قرأت الناقة سلاقط أي مارمت لولد أي ما أسقطت ولداً أي ما حملت قط»، والقرآن يخرج القارئ من فيه ويلقيه، فسُمي قرآناً. وأدعى الشافعي أنه لم يؤخذ من قراءة وإنّما هو اسم مخترع لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل. وقال قوم منهم الأشعري: هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي به القرآن لاقتران السور والآيات والحروف فيه.

١. الإتهان في علوم القرآن: ١: ٥١.

٢. في ظلال القرآن ٥: ٢٥٤٧.

ولن نطيل في ذكر هذه الأقوال، إلا أننا نشير إلى أنها لم تدرك النكتة الكبرى، والتي تنطبق أكثر فأكثر في حق القرآن؛ إذ أريد به - بالإضافة إلى إيصال الوحي إلى البشرية - أن تكون كل كلمة فيه مشيرة إلى أقصى حدٍّ ممكن إلى المعنى المراد، ومؤثرة في عملية التربية الكبرى، فكيف يكون اختيار اللفظ مثلاً لأنه مقروء أو لأنه تقترن مقاطعه فيه، وهل هناك كتاب لا تقترن مقاطعه؟! وعذر هؤلاء أنهم بحثوا عن أصل الاشتقاق اللغوي غافلين عن هذا التناسب المحتّم.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الدكتور عبدالله دراز، وكذلك الدكتور الصالح لاحظا أن أكثر الأسماء الشائعة هي لفظتا (القرآن والكتاب)، وفسّرا هذا المعنى بأن (تسميته بالكتاب إشارة إلى جمعه في السطور؛ لأنّ الكتابة جمع الحروف ورسم للألفاظ، كما أن تسميته بالقرآن إبياءة إلى حفظه في الصدور؛ لأنّ القرآن مصدر القراءة وفي القراءة استذكار فهذا الوحي العربي المبين قد كفل له من العناية به ما كفل صيانتته في حرز حريز... إذ لم ينقل كجميع الكتب بالكتابة وحدها ولا الحفظ وحده بل وافقت كتابته تواتر إسناده، ووافق إسناده المتواتر نقله الأمين الدقيق)^١.

ونحن لا نستطيع أن نقف عند هذا الحد بل قد نرفضه؛ باعتبار أن هاتين التسميتين جاء بهما القرآن نفسه ولقّنها الإسلام أتباعه لا أنّها جاءت بعد ذلك لتشير إلى صفتين متأخرتين حدثتا أو تُوقَّع لهما أن تحدثا فيه، وهما قراءته وكتابته وصيانتته بهما من التحريف. والبحث المفصل عن مداليل هذه الأسماء إنّما يكون في علم التفسير إلا أننا نشير إلى أن (قرأ) يأتي بمعنى جمع، ولذا نقل الراغب الإصبهاني في مفرداته^٢ تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله، لكونه جامعاً لشجرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^٣.

وقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^٤. كما أن «تقرأ الشيء» يعني تفهمه وتطلع على أسراره. كما أننا نشير إلى أن الكتاب لا يطلق على مفهوم الكتابة الحرفي، وإنّما له مدلولات تبعية مقترنة به تماماً، كالإلزام كما في ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^٥ ومدلول (التقدير) كما في ﴿كُتِبَ

١. راجع النبأ العظيم: ١٣، ومباحث في علوم القرآن: ١٧.

٢. مفردات غريب القرآن: ٤٠٢.

٣. سورة يوسف: ١١١.

٤. سورة النحل: ٨٩.

٥. سورة البقرة: ١٨٣.

اللَّهُ لَأَعْلَبِينَ أَنَا وَرُسُلِي ﴿١﴾، وقد ذكر ابن شيدلة أن تسميته الكتاب لأنه جمع بين العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، وهذا يعني أن اختيار هذين الإسمين كان يتلاءم مع وظيفة القرآن العامة التي جعلته الفيصل والجامع والأمر الإلهي الذي يجب أن يكون قوام كل شيء في حياة المسلمين.

النكتة الثانية: الملاحظ أن الكثيرين خلطوا بين أسماء القرآن وصفاته، فالكثير من الأسماء التي ذكرت له لم تكن أسماء بقدر ما هي صفات، وذلك من قبيل الصفات التالية: «العلي، العزيز، المجيد، العربي، المبارك، المصدق لما بين يديه، وعجباً، وتذكراً، القصص الحق، وبصائر، الزبور، البشير، النذير، البلاغ».

وما يمكن أن يعدّ من أسماء القرآن هو مايلي

١- لفظ <القرآن>: وهو أشهر الأسماء وقد ذكره الله تعالى في كتابة الكريم ٥٨ مرة، وجاء ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة كثيراً حتى غطى على كل اسم آخر، وأصبح علماً له ضرورة. وقد اختلفوا في هذا اللفظ. فهو عند الشافعي ليس مشتقاً ولا مهموزاً بل هو مرتجلة ووضع علماً على الكلام المنزل على النبي ﷺ وهو أمر بعيد لا معنى له، فلا بد أن تكون هناك مناسبة لوضوح القصد من هذه التسمية الخطيرة وعند البعض: أنه مشتق من القرائن؛ لأن آياته يشبه بعضها بعضاً، ولم نعرف سر ذلك ودخله في الغرض إلا بتحوير وتفسير. ويقول الأشعري: إنه مشتق من قرن الشيء بالشيء وهو أخفى من سابقه.

والذي يبعد هذه الأقوال - كما يقوله الدكتور الصالح - هو قولها بعدم الهمز، وهو بعيد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة، بالإضافة لما أشرنا إليه من إغفالها تلك النكتة الأساسية. هذا، في حين رأى الآخرون أنه مهموز، فيرى الزجاج أنه مهموز على وزن (فعلان) مشتق من القرء بمعنى الجمع، ويرى اللحياني أنه مصدر مهموز بوزن الغفران، مشتق من قرأ بمعنى «تلا». سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر^٢. ويمكن أن نعتبر من يقول بأن

١. المجادلة: ٢١.

٢. مباحث في علوم القرآن: ١٨-١٩، وراجع الإتهان، الباب السابع عشر، في معرفة أسمائه.

القرآن اكتسب اسمه من أول كلمة نزلت منه وهي «اقرأ» مؤيداً لهذا القول، كما أنه يمكن الاستدلال له بأن القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ^١، وإن المفسرين يعتبرون منه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ^٢. مشيراً إلى القراءة.

وربما أيد ذلك بالعبارة التي تبعته وهي ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ^٣ إذا جعلت مفسرة لأسلوب تعليم القرآن، وهذا يأتي في محل تحقيقه في التفسير. ويرى صاحب المباحث أنّ قرأ مأخوذة من اللغة الآرامية كتعبير عن تأثير هذه اللغات في العربية كما يقول برجستراسر وأشار إليه المستشرق كرنكو ونقله المستشرق بلاشير^٤.

٢- الفرقان: وقد ذكر في سبعة مواضع من الكتاب العزيز:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^٥. أو شبهها الآية ٤٨ من سورة الأنبياء، وواضح أنّ اللفظين لا يشيران إلى الكتاب الكريم (القرآن)، ويستعمل اللفظ بمعناه: ﴿أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^٦. والظاهر أنّ المستعمل فيه هو المعنى العام ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ^٧. والاستعمال هنا لا مخصص له بالقرآن الكريم.

وأما قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^٨. و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَفَوَّأْ اللَّهُ يُجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾^٩. فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

١. سورة القيامة: ١٧-١٨.

٢. سورة الرحمن ١-٢.

٣. سورة الرحمن ٣-٤.

٤. مباحث في علوم القرآن: ١٩-٢٠.

٥. سورة البقرة: ٥٢.

٦. سورة البقرة: ١٨٥.

٧. سورة آل عمران: ٣-٤.

٨. سورة الأنفال: ٤١.

٩. سورة الأنفال: ٢٩.

تبقى هذه الآية المباركة وهي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^١. ويمكننا هنا أن ندعي أنه أشار إلى القرآن بصفته لا باسمه، خصوصاً مع ملاحظة الآيات السابقة.

٣ - **الذِّكْرُ**: وقد ذكر في عشرين مورداً. وأهم ما يمكن أن يستدل به - على أنه اسم للقرآن - هو ما يلي:

- ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾^٢.
- ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾^٣ مرتين.
- ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^٤.
- ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^٥.
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٦.
- ﴿... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ...﴾^٧.
- ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾^٨.
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾^٩.
- ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾^{١٠}.
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^١.

١. سورة الفرقان: ١.

٢. سورة آل عمران: ٥٨.

٣. سورة الأعراف: ٦٣-٦٩.

٤. سورة يوسف: ١٠٤.

٥. سورة الحجر: ٦.

٦. سورة الحجر: ٩.

٧. سورة النحل: ٤٤.

٨. سورة الأنبياء: ٥٠.

٩. سورة يس: ٦٩.

١٠. سورة ص: ١.

ولكن يمكن القول بأن المعنى الصفتي هو المقصود، بدليل وصف القرآن به في عبارة ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وكذلك في قوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾.

وكذلك بدليل استعمال الذكر، وذكر الله كثيراً في موارد غير القرآن في الآيات والأحاديث.

٤- التنزيل: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٢.

ولا يدل هذا على أنه اسم بل هو إلى الصفية أقرب.

٥- الكتاب: ورغم أن هذه الكلمة قد وردت في ١١٨ مورداً - كما قيل - معبرة عن القرآن الكريم إلا أنه يمكن القول بأنها لم تكن من الأسماء وان (أل) فيها عهدية تشير إلى القرآن الكريم، وذلك لاستعمالها كثيراً في كتب الأنبياء، بينما لم يستعمل لفظ القرآن في أي منها، ولمجيئها وصفاً للقرآن في بعض الموارد.

ثم إنَّها معنى عام يبعد أن يكون اسماً لكتاب ساويٍّ خاص، فالإنجيل والتوراة تسمى بالكتاب ولكن يبقى لها اسمها الخاص.

هذه هي الأسماء التي يمكن أن تدعى للقرآن الكريم في حين أن الباقي صفاته.

وقد استنتجنا أن الاسم الذي يعتبر علماً له إنَّها هو لفظ (القرآن) لا غير.

بقي أن نشير إلى رواية الجاحظ المتقدمة فنقول: إنَّ العرب لم يسموا كلامهم ديواناً وإنَّما سُمِّيت لمجموعة من الشعر، وهي مأخوذة من الفارسية كما ينص المنجد^٣، وهكذا القصيدة والبيت والقافية فإنَّها من مختصات الشعر لا الشر، وكلمات القرآن والآية والسورة والفاصلة مستعملة عندهم - قطعاً - مع استعمال المشتق منها. نعم، يمكن أن نتردد في أنَّهم سموا مجموعة المقالات أو الشر، بهذا أم لا؟

ومع هذا، لا يبقى أثر لكلامه هذا، مع أنَّ عبارة الفاصلة لم تأت في القرآن حتى يقال سَمَّى الله جزءاً من كتابه بها.

أما الروايتان اللتان مرَّتا عن تسميته بالمصحف عند جمعه على يد أبي بكر والتي أخذها

١. سورة ص: ٨٧.

٢. سورة الحاقة: ٤٣، والواقعة: ٨.

٣. المنجد: ٢٣٠، مادة (دان).

البعض وأرسلها إرسال المسلمات فيمكن أن نلاحظ فيها:

- ١- لا معنى مطلقاً للاختلاف على تسمية ما ذكره القرآن نفسه من التسمية، وهكذا أحاديث حفظ القرآن وتلاوته وغيرها.
- ٢- إنّه لم يثبت أنه جمع على عهد أبي بكر بل ثبت جمعه في عصر الرسول ﷺ.
- ٣- تبقى أيضاً فيه علامات استفهام أخرى مثل:
 - أ) لماذا رفضوا تلك التسميات وكرهوها ولم يكرهوا تسميته باسم كتاب ذكره ابن مسعود في الحبشة؟
 - ب) ما هو مقدار سند الرواية من الاعتبار؟ والذي يبدو أنه مرسل.

فضل القرآن

١- فضل التمسك به

- قال تعالى في فضل القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^١.
- وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾^٢.
- عن رسول الله ﷺ: لا خير في العيش إلا لمستمع واع أو عالم ناطق. أيها الناس، إنكم في زمان هدنة، وإن السير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار يُبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتیان بكل موعود، فأعدوا الجهاد لبعث المضمار.
- فقال المقداد: يا نبي الله! ما الهدنة؟
- قال: بلاء وانقطاع، فإذا التبست الأمور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، وهو الدليل إلى خير سبيل، وهو الفصل ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم عميق، بحره لا تحصى عجائبه، ولا يشبع منه علماءؤه، وهو جبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم... فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودال على الحجة^٣.

١. سورة الحجر: ٨٧.

٢. سورة القمر: ١٧.

٣. كنز العمال: ح ٤٠٢٧، راجع بحار الأنوار ٩٢: ١٧، و ٧٧: ١٣٤ - ١٣٥.

وقال الحارث الأعور: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين! إنّا إذا كنّا عندك سمعنا الذي نسدّ (نشدّ - خ ل) به ديننا، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة، لا ندري ما هي؟ قال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أتاني جبرائيل فقال: يا محمد؛ سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله، فيه بيان ما قبلكم من خبر، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم^١. ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: أمتك ستفتن، فسئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، من ابتغى العلم في غيره أضله الله^٢.

وعن الإمام عليّ عليه السلام في صفة القرآن: جعله الله ربّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحجّ لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة^٣. وعنه عليه السلام: اعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والمهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصانٍ من عمى^٤.

وعنه عليه السلام: إنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه جبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينايع العلم، وما للقلب جلاء غيره^٥. وعنه عليه السلام: فالقرآن أمرزاجر، وصامت ناطق، حُجّة الله على خلقه، أخذ عليه ميثاقهم، وارتهن عليهم أنفسهم^٦.

وعنه عليه السلام: أفضل الذكر القرآن، به تشرح الصدور، وتستتير السرائر^٧.

١. تفسير العياشي ١: ٢-٣.

٢. تفسير العياشي ١: ٦، راجع تمام الحديث.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٩٩.

٤. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٨.

٥. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٣١.

٦. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١١٥.

٧. غرر الحكم: ٣٢٥٥.

وعنه عليه السلام: فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بها أراهم من قدرته^١.
وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن
يكون القرآن معي^٢.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن^٣.

وعن الإمام علي عليه السلام: القرآن أفضل الهديتين^٤.

وعنه عليه السلام: الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم^٥.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: كلامي لا ينسخ كلام الله، وكلام الله ينسخ كلامي، وكلام الله
ينسخ بعضه بعضاً^٦.

وعن الإمام علي عليه السلام: كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه
ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله^٧.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: إن القرآن ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض^٨.

٢ - هو إمام ورحمة

قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا
لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنشِرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾^٩.

وقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى
إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾^{١٠}.

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٠٢.

٢. الكافي ٢: ٦٠٢ و ١٣.

٣. المحاسن ١: ٣٤١ و ٧٠٢.

٤. غرر الحكم: ١٦٦٤.

٥. نهج البلاغة: الكتاب ٤٧.

٦. كنز العمال ح ٢٩٦١.

٧. نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣.

٨. كنز العمال: ح ٢٨٦١.

٩. سورة الأحقاف: ١٢.

١٠. سورة هود: ١٧.

عن رسول الله ﷺ: عليكم بالقرآن، فاتخذوه إماماً وقائداً^١.
وعن الإمام عليّ عليه السلام: إنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل... فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسوا فيهم، ومعهم وليسوا معهم؛ لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعوا، فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطّه وزبره^٢.

٣- هو أحسن الحديث

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^٣.
عن رسول الله ﷺ: إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها^٤.

وعن الإمام عليّ عليه السلام: تعلّموا كتاب الله تبارك وتعالى فإنّه أحسن الحديث وأبلغ الموعدة، وتفقهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء لما في الصدر، وأحسنوا تلاوته فإنّه أحسن القصص^٥.

٤- هو جديد دائماً

وعن الإمام عليّ عليه السلام: لا تخلّقه كثرة الردّ وولوج السمع^٦.
وعن الإمام الصادق عليه السلام: لما سئل ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ قال: لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولاناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غصّ إلى يوم القيامة^٧.

١. كنز العمال: ح ٤٠٢٩.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٣. سورة الزمر: ٢٣.

٤. بحار الأنوار ٧٧: ١٧٥ و ١٩٤.

٥. تحف العقول: ١٥٠.

٦. نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٣.

٧. بحار الأنوار ٩٢: ١٥ ح ٨، عن يعقوب بن السكيت النحوي قال: سألت أبا الحسن الثالث (عليه السلام): ما بال القرآن - وذكر

وعن الإمام الرضا عليه السلام: في صفة القرآن: هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى، طريقته المثلى، المؤدي إلى الجنة، والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة، ولا يغت على الألسنة؛ لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجة على كل إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد^١.

٥- هو شفاء من أكبر الداء

قال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^٢. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^٣.

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^٤.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: القرآن هو الدواء^٥.

وعن الإمام علي عليه السلام: إن فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغبي والضلال^٦. وعن الإمام الحسن عليه السلام: إن هذا القرآن فيه مصايح النور وشفاء الصدور، فليجل جلال بضوته، وليلجم الصفة، فإن التلقين^٧. حياة القلب البصير كما يمشى المستنير في الظلمات بالنور^٨.

نحوه - البحار ٩٢: ١٥ ح ٩.

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ١٣٠ ح ٩.

٢. سورة الإسراء: ٨٢.

٣. سورة يونس: ٥٧.

٤. سورة فصلت: ٤٤.

٥. كنز العمال: ح ٢٣١٠.

٦. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٩.

٧. كذا، وفي المصدر: «وليلجم الصفة قلبه، فإن التفكير حياة القلب البصير» والصواب كما في الكافي ٢: ٥٩٩ «فليجل

جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، فإن التفكير حياة قلب البصير». كما في هامش بحار الأنوار.

٨. بحار الأنوار ٧٨: ١١٢ ح ٦.

وعن الإمام عليّ عليه السلام : عليكم بكتاب الله، فإنّه الحبل المتين، والنور المبين والشفاء النافع... من قال به صدق، ومن عمل به سبق^١.

٦- هو غني لا غنيّ دونه

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : القرآن غنيّ لا غنيّ دونه، ولا فقر بعده^٢.
وعن الإمام عليّ عليه السلام : اعلّموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنيّ، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم^٣.
وعن رسول الله صلى الله عليه وآله : من أُعطي القرآن فظنّ أنّ أحداً أُعطي أكثر ممّا أُعطي فقد عظم صغيراً وصغر كبيراً^٤.

٧- ما فيه من العلوم والأخبار

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : من أراد علم الأولين والآخرين فليقرأ القرآن^٥.
وعن الإمام عليّ عليه السلام : في القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم^٦.
وعن الإمام الصادق عليه السلام : فيه خبركم وخبر من قبلكم وخبر من بعدكم وخبر السماء والأرض، ولو أتاكم من يخبركم عن ذلك لتعجبتم^٧.
وعنه عليه السلام : ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال^٨.

١ . نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٣.

٢ . بحار الأنوار ٩٢: ١٩ ح ١٧.

٣ . نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٨.

٤ . معاني الأخبار: ٢٧٩.

٥ . كنز العمال: ح ٢٤٥٤.

٦ . نهج البلاغة: الحكمة ٣١٣ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ٢٢٠.

٧ . الكافي ٢: ٥٩٩ ح ٣ و ١: ٦٠ ح ٦.

٨ . الكافي ٢: ٥٩٩ ح ٣ و ١: ٦٠ ح ٦ راجع هذا البحث عن القرآن في ميزان الحكمة ٣: ٢٥١٥ - ٢٥٣٦.

الفصل الثاني: تاريخ القرآن

نزوله على النبي ﷺ مرتين

وفي رأي عدد من العلماء^١، أنّ القرآن الكريم نزل على النبيّ مرتين: إحداهما نزل فيها مرّة واحدة على سبيل الإجمال، والمرة الأخرى نزل فيها تدريجاً على سبيل التفصيل، خلال المدة التي قضاها النبيّ في أمته منذ بعثته إلى وفاته.

ومعنى نزوله على سبيل الإجمال هو نزول المعارف الإلهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النبيّ ﷺ لكي تمتلئ روح النبيّ بنور المعرفة القرآنية.

ومعنى نزوله على سبيل التفصيل، هو نزوله بألفاظه المحدودة وآياته المتعاقبة.

وكان إنزاله على سبيل الإجمال مرّة واحدة؛ لأن الهدف منه تنوير النبيّ وتثقيف الله له بالرسالة التي أعدّه لحملها. وكان إنزاله على سبيل التفصيل تدريجياً؛ لأنه يستهدف تربية الأمة وتنويرها وترويضها على الرسالة الجديدة، وهذا يحتاج إلى التدرج. وعلى ضوء هذه النظرية في تعدّد نزول القرآن، يمكننا أن نفهم الآيات الكريمة الدالّة على نزول القرآن في شهر رمضان أو إنزاله في ليلة القدر بصورة خاصّة، نحو قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^٢.

١ . هناك الكثير من الآراء في هذا المجال، وصل بها الشيخ هادي معرفة إلى خمسة، والرأي الذي اشرنا إليه هو مذهب الكثير من العلماء، وناقشه آخرون. انظر: تلخيص التمهيد ١: ٦٣ - ٧٥.

٢ . سورة البقرة: ١٨٥.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^١. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^٢. فإن الإنزال الذي تتحدث عنه هذه الآيات ليس هو التنزيل التدريجي الذي طال أكثر من عقدين، وإنما هو الإنزال مرة واحدة على سبيل الإجمال.

كما أن فكرة تعدد الإنزال بالصورة التي شرحناها، تفسر لنا أيضاً المرحلتين اللتين أشار إليهما القرآن الكريم في قوله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^٣؛ فإن هذا القول يشير إلى مرحلتين في وجود القرآن، أولاهما إحكام الآيات، والمرحلة الثانية تفصيلها، وهو ينسجم مع فكرة تعدد الإنزال، فيكون الإنزال مرة واحدة على سبيل الإجمال هي مرحلة الإحكام، والإنزال على سبيل التدرج هي المرحلة الثانية، أي مرحلة التفصيل.

التدرج في التنزيل

استمرّ التنزيل التدريجي للقرآن الكريم طيلة ثلاث وعشرين سنة، وهي المدة التي قضاها النبي ﷺ في أمته منذ بعثته إلى وفاته، فقد بعث ﷺ لأربعين سنة، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم هاجر إلى المدينة وظلّ فيها عشر سنين، والقرآن يتعاقب ويتواتر عليه، حتى مات وهو في الثالثة والستين من عمره الشريف.

وقد امتاز القرآن عن الكتب السماوية السابقة عليه بإنزاله تدريجياً، وكان لهذا التدرج في إنزاله أثر كبير في تحقيق أهدافه، وإنجاح الدعوة وبناء الأمة، كما أنه كان آية من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، ويتضح كلّ ذلك في النقاط التالية:

١- مرّت على النبي ﷺ والدعوة حالات مختلفة جداً خلال ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لما مرّت به الدعوة من محن ومن شدائد وما أحرزته من انتصار وسجلته من تقدّم، وهي حالات يتفاعل معها الإنسان الاعتيادي، وتنعكس على روحه وأقواله وأفعاله، ويتأثر بأسبابها وظروفها والعوامل المؤثرة فيها. ولكن القرآن الذي واكب تلك السنين بمختلف حالاتها في الضعف والقوّة، في العسر

١. سورة القدر: ١.

٢. سورة الدخان: ٣.

٣. سورة هود: ١.

واليسر، في لحظات الهزيمة ولحظات الانتصار، والتنزيل تدريجياً خلال تلك الأعوام كان يسير دائماً على خطّه الرفيع، لم ينعكس عليه أيّ لون من ألوان الانفعال البشري الذي تثيره تلك الحالات. وهذا من مظاهر الإعجاز في القرآن، التي تبرهن على تنزيهه من لدن عليّ حكيم. ولم يكن القرآن ليحصل على هذا البرهان، لولا إنزاله تدريجياً في ظروف مختلفة وأحوال متعدّدة.

٢ - إنّ القرآن بتنزيهه تدريجياً، كان إمداداً معنوياً مستمراً للنبيّ ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^١، فإنّ الوحي إذا كان يتجدّد في كلّ حادثة كان أقوى للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك نزول الملك إليه وتجدد العهد به وتقوية أمله في النصر، واستهانتة بما يستجدّ ويتعاقب من محن ومشاكل.

ولهذا نجد أنّ القرآن ينزل مسلماً للنبيّ مرّة بعد مرّة مهوَّناً عليه الشدائد، كلما وقع في محنة، يأمره تارة بالصبر أمراً صريحاً، فيقول: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^٢، وينهاه تارة أخرى عن الحزن، كما في قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويذكره بسيرة الأنبياء الذين تقدّموه من أولي العزم، فيقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^٣، ويخفف عنه أحياناً ويُعلمه أنّ الكافرين لا يرحون شخصه ولا يتهمونه بالكذب لذاته، وإنّما يعاندون الحقّ بغياً كما هو شأن الجاحدين في كلّ عصر، كما في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^٤.

٣ - إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً كسائر الكتب التي تؤلّف للتعليم والبحث العلمي، وإنّما هو عملية تغيير الإنسان تغييراً شاملاً كاملاً في عقله وروحه وإرادته، وصنع أمة وبناء حضارة. وهذا الأمل لا يمكن أن يوجد مرة واحدة، وإنّما هو عمل تدريجي بطبيعته. ولهذا كان من الضروري أن ينزل القرآن الكريم تدريجياً ليُحكّم عليه البناء، وينشئ أساساً بعد

١. سورة الفرقان: ٣٢.

٢. سورة المزمل: ١٠.

٣. سورة الاحقاف: ٣٥.

٤. سورة الأنعام: ٣٣.

أساس، ويجتث جذور الجاهلية ورواسبها بأناة وحكمة. وعلى أساس هذه الأناة والحكمة في عملية التغيير والبناء، نجد الإسلام تدرّج في علاج القضايا العميقة بجذورها في نفس الفرد أو نفس المجتمع، وقاوم بعضها على مراحل، حتى استطاع أن يستأصلها ويجتث جذورها. وقصة تحريم الخمر وتدرّج القرآن في الإعلان عنها من أمثلة ذلك^١. فلو أن القرآن نزل جملة واحدة بكل أحكامه ومعطياته الجديدة لنفر الناس منه، ولما استطاع أن يحقق الانقلاب العظيم الذي أنجزه في التاريخ.

أسباب النزول

معنى سبب النزول

نزل القرآن الكريم لهداية الناس وتنوير أفكارهم وتربية أرواحهم وعقولهم، وكان في نفس الوقت يحدّد الحلول الصحيحة للمشاكل التي تتعاقب على الدعوة في مختلف مراحلها، ويوجب على ما هو جدير بالجواب من الأسئلة التي يتلقاها النبيّ من المؤمنين أو غيرهم، ويعلّق على جملة من الأحداث والوقائع التي كانت تقع في حياة الناس تعليقاً يوضح فيه موقف الرسالة من تلك الأحداث والوقائع.

وعلى هذا الأساس، كانت آيات القرآن الكريم تنقسم قسمين: أحدهما الآيات التي نزلت لأجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين - في عصر الوحي - أثار نزولها، كالأيات التي تصوّر قيام الساعة ومشاهد القيامة وأحوال النعيم والعذاب. فإنّ الله تعالى أنزل هذه الآيات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال أو حلاً لمشكلة أو تعليقاً على حادثة معاصرة.

والقسم الآخر، الآيات التي نزلت بسبب مثير وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه، كمشكلة تعرض لها النبيّ والدعوة وتطلّبت حلاً أو سؤالاً استدعى الجواب عنه أو واقعة كان لابدّ من التعليق عليها، وتسمّى هذه الأسباب التي استدعت نزول القرآن بـ«أسباب النزول».

١. انظر: الميزان في تفسير القرآن ٦: ١١٦ - ١٢٥.

فأسباب النزول هي أمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها. وذلك من قبيل ما وقع من بناء المنافقين لمسجد ضرار بقصد الفتنة، فقد كانت هذه المحاولة من المنافقين مشكلة تعرّضت لها الدعوة وأثارت نزول الوحي بشأنها، إذ جاء قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١. إلى آخر الآية^٢.

وكذلك سؤال بعض أهل الكتاب - مثلاً - عن الروح من النبي، قد اقتضت الحكمة الإلهية أن يجاب عنه في القرآن فنزل قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٣، وبهذا أصبح ذلك السؤال من أسباب النزول^٤.

وكذلك أيضاً ما وقع من بعض علماء اليهود، إذ سألهم مشركو مكة: من أهدى سبيلاً محمّد وأصحابه أم نحن؟

فتملّقوا عواطفهم وقالوا لهم: أنتم أهدى سبيلاً من محمّد وأصحابه، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي المنطبق عليه، وأخذ الموثيق عليهم أن لا يكتموه. فكانت هذه واقعة مثيرة أدت - على ما جاء في بعض الروايات - إلى نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾^٥.

فهذه قضايا وقعت في عصر الوحي، وكانت داعية إلى نزول الوحي بشأنها، فكانت لأجل ذلك من أسباب النزول.

ويلاحظ - في ضوء ما قدّمناه من تعريف لأسباب النزول - أنّ أحداث الأمم الماضية التي يستعرضها القرآن الكريم ليست من أسباب النزول؛ لأنّها قضايا تاريخية سابقة على عصر الوحي، لا أمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول القرآن بشأنها، فلا يمكن أن

١ . سورة التوبة: ١٠٧.

٢ . انظر: تفسير القمي ١: ٣٠٥.

٣ . سورة الإسراء: ٨٥.

٤ . انظر: التبيان (الطوسي) ٦: ٥١٥ - ٥١٦.

٥ . سورة النساء: ٥١.

٦ . الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٦٣ - ٣٦٧.

نعتبر حياة يوسف وتأمير إخوته عليه ونجاته وتمكّنه منهم سبباً لنزول سورة يوسف، وهكذا سائر المقاطع القرآنية التي تتحدّث عن الأنبياء الماضين وأممهم، فإنّها في الغالب تندرج في القسم الأول من القرآن الذي نزل بصورة ابتدائية، ولم يرتبط بأسباب نزول معيّنة^١.

الفائدة في معرفته

ولمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الآية، والتعرّف على أسرار التعبير فيها؛ لأنّ النصّ القرآني المرتبط بسبب معيّن للنزول تجيء صياغته وطريقة التعبير فيه وفقاً لما يقتضيه ذلك السبب، فما لم يعرف ويجدّد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^٢ فإنّ الآية ركّزت على نفي الإثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة دون أن تصرّح بوجود ذلك، فلماذا اكتفت بنفي الحرمة دون أن تعلن وجوب السعي؟ إنّ الجواب على هذا السؤال، يمكن معرفته عن طريق ما ورد في سبب نزول الآية، من أنّ بعض الصحابة تأثّموا من السعي بين الصفا والمروة؛ لأنّه من عمل الجاهليّة، فنزلت الآية الكريمة، فهي إذن بصدد نفي هذه الفكرة من أذهان الصحابة والإعلان عن أنّ الصفا والمروة من شعائر الله، وليس السعي بينهما من مخلفات الجاهليّة ومفترياتها. وقد أدّى الجهل بمعرفة سبب النزول في هذه الآية عند البعض إلى فهم خاطئ في تفسيرها؛ إذ اعتبر اتجاه الآية نحو نفي الإثم بدلاً عن التصريح بالوجوب دليلاً على أنّ السعي ليس واجباً وإنّما هو أمر سائغ؛ إذ لو كان واجباً لكان الأجدر بالآية أن تعلن وجوبه بدلاً عن مجرد نفي الإثم، ولو كان يعلم سبب النزول والهدف المباشر الذي نزلت الآية لتحقيقه - وهو إزالة فكرة التأمّم من أذهان الصحابة - لعرف السرّ في طريقة التعبير والسبب^٣.

١. أطلق البعض على هذا الصنف من علل لنزول الآيات (شأن النزول) ويلخص الشيخ هادي معرفة الفرق بين شأن النزول وسبب النزول بقوله: "وعليه، فالفارق بين السبب والشأن - اصطلاحاً - أنّ الأول يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء كانت حاضرة أم غابرة. وهذا اصطلاح ولا مشاحة فيه" تلخيص التمهيد ١: ١١٣، أي أنه يرى الشأن أعم من السبب، على أن عدداً غير قليل من علماء القرآن يساوي بين معناهما دون تفريق في الإطلاق بينهما.

٢. سورة البقرة: ١٥٨.

٣. انظر: فقه القرآن (القطب الراوندي) ١: ٢٧٤ - ٢٧٧.

تعدد الأسباب والمنزل واحد وبالعكس

قد يتفق وقوع عدة أشياء في عصر الوحي، كلّها تتفق في إشارة واحدة وتستدعي نزول القرآن بشأنها، كما إذا تكرر السؤال - من النبيّ مثلاً - عن مشكلة واحدة فإنّ كلّ سؤال يقتضي نزول الوحي بجوابه، ويقال في هذه الحالة: إنّ الأسباب متعدّدة والمنزل واحد.

ومن هذا القبيل، ما يروى من أنّ النبيّ سئل مرّتين عمّن وجد مع زوجته رجلاً، كيف يصنع؟ سأله عاصم بن عدي مرة، وسأله عويمر مرة أخرى، واتفق في مرة ثالثة أنّ هلال بن أمية قذف امرأته عند النبيّ بشريك بن سمحاء^١، فكانت هذه أسباباً متعدّدة تستدعي نزول الوحي لتوضيح موقف الزوج من زوجته إذا اطلع على خيانتها، وما إذا كان من الجائز له أن يقذفها ويتّهمها بدون بيّنة أو لا يجوز له ذلك إلّا بيّنة، فإنّ اتّهم بدون بيّنة استحق حدّ القذف، كما هو شأن غير الزوج إذا قذف امرأة أخرى، ولأجل ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^٢، فكان السبب متعدّداً والمنزل واحد. وفي حالة تعدّد السبب، قد يوجد فاصل زمني كبير بين أحد السببين والآخر، فيؤدّي السبب الأول إلى نزول الآية فعلاً، ثم يتجدّد نزولها حينما يوجد السبب الثاني بعد ذلك بمدّة، فيكون السبب متعدّداً والنزول متعدّداً وإن كانت الآية النازلة في المرّتين واحدة، ويقال إنّ سورة الإخلاص من هذا القبيل؛ إذ نزلت مرّتين، إحداهما بمكّة جواباً للمشرّكين من أهلها، والأخرى بالمدينة جواباً لأهل الكتاب الذين جاورهم النبيّ ﷺ بعد الهجرة^٣.

وكما يتعدّد السبب والنزول واحد، كذلك قد يتفق كون السبب واحداً لآياتٍ متفرّقة. فقد روي^٤:

أنّ أمّ سلمة قالت للنبيّ ﷺ: يا رسول الله! لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فنزل قوله

١. انظر: بحار الأنوار ٢٢: ٦٨ - ٦٩ ح ١٦.

٢. سورة النور: ٦.

٣. انظر: لباب النقول (السيوطي): ٢٣٨.

٤. الاتقان في علوم القرآن ١: ٩٩.

تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْثِيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^١.

ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...﴾^٢. إلى آخر الآية، فهاتان آيتان متفرقتان نزلتا بسبب واحد أدرجت إحداهما في سورة آل عمران، والأخرى في سورة الأحزاب، وبذلك كان السبب في النزول واحداً وهو حديث أم سلمة مع النبي، والمنزل متعدد.

وعلى هذا الأساس، يجب أن لا نسارع إلى الحكم بالتعارض بين روايتين تتحدثان عن أسباب النزول، إذا ذكرت كل منهما سبباً لنزول آية يغاير السبب الذي ذكرته الرواية الأخرى لنزول نفس تلك الآية أو إذا تحدثت الروايتان عن سبب واحد، فذكرت كل منهما نزول آية بذلك السبب غير الآية التي ربطتها الرواية الأخرى به؛ لأن من الممكن فهم الاختلاف بين الروايتين والتوفيق بينهما على أساس إمكان تعدد سبب النزول لآية واحدة أو تعدد الآيات النازلة بسبب واحد، فلا يوجد بين الروايتين تعارض على هذا الأساس.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا نزلت الآية بسبب خاص وكان اللفظ فيها عاماً، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الآية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه؛ لأن سبب النزول يقوم بدور الإشارة لا التخصيص. وقد جرت عادة القرآن، أن ينزل أحكامه وتعليماته وإرشاداته على أثر وقائع وأحداث تقع في حياة الناس وتتطلب حكماً وتعليماً من الله، لكي يجيء البيان القرآني بأبلغ تأثيراً وأشد أهمية في نظر المسلمين، وإن كان مضمونه عاماً شاملاً. فآية اللعان - مثلاً - تشرح حكماً شرعياً عاماً لكل زوج يتهم زوجته بالخيانة وإن نزلت في شأن هلال بن أمية^٣، وآية

١. سورة آل عمران: ١٩٥.

٢. سورة الأحزاب: ٣٥.

٣. مسند أحمد ١: ٢٣٨، عوالي اللآلي ٣: ٤١١.

الظهار عامّة وإن كان نزولها بسبب أوس بن الصامت^١. وعلى هذا الأساس، اتّفق علماء الأصول على أنّ المتّبع هو مدى عموم النصّ القرآنيّ وشمول اللفظ فيه، وأنّ سبب النزول مجرّد سبب مثير لنزول الحكم العام وليس تحديداً له في نطاقه الخاص؛ لأنّ مجرّد نزول حكم اللعان عقيب قصّة هلال بن أمية - مثلاً - لا يدلّ إطلاقاً على أنّ الحكم يختص به، ولا يبطل عموم اللفظ وشمول النصّ لسائر الأزواج^٢. وقد جاءت نصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، تعزّز هذا المعنى وتؤيّد، ففي تفسير العياشي عن الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ القرآن حيّ لا يموت والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقسام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضيين»^٣. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ القرآن حيّ لم يمّت وأنّه يجري كما يجري الليل والنهار وكما يجري الشمس والقمر ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا، فلا تكوننّ ممن يقول للشيء إنّه في شيء واحد»^٤. ومما جاء في القرآن عن الإمام عليّ عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه» ولعله يريد منا التفاعل الوجداني مع القرآن إلى الحد الذي يتحدّث فيه مع قارئه أو يريد أن نتأمّل فيه حتى نستفيد في كل آن وزمان ما يتناسب مع زماننا ومشاكلنا ويمنحنا الحل المناسب من تجريد النص من ظروفه الخاصة، لكي يتحول إلى رؤية تاريخية تتناسب مع خلوده وجريانه كما تجري الشمس والقمر: وقد جاء بعد ذلك قوله عليه السلام: «ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء داءكم ونظم ما بينكم» وقد عبر الشهيد الصدر بانه التفسير الموضوعي^٥.

١. انظر: سنن أبي داود ١: ٤٩٤ ح ٢٢١٤.

٢. اشتهر استدلال الأصوليين بهذه القاعدة، انظر: هداية المسترشدين ٣: ٣٣٨ و ٤٤٩، درر الفوائد ١: ٢٣٤، افاضة العوائد ١: ٣٧٠.

٣. بحار الأنوار ٣٥: ٤٠٣ - ٤٠٤.

٤. راجع: بحار الأنوار ٢: ٢٧٩ و ٧٤: ١٣٠.

٥. نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨ ص ٢٢٣.

٦. المدرسة القرآنية: ٣٠.

الفصل الثالث : في المكي والمدني ١

معنى المكي والمدني:

يُقسَم القرآن في عرف علماء التفسير إلى مكيّ ومدنيّ، فبعض آياته مكيّة وبعض آياته مدنيّة.

الاتجاهات في تفسير المكي والمدني

توجد اتجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح ٢.

أحدها: الاتجاه السائد وهو تفسيره على أساس الترتيب الزمني للآيات، واعتبار الهجرة حداً زمنيّاً فاصلاً بين مرحلتين، فكلّ آية نزلت قبل الهجرة تعتبر مكيّة، وكلّ آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنيّة وإن كان مكان نزولها مكّة، كآيات التي نزلت على النبي ﷺ حين كان في مكّة وقت الفتح. فالمقياس هو الناحية الزمنية لا المكانية.

والإتجاه الآخر: هو الأخذ بالناحية المكانية مقياساً للتمييز بين المكي والمدنيّ، فكلّ آية يلاحظ مكان نزولها، فإن كان النبي ﷺ حين نزولها في مكّة سُميت مكيّة، وإن كان حين ذلك في المدينة سُميت مدنيّة.

والإتجاه الثالث: يقوم على أساس مراعاة الأشخاص المخاطبين، فهو يعتبر أنّ المكيّ ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

١ . هذا البحث كتبه الإمام الشهيد الصدر ونقله آية الله السيد محمّد باقر الحكيم في كتابه (علوم القرآن): ٧٣ - ٩٧،

ويرى مؤلف هذا الكتاب كفاية ما كتبه استاذة للعرض في هذا الكتاب مع بعض الملاحظات التكميلية.

٢ . انظر: تلخيص التمهيد ١: ٨٥ - ٨٧.

ويمتاز الاتجاه الأول عن الاتجاهين الآخرين بشمول المكي والمدني لجميع آيات القرآن؛ لأننا إذا أخذنا بالناحية الزمنية كانت كل آية في القرآن إما مكية وإما مدنية؛ لأنها إذا كانت نازلة قبل هجرة النبي إلى المدينة ودخوله إليها فهي مكية، وإن نزلت على النبي في طريقه من مكة إلى المدينة، وإذا كانت نازلة بعد دخول المدينة مهاجراً إلى المدينة فهي مدنية مهما كان مكان نزولها. وأما على الاتجاهين الآخرين في تفسير المصطلح فقد تجد آية ليست مكية ولا مدنية كما إذا كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً لا مكة ولا المدينة، ولم تكن خطاباً لأهل مكة أو أهل المدينة، نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في معرجه أو إسرائه.

الترجيح بين الاتجاهات الثلاثة

وإذا أردنا أن تقارن بين هذه الاتجاهات الثلاثة لنختار واحداً منها، فيجب أن نطرح منذ البدء الاتجاه الثالث؛ لأنه يقوم على أساس خاطئ وهو الاعتقاد بأن من الآيات ما يكون خطاباً لأهل مكة خاصة ومنها ما يكون خطاباً لأهل المدينة، وليس هذا بصحيح؛ فإن الخطابات القرآنية عامة وانطباقها حين نزولها على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطاباً لهم خاصة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعي بهم، بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاماً.

والواقع، أن لفظ المكي والمدني ليس شرعياً حدّد النبي مفهومه لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وإنما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير، وما من ريب في أن كل أحد له الحق في أن يصطلح كما يشاء، فلسنا هنا نريد أن نخطئ الاتجاه الأول أو الاتجاه الثاني ما دام لا يعبر كل منهما إلا عن اصطلاح من حق أصحاب ذلك الاتجاه أن يضعوه، ولكننا نرى أن وضع مصطلح المكي والمدني على أساس الترتيب الزمني كما يقرره الاتجاه الأول أنفع للدراسات القرآنية؛ لأن التمييز من ناحية زمنية بين ما أنزل من القرآن قبل الهجرة وما أنزل بعدها أكثر أهمية للبحوث القرآنية من التمييز على أساس المكان بين ما أنزل على النبي في مكة وما أنزل عليه في المدينة، فكان جعل الزمن أساساً للتمييز بين المكي والمدني واستخدام هذا المصطلح لتحديد الناحية الزمنية أوفق بالهدف.

وتتجلى أهمية التمييز الزمني من التمييز المكاني في نقطتين:

إحدهما: فقهية، أي أنها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية، وهي أن تقسيم الآيات على أساس الزمن إلى مكّية ومدنية وتحديد ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعد الهجرة، يساعدنا على معرفة الناسخ والمنسوخ؛ لأنّ الناسخ متأخر بطبيعته عن المنسوخ زماناً، فإذا وجدنا حكماً ينسخ أحدهما الآخر استطعنا أن نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمني فيكون المدني منها ناسخاً للمكّي لأجل تأخره عنه زماناً.

والأخرى: هي أن التقسيم الزمني للآيات إلى مكّية ومدنية، يجعلنا نتعرّف على مراحل الدعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النبي ﷺ؛ فإنّ الهجرة المباركة ليست مجرد حادث عابر في حياة الدعوة، وإنّما هي حدّ فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة، وهما مرحلة العمل الفردي ومرحلة العمل الاجتماعي ضمن دولة.

ولئن كان بالإمكان تقسيم كلّ من هاتين المرحلتين بدورهما أيضاً، فمن الواضح على أيّ حال أنّ التقسيم الرئيسي هو التقسيم على أساس الهجرة، فإذا ميّزنا بين الآيات النازلة قبل الهجرة وما أنزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطوّرات الدعوة والخصائص العامّة التي تجلّت فيها خلال كلّ من المرحلتين.

وأما مجرد أخذ مكان النزول بعين الاعتبار وإهمال عامل الزمن، فهو لا يمدّدنا بفكرة عن هاتين المرحلتين ويجعلنا نخلط بينهما، كما يجرّنا من تمييز الناسخ عن المنسوخ من الناحية الفقهية. فلهذا كلّ نؤثر الاتجاه الأول في تفسير المكي والمدني، وعلى هذا الأساس سوف نستعمل هذين المصطلحين.

طريقة معرفته من خلال الخصائص

بدأ المفسّرون عند محاولة التمييز بين المكي والمدني بالاعتماد على الروايات والنصوص التاريخية التي توزّع السورة أو الآية وتشير إلى نزولها قبل الهجرة أو بعدها، وعن طريق تلك الروايات والنصوص التي تتبعها المفسّرون واستوعبوها، استطاعوا أن يعرفوا عدداً كبيراً من السور والآيات المكّية والمدنيّة ويميّزوا بينها.

وبعد أن توفّرت لهم المعرفة بذلك، اتّجه كثير من المفسّرين الذين عنوا بمعرفة المكّي والمدنيّ إلى دراسة مقارنة لتلك الآيات والسور المكيّة والمدنية التي اكتشفوا تاريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والآيات المكيّة وخصائص عامّة أخرى في المدنيّ من الآيات والسور، فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامّة للآيات والسور المكيّة حكموا بأنّه مكّي، وما كان أقرب إلى الخصائص العامّة للمدنيّ وأكثر انسجاماً معها أدرجوه ضمن المدنيّ من الآيات بالسور.

وهذه الخصائص العامّة التي حدّدت المكّي والمدنيّ، بعضها يرتبط بأسلوب الآية والسورة كقولهم: إنّ قصر الآيات والسور وتجانسها الصوتي من خصائص القسم المكّي، وبعضها يرتبط بموضوع النص القرآني كقولهم - مثلاً - : إن مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم من خصائص الآيات المكيّة.

ويمكن تلخيص ما ذكره من الخصائص الأسلوبية والموضوعية للقسم المكّي فيما يأتي:

- ١ - قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي.
 - ٢ - الدعوة إلى أصول الايمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.
 - ٣ - الدعوة للتمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
 - ٤ - مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
 - ٥ - استعمال السورة لكلمة يا أيها الناس، وعدم استعمالها لكلمة يا أيها الذين آمنوا.
- وقد لوحظ، أنّ سورة الحج تُستثنى من ذلك؛ لأنّها استعملت الكلمة الأولى بالرغم من أنّها مدنيّة، فهذه الخصائص الخمس يغلب وجودها في السور المكيّة.

وأما ما يشيع في القسم المدنيّ من خصائص عامة فهي:

- ١ - طول السورة والآية وإطنابها.
- ٢ - تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية.
- ٣ - مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلوّ في دينهم.

٤ - التحدّث عن المنافقين ومشاكلهم.

٥ - التفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والدولية^١.

موقفنا من هذه الخصائص

وما من ريب في أنّ هذه المقاييس المستمدّة من تلك الخصائص العامة تلقي ضوءاً على الموضوع، وقد تؤدّي إلى ترجيح لأحد الاحتمالين على الآخر في السور التي لم يرد نصّ بأنّها مكيّة أو مدنيّة، فإذا كانت إحدى هذه السور تتفق - مثلاً - مع السور المكيّة في أسلوبها وإيجازها وتجانسها الصوتي وتنديدها بالمشرّكين وتسفيه أحلامهم فالأرجح أن تكون سورة مكيّة؛ لاشتغالها على هذه الخصائص العامة للسورة المكيّة.

ولكن الاعتماد على تلك المقاييس إنّما يجوز إذا أدت إلى العلم، ولا يجوز الأخذ بها لمجرد الظن. ففي المثال المتقدّم حين تجد سورة تتفق مع السور المكيّة في أسلوبها وإيجازها، لا نستطيع أن نقول بأنّها مكيّة لأجل ذلك؛ إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنيّة وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب الشائع في القسم المكي. صحيح أنّه يغلب على الظن أنّ السورة مكيّة لقصرها وإيجازها، ولكنّ الأخذ بالظن لا يجوز؛ لأنّه قول من دون علم. وأمّا إذا أدت تلك المقاييس إلى الاطمئنان والتأكّد من تاريخ السورة وأنها مكيّة أو مدنيّة؛ فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذلك.

ومثاله النصوص القرآنية التي تشتمل على تشريعات للحرب والدولة مثلاً؛ فإنّ هذه الخصيصة الموضوعية تدلّ على أنّ النصّ مدنيّ؛ لأنّ طبيعة الدعوة في المرحلة الأولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تنسجم إطلاقاً مع التشريعات الدولية، فنعرف من أجل هذا، أنّ النصّ مدنيّ نزل في المرحلة الثانية من الدعوة أي في عصر الدولة.

شبهة حول المكي والمدني

لقد كان موضوع المكي والمدني من جملة الموضوعات القرآنية التي أثّرت حولها الشبهة والجدل.

١ . للمزيد انظر: البرهان (الزركشي) ١: ١٨٧ - ١٩١.

وتنطلق الشبهة هنا من أساس هو أنّ الفروق والميزات التي تلاحظ بين القسم المكّي من القرآن الكريم والقسم المدنيّ منه، تدعو في نظر بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأنّ القرآن قد خضع لظروف بشريّة مختلفة اجتماعية وشخصيّة تركت آثارها على أسلوب القرآن وطريقة عرضه وعلى مادته والموضوعات التي عُني بها.

ويجدر بنا قبل أن ندخل في الحديث عن الشبهات ومناقشتها، أن نلاحظ الأمرين التاليين؛ لما لهما من تأثير في فهم البحث ومعرفة نتائجه.

الأول: أنّه لا بدّ لنا أن نفرّق منذ البدء بين فكرة تأثر القرآن الكريم وانفعاله بالظروف الموضوعية من البيئة وغيرها، بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدعوة؛ فإنّ الفكرة الأولى تعني في الحقيقة بشريّة القرآن، حيث يفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءاً من البيئة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثّر فيها، بخلاف الفكرة الثانية فإنّها لا تعني شيئاً من ذلك؛ لأنّ طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغيير وطبيعة الأهداف والغايات التي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة حيث تحدّد الغاية والهدف طبيعة الأسلوب الذي يجب سلوكه للوصول إليها.

فهناك فرق بين أن تفرض الظروف نفسها على الرسالة، وبين أن تفرض الأهداف والغايات - التي ترمي الرسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع - أسلوباً ومنهجاً للرسالة؛ لأنّ الهدف والغاية ليسا شيئاً منفصلاً عن الرسالة ليكون تأثيرهما عليها تأثيراً مفروضاً من الخارج. فنحن في الوقت الذي نرفض فيه الفكرة الأولى بالنسبة إلى القرآن، نجد أنفسنا لا تأبى التمسك بالفكرة الثانية في تفسير الظواهر القرآنية المختلفة، سواء ما يرتبط منها بالأسلوب القرآني أو الموضوع والمادة المعروضة فيه.

الثاني: أنّ تفسير وجود الظاهرة القرآنية لا بدّ أن يعتبر هو المصدر الأساس في جميع الأحكام التي تصدر على محتوى القرآن وأسلوب العرض فيه.

فقد تكون النقطة الواحدة في القرآن الكريم سبباً في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للاختلاف في تفسير أصل وجود القرآن، وسوف نتعرّف على بعض الأمثال لهذا الاختلاف في الحكم عند البحث عن اشتراط أن ينطلق تفسير القرآن بذهنية إسلامية.

ومن أجل ذلك، فنحن لا نسوّغ لأنفسنا أن نقبل حكماً ما في تفسير نقطة حول القرآن الكريم؛ لمجرد انسجام هذا الحكم مع تلك النقطة، بل لابد لنا أن ننظر أيضاً - بشكل مسبق - إلى مدى انسجام الحكم مع التفسير الصحيح لوجود الظاهرة القرآنية نفسها.

وقد عرفنا في بحثنا عن الوحي أنّ الظاهرة القرآنية ليست نتاجاً شخصياً لمحمد وبالتالي ليست نتاجاً بشرياً مطلقاً، وإنما هي نتاج إلهي مرتبط بالسماء. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجزم بشكل مسبق بطلان الشبهات التي تثار حول المكي والمدني؛ لأنّها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكي والمدني على أساس أنّ القرآن الكريم نتاج بشري.

وبالأحرى يجب أن يقال: إنّ شبهات المكي والمدني ترتبط في الحقيقة بالشبهات التي أُثرت حول الوحي ارتباطاً موضوعياً؛ لأنّها ترتبط بفكرة إنكار الوحي. ولذا فسوف نناقش هذه الشبهات بعد التحدّث عنها لإيضاح بطلانها من ناحية، وتقديم التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني بعد ذلك من ناحية ثانية.

الشبهات حولهما

للشبهة حول المكي والمدني جانبان: جانب يرتبط بالأسلوب القرآني فيها وجانب آخر يرتبط بالمادة والموضوعات التي عرض القرآن لها في هذين القسمين. وفي كلّ من القسمين تصاغ الشبهة على عدّة أشكال، نذكر منها صياغتين لكل واحد من القسمين.

أ) أسلوب المكي يمتاز بالشدة والعنف والسباب

فقد قالوا: إنّ أسلوب القسم المكي من القرآن يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة والعنف بل السباب أيضاً. وهذا يدلّ على تأثر محمد بالبيئة التي كان يعيش فيها؛ لأنّها مطبوعة بالغلظة والجهل؛ ولذا يزول هذا الطابع عن القرآن الكريم عندما ينتقل محمد إلى مجتمع المدينة الذي تأثر فيه - بشكل أو بآخر - بحضارة أهل الكتاب وأساليبيهم. وتستشهد الشبهة بعد ذلك لهذه الملاحظة بالسور والآيات المكيّة المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف، أمثال سورة «المسد» وسورة «العصر» وسورة «التكاثر» وسورة «الفجر» وغير ذلك. ويمكن أن تناقش هذه الشبهة.

أولاً: بعدم اختصاص القسم المكي من القرآن الكريم بطابع الوعيد والإنذار دون القسم المدني، بل يشترك المكي والمدني بذلك. كما أن القسم المدني لا يختص أيضاً - كما قد يفهم من الشبهة - بالأسلوب اللين الهادئ الذي يفيض سماحة وعفواً، بل نجد ذلك في المكي. والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة. فمن القسم المدني الذي اتسم بالشدّة والعنف قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^١. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^٢ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^٥ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِن سَعْتُهُمْ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرَهُمْ وَلَا يُنصرون﴾^٦ إلى جهنم وبئس المهادن^٧. كما نجد في القسم المكي لينا وسماحة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٨ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَدِيٌّ حَمِيمٌ^٩ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^{١٠}.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^{١١} وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ^{١٢} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

١. سورة البقرة: ٢٤.

٢. سورة البقرة: ٢٧٥.

٣. سورة البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩.

٤. سورة آل عمران: ١٠ - ١٢.

٥. سورة فصلت: ٣٣ - ٣٥.

يُنْفِقُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٢﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴿٤﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ ﴿٦﴾^١.

وقوله تعالى: ﴿٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَلِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾^٢.

وقوله تعالى: ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾^٣.

وثانياً: أنه ليس في القرآن الكريم سباب وشتم. كيف! وقد نهى القرآن نفسه عن السب والشتم حيث قال تعالى: ﴿١١﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٢﴾^٤.

وليس في سورة «المسد» أو «التكاثر» سب أو بداءة - كما يحاول المستشرقون أن يقولوا ذلك - وإنما فيها تحذير ووعيد بالمصير الذي ينتهي إليه أبو لهب والكافرون بالله.

نعم، يوجد في القرآن الكريم تقريع وتأييب عنيف، وهو موجود في المدني كما هو في المكِّي، وإن كان يكثر وجوده في المكِّي بالنظر لمراعاة ظروف الاضطهاد والقسوة التي كانت تمر بها الدعوة، الأمر الذي اقتضى أن يواجه القرآن ذلك بالعنف والتقريع - أحياناً - لتقوية معنويات المسلمين من جانب وتحطيم معنويات المقاومة من جانب آخر، كما سوف نشير إليه قريباً. ومن هذا التقريع في السور المدنية قوله تعالى: ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ... ﴿١٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿١٧﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ ﴿١٨﴾^٥.

١. سورة الشورى: ٣٦ - ٤٣.

٢. سورة الحجر: ٨٧ - ٨٨.

٣. سورة الزمر: ٥٣.

٤. سورة الأنعام: ١٠٨.

٥. سورة البقرة: ٦ - ١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ مَنْ لَدَى اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^١.

وقوله تعالى: ﴿يَتَسَمَّاءُ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^٣.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^٤ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^٥.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَبَّةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^٦.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^٦.

ب) هذا الأسلوب يمتاز بقصر السور والآيات

وقالوا أيضاً: إنَّ من الملاحظ قصر السور والآيات في القسم المكي، على عكس القسم المدني الذي جاء بشيء من التفصيل والإسهاب. فنحن نجد أنَّ السور المكية جاءت قصيرة ومعروضة بشكل موجز في الوقت الذي نجد في القسم المدني سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها من

١ . سورة البقرة: ٦١ .

٢ . سورة البقرة: ٩٠ .

٣ . سورة البقرة: ١٥ .

٤ . سورة آل عمران: ٥٥ - ٥٦ .

٥ . سورة المائدة: ٦٠ .

٦ . سورة المائدة: ٦٤ .

السور الطوال. وهذا يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني وتأثرهما بالبيئة التي يعيشها محمد ﷺ، فإن مجتمع مكة لما كان مجتمعاً أمياً لم يكن بقدرته التبسط في شرح المفاهيم وتفصيلها، وإنما أتته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقفين المتحضر في يثرب.

وتناقش هذه الشبهة بالأمرين التاليين:

الأول: أن القصر والإيجاز ليس مختصاً بالقسم المكي، بل يوجد في القسم المدني سور قصيرة أيضاً، كالنصر والزلزلة والبينة وغيرها. كما أن الطول والتفصيل ليس مختصاً بالقسم المدني، بل يوجد في المكي أيضاً سور طويلة، كالأنعام والأعراف. وقد يقصد من اختصاص المكي بالقصر والإيجاز، أن هذا الشيء هو الغالب الشائع فيه. وقد يكون هذا صحيحاً ولكنه لا يدل بوجه من الوجوه على انقطاع الصلة بين القسمين المذكورين من القرآن الكريم؛ لأنه يكفي في تحقيق هذه الصلة أن يأتي القرآن الكريم ببعض السور الطويلة المفصلة في القسم المكي كدليل على القدرة والتمكن من الارتفاع إلى مستوى التفصيل في المفاهيم والموضوعات.

بالإضافة، إلى أن من الملاحظ وجود آيات مكية قد أثبتت في السور المدنية وبالعكس. وفي كل من الحالتين، نجد التلاحم والانسجام في السورة وكأنتها نزلت مرة واحدة، الأمر الذي يدل بوضوح على وجود الصلة التامة بين القسمين.

الثاني: أن الدراسات اللغوية التي قام بها العلماء المسلمون وغيرهم، دللت على أن الإيجاز يعتبر مظهراً من مظاهر القدرة الخارقة على التعبير، وهو بالتالي من مظاهر الإعجاز القرآني. خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار، أن القرآن قد تحدى العرب بأن يأتيوا بسورة من مثله، حيث يكون التحدي بالسورة القصيرة أروع وأبلغ منه حين يكون بسورة مفصلة.

(ج) لم يتناول في مادته التشريع والأحكام

وقالوا: إن القسم المكي لم يتناول فيما تناول من موضوعات جانب التشريع من أحكام وأنظمة، بينما تناول القسم المدني هذا الجانب من التفصيل. وهذا يعبر عن جانب آخر من التأثير بالبيئة والظروف الاجتماعية، حيث لم يكن مجتمع مكة مجتمعاً متحضراً، ولم يكن قد انفتح على معارف أهل الكتاب وتشريعاتهم، على خلاف مجتمع المدينة الذي تأثر إلى حد بعيد بالثقافة والمعرفة للأديان السماوية كاليهودية والنصرانية.

وتناقش هذه الشبهة بالأميرين التاليين أيضاً:
بالإضافة إلى أننا نجد في القسم المكّي وفي سورة الأنعام بالخصوص مناقشة لكثير من تشريعات أهل الكتاب والتزاماتهم، وهذا يدل على معرفة القرآن الكريم بهذه التشريعات وغيرها مسبقاً.

وثانياً: أن هذه الظاهرة يمكن أن تطرح في تفسيرها نظرية أخرى تنسجم مع الأساس الموضوعي لوجود الظاهرة القرآنية نفسها. وهذه النظرية هي أن يقال: إن الحديث عن التشريع في مكة كان شيئاً سابقاً لأوانه، حيث لم يتسلم الإسلام حينذاك زمام الحكم بعد. بينما الأمر في المدينة على العكس. فلم يتناول القسم المكّي التشريع؛ لأن ذلك لا يتفق مع المرحلة التي تمرّ بها الدعوة. وإنما تناول الجوانب الأخرى التي تنسجم مع الموقف العام، كما سوف نشرح ذلك قريباً.

(د) لم يتناول الأدلة والبراهين

وقالوا: إن القسم المكّي لم يتناول أيضاً الأدلة والبراهين على العقيدة وأصولها، على خلاف القسم المدني، وهذا تعبير آخر أيضاً عن تأثير القرآن بالظروف الاجتماعية والبيئية، إذ عجزت الظاهرة القرآنية بنظر هؤلاء عن تناول هذا الجانب الذي يدل على عمق النظر في الحقائق الكونية عندما كان يعيش محمد ﷺ في مكة مجتمع الأميين، بينما ارتفع مستوى القرآن في هذا الجانب عندما أخذ محمد ﷺ يعيش إلى جانب أهل الكتاب في المدينة، وذلك نتيجة لتأثره بهم ولتطور الظاهرة القرآنية نفسها.

وتناقش هذه الشبهة من وجهين:

الأول: أن القسم المكّي لم يخل من الأدلة والبراهين، بل تناولها في كثير من سورته، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة وفي مختلف المجالات. فمن موارد الاستدلال على التوحيد قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^١.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾. وبصدد الاستدلال على نبوة محمد ﷺ وأن ما جاء به من السماء: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾.

وبصدد الاستدلال على البعث والجزاء قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٨﴾ وَالتَّخْلُ بِاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿٩﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بُدْءَ مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١٠﴾﴾ ﴿١١﴾ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٢﴾. وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٣﴾. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِكُفْرَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

وهكذا تتناول الأدلة جوانب أخرى من العقيدة الإسلامية والمفاهيم العامة.

الثاني: أنه لو تنازلنا عن ذلك فمن الممكن تفسير هذا الفرق على أساس مراعاة طبيعة موقف المواجهة من الدعوة، حيث كانت تواجه الدعوة في مكة مشركي العرب وعبدة

١ . سورة الأنبياء: ٢٢ - ٢٤.

٢ . سورة العنكبوت: ٤٨ - ٥١.

٣ . سورة ق: ٩ - ١١.

٤ . سورة ق: ١٥.

٥ . سورة المؤمنون: ١١٥.

٦ . سورة الجاثية: ٢١ - ٢٢.

الأصنام، والأدلة التي كان يواجه القرآن بها هؤلاء أدلة وجدانية من الممكن أن تستوعبها مداركهم ويقتضيها وضوح بطلان العقيدة الوثنية، وحين اختلفت طبيعة الموقف وأصبحت الأفكار المواجهة تمتاز بكثير من التعقيد والتزييف والانحراف - كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب - اقتضى الموقف مواجهتها بأسلوب آخر من البرهان والدليل أكثر تعقيداً وتفصيلاً.

الفروق الحقيقية وتفسيرها

لم نجد في الشبهات التي تناولناها، ولا نجد في غيرها ما يمكنه أن يصمد أمام النقد العلمي أو الدرس الموضوعي. ومن كل ذلك يجدر بنا، أن تقدّم تفسيراً منطقياً لظاهرة الفرق بين القسم المكّي والقسم المدنيّ، وإن كنا قد ألمحنا إلى جانب من هذا التفسير عندما تناولنا الشبهات بالنقد والمناقشة.

ويحسن بنا أن نذكر الفروق الحقيقية التي امتاز بها المكّي عن المدنيّ، سواء ما يتعلق بالأسلوب أو بالموضوع الذي تناوله القرآن، ثم نفسّر هذه الفروق على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في صدر البحث والتي تقول: إنّ هذه الفروق كانت نتيجة لمراعاة ظروف الدعوة والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها؛ لأنّ الهدف والغاية يلقيان - في كثير من الأحيان - بظلالهما على طريقة العرض والمادة المعروضة. وتُلخّص هذه الفروق والخصائص التي يمتاز بها المكّي عن المدنيّ غالباً بالأمور التالية.

١ - إنّ المكّي عالج بشكل أساسي مبادئ الشرك والوثنية وأسسها النفسية والفكرية ومؤدّاها الأخلاقي والاجتماعي.

٢ - أكّد المكّي على ما في الكون من بدائع الخلقة وعجائب التكوين، الأمر الذي يشهد بوجود الخالق المدبّر لها. كما أكّد على عالم الغيب والبعث والجزاء والوحي والنبوّات، وشرح ما يرتبط بذلك من أدلة وبراهين، كما خاطب الوجدان الإنساني وما أودعه الله فيه من عقل وحكمة وشعور.

٣ - تحدّث المكّي عن الأخلاق، بمفاهيمها العامّة مع ملاحظة الجانب التطبيقي منها،

١ . اعتمدنا بصورة أساسية، في عرض الشبهات ومناقشتها على ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ١: ١٩٩-٢٣٢.

وحذر من الانحراف فيها كالكفر والعصيان والجهل والعدوان وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل أموال اليتامى... إلى غير ذلك.

وعرض إلى جانب ذلك الوجه الصحيح للأخلاق كالإيمان بالله والطاعة له والعلم والمحبة والرحمة والعفو والصبر والإخلاص واحترام الآخرين وِرّ الوالدين وإكرام الجار ونظافة اللسان والصدق في المعاملة والتوكل على الله وغير ذلك.

٤ - تحدّث المكي عن قصص الأنبياء والرسل والمواقف المختلفة التي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم وأممهم وما يستنبط من ذلك من العبر والمواعظ.

٥ - سلك المكي طريق الإيقاع الصوتي والإيجاز في الخطاب، سواء في الآيات أو السور.

ويكاد أن يكون المدني بخلاف ذلك على الغالب وإن كان قد امتاز بالأمرين التاليين:

١ - دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، مع مناقشتهم وبيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقّة التي أنزلت على أنبيائهم.

٢ - بيان التفصيلات في التشريع والنظام، ومعالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الإنساني.

٣ - تناول حركة النفاق في المجتمع الاسلامي وخلفياتها الأخلاقية والسياسية، وأهدافها وظواهرها والموقف السياسي منها.

التفسير يبقي الصحيح للفرق بين المكي والمدني

وحين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكي والمدني من خلال هذه الخصائص والميزات، نجد: **أولاً:** أنّ الدعوة الإسلامية بدأت في مكّة وعاشت فيها ثلاث عشرة سنة. وهذه الفترة المنسوبة إلى زمن نزول القرآن تعتبر في الحقيقة فترة إرساء أسس العقيدة الإسلامية بجوانبها المختلفة، سواء ما يتعلّق بالجانب الإلهي أو الغيبي أو الأخلاقي أو الاجتماعي، وسواء ما يتعلّق بالجانب الإيجابي كعرض مفاهيمها عن الحياة والأخلاق والمجتمع أو ما يتعلّق بالجانب السلبي كمناقشة الأفكار الكافرة التي كانت تسود المجتمع آنذاك.

وهذه الحقيقة تفرض - بطبيعة الحال - أن يكون القسم المكي أكثر شمولاً واتساعاً من جانب،

وأن يكون مرتبطاً بهادته وموضوعاته بالأسس والركائز للرسالة الجديدة من جانب آخر. وهذا هو الذي يفسر لنا غلبة المكي على المدني من الناحية الكمية، مع أن الفترة المدنية تبدو - تاريخياً - وكأثرها زاخرة بالأحداث الجسام والمجتمع المدني أكثر تعقيداً ومشاكل. كما أن هذا بنفسه - بالإضافة إلى الفكرة التي أشرنا إليها وهي مراعاة الظروف التي تسير بها الدعوة - يفسر لنا هذه الخصائص والميزات التي غلبت على المكي من جانب والمدني من جانب آخر.

فأما بالنسبة إلى الخصيصة الأولى، تلاحظ أن المجتمع المكي كان مجتمعاً يتسم بطابع الوثنية في الجانب العقيدي، بالإضافة إلى أن إيضاح الموقف تجاهها يشكل نقطة أساسية في القاعدة للرسالة الجديدة، لأنها تتبنى التوحيد الخالص كأساس لكل جوانبها وتفصيلاتها الأخرى. فكان من الطبيعي التأكيد على فكرة رفض الشرك والوثنية والدخول في مناقشة طويلة معها بشتى الأساليب والطرق.

وبالنسبة إلى الخصيصة الثانية، نلاحظ أن المجتمع المكي لم يكن يؤمن بفكرة الإله الواحد، كما لا يؤمن بعوالم الغيب والبعث والجزاء والوحي وغير ذلك. وهذه الأفكار من القواعد الأساسية للرسالة والعقيدة الإسلامية، بالإضافة إلى أن مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الأصول جميعاً، فكان من الضروري أن يؤكد القسم المكي على ذلك انسجاماً مع طبيعة المرحلة المكية التي تعتبر مرحلة متقدمة، كما أن بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثانية في غنى عن بيانها مرة أخرى. وبالنسبة إلى الخصيصة الثالثة، فلعل التأكيد على الأخلاق في القسم المكي دون المدني كان بسبب العوامل الثلاثة التالية:

(أ) إن الأخلاق تعتبر قاعدة النظام الاجتماعي، فالتأكيد عليها يعني في الحقيقة إرساء لقاعدة النظام الاجتماعي الذي يستهدفه القرآن.

(ب) كما أن الدعوة كانت بحاجة - من أجل نجاحها - إلى استثارة العواطف الإنسانية الخيرة، ليكون نفوذها في المجتمع وتأثيرها في الأفراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف. والأخلاق هي الأساس الحقيقي لكل هذه العواطف، وهي الرصيد الذي يمدّها بالحياة والنمو.

(ج) إن المجتمع المدني كان يمارس الأخلاق من خلال التطبيق الذي كان يباشره الرسول

محمد ﷺ بنفسه، فلم يكن بحاجة كبيرة إلى التأكيد على المفاهيم الأخلاقية، على العكس من المجتمع المكي الذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد، وكان يمارس فيه تطبيق الأخلاق الجاهلية.

وبالنسبة إلى الخنصية الرابعة، نجد القصص تتناول من حيث الموضوع أكثر النواحي التي عالجها القرآن الكريم من العقيدة بالإله الواحد وعالم الغيب والوحي والأخلاق والبعث والجزاء. بالإضافة إلى أنها تصوّر المراحل المتعددة للدعوة والمواقف المختلفة منها، والقوانين الاجتماعية التي تتحكّم فيها وفي نتائجها والمصير الذي يواجهه أعداؤها وإلى جانب ذلك، تعتبر القصة في القرآن أحد أسباب الإعجاز فيه وأحد الأدلة على ارتباطه بالسماء. وكلّ هذه الأمور لها صلة وثيقة بالظروف التي كانت تمرّ بها الدعوة في مكّة، ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدعوة وأهدافها الرئيسية.

ومع كلّ هذا، لم يهمل القسم المدنيّ القصّة مطلقاً، بل تناوّلها بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة المرحلة التي تمرّ بها.

وبالنسبة إلى الخنصية الخامسة، فقد كان لها ارتباط وثيق بجوانب مرحليّة وإعجازية؛ لأنّ المرحلة كانت تفرض كسر طوق الأفكار الجاهليّة الذي كان مضرّوباً على المجتمع، فكان لهذا الأسلوب الصاعق الحادّ تأثير فعّال في تذليل الصعوبات وتحطيم معنويّات المقاومة العنيفة. وحين يتحدّى القرآن الكريم العرب في أن يأتوا بسورة منه، يكون الإيجاز في السورة أبلغ في إيضاح الإعجاز القرآني وأعظم تأثيراً وأبعد مدى.

وقد كانت المعركة إلى ذلك كلّها في أوّلها معركة شعارات وتوطيد مفاهيم عامة عن الكون والحياة. والإيجاز والقصر ينسجم مع واقع المعركة وإطارها أكثر من الدخول في تفصيلات واسعة. ولهذا نشاهد السور القصيرة تمثّل المرحلة الأولى تقريباً من مراحل القسم المكيّ.

وهذه الملاحظات لم تكن تتوفّر في المدينة، بعد أن أصبح الإسلام هو الحاكم المسيطر على المجتمع، وبعد أن أصبحت مسألة الوحي والاتصال بالسماء مسألة واضحة، وبعد أن جاء دور آخر للمعركة يفرض أسلوباً آخر في العرض والبيان.

ومن هذا الدرس لخصائص ومميّزات القسم المكيّ تتضح مبررات خصائص القسم المدنيّ من

الدخول في تفصيلات الأحكام الشرعية والأنظمة الاجتماعية أو مناقشة أهل الكتاب في عقائدهم وانحرافاتهم؛ حيث فرضت ظروف الحكم في المدينة، والحاجة إلى تنظيم العلاقات بين الناس بيان هذه التفصيلات في الأنظمة. كما أنّ المعركة في المدينة انتقلت من الأصول والأسس العامة للعقيدة إلى جوانب تفصيلية منها ترتبط بحدودها وأشكالها، وبالعامل على تقويم الانحراف الذي وضعه أهل الكتاب فيها. وبهذا نفّس الفرق بين المكي والمدني بالشكل الذي ينسجم مع فكرتنا عن الوحي وفكرتنا عن مراعاة القرآن للظروف من أجل تحقيق أهدافه وغاياته.

بعض الملاحظات التكميلية

إلى هنا عرضنا ما كتبه السيد الاستاذ الشهيد آية الله الصدر ولدينا بعض الملاحظات التكميلية. **الأولى:** ذكر الاستاذ بعض الخصائص التي يتميز بها كل من القسمين: المكي والمدني، وأكد أنها مقاييس لا يمكن اعتمادها إلا إذا اردت إلى العلم، وهو أمر صحيح تماماً ولكن بعض العلماء ذكروا ضوابط وعلامات يمكنها أن توجب التأكد من تحقق احدي الصفتين وهي من قبيل القواعد التالية:

- ١- كل سورة جاء فيها لفظ (كلا) فهي مكية.
- ٢- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية.
- ٣- كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية. سوى سورة البقرة وآل عمران فانها مدينتان بالإجماع. وفي الرعى خلاف.
- ٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.
- ٥- كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية، ولكن يشكل على هذه القاعدة بسورة الحج وبعض الآيات الأخرى التي ذكر أنها مدنية رغم ورود يا أيها الناس فيها.
- ٦- كل سورة من المفصل فهي مكية وأورد على هذه القاعدة أن بعض المدني مفصل أيضاً كسورة النص فهي مدنية. والمفصل هو السور الأخيرة في القرآن الكريم بدءاً من سورة الحجرات، سميت بذلك لكثرة الفصل في سورها.
- ٧- كل سورة فيها حدود وفرائض فهي مدنية.
- ٨- كل سورة فيها اذن بالجهاد وبيان لاحكامه فهي مدنية.

٩- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية^١.

والحق: أن هذه القواعد إما أن تكون مستمدة من الاستقراء أو مما تحقق عليه الإجماع أو دلت القرائن والروايات على نوعه فهي ضوابط مسبقة بما دل الدليل عليه. ومع ذلك فإنها ضوابط ترجيحية مفيدة لكنها كما قال السيد الشهيد لا يمكن الاستناد إليها إلا إذا أوجدت العلم.

الثانية: اعترض بعض العلماء على اشتغال السور المكية على آيات مدنية وبالعكس وإن ذلك يستدعي تعليق صفة الآية لسنين حتى تنزل السورة المناسبة، بالإضافة إلى أن هذا الوصف اجتهادي لم يثبت بالعلم أو العلمي وذكروا مثلاً لذلك سورة الرعد لورود الآية الكريمة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^٢ وقد نزلت في عبدالله بن سلام الذي أسلم بعد الهجرة. وقد اعترض على ذلك بأنه قد يكون المقصود غيره^٣.

ونقل عن تفسير الدر المشهور أن سعيد بن جبير أنكر نزولها فيه^٤.

وقد روي في الكافي وغيره أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام أو الإمام علي عليه السلام^٥.

ونرى أنه رأي وجيه ولكن لا مانع من أن بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن توضع آية مكية في سورة مدنية وبالعكس ولكن كل هذا يعتمد على صحة الرواية وحجيتها.

الثالثة: إن أكثر المصاحف تعتمد على الرواية الواردة عن ابن عباس وقد رواها السيوطي في (الإتقان)^٦ ورواها غيره كالطبرسي في مجمع البيان^٧ وابن النديم في الفهرست^٨ وهي رواية جامعة ونصها كما يلي:

روى السيوطي في الإتقان عن فضائل القرآن لابن الضريس بسند ذكره عن ابن عباس

١. مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١٨٩-١٩١.

٢. الرعد: ٤٣.

٣. بحوث في تاريخ القرآن وعلومه للسيد المحمدي الزرندي ص ٢٩٦ وكذلك الشيخ عبدالعالي الصعدي في رسالة الإسلام السنة ١٢ الصفحة ٣٦١.

٤. ج ٤، ص ٦٩.

٥. الكافي ١: ٢٢٩، الأمالي للصدوق: ٦٥٩، جامع البيان للطبري ١٣: ٢٣٦، تفسير البغوي ٣: ٢٥، شواهد التنزيل ١: ٤٠٠.

٦. ج ١ ص ١١.

٧. ج ١٠ ص ٤٠٥.

٨. ص ٤٥.

قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن «اقرأ باسم ربك» ثم «ن» ثم «يا أيها المزمل» ثم «يا أيها المدثر» ثم «تبت يدا أبي لهب» ثم «إذا الشمس كورت» ثم «سبح اسم ربك الأعلى» ثم «والليل إذا يغشى» ثم «والفجر» ثم «والضحى» ثم «ألم نشرح» ثم «والعصر» ثم «والعاديات» ثم «إننا أعطيناك» ثم «ألهاكم التكاثر» ثم «أرأيت الذي يكذب» ثم «قل يا أيها الكافرون» ثم «ألم تر كيف فعل ربك» ثم «قل أعوذ برب الفلق» ثم «قل أعوذ برب الناس» ثم «قل هو الله أحد» ثم «والنجم» ثم «عبس» ثم «إننا أنزلناه في ليلة القدر» ثم «والشمس وضحاها» ثم «والسماوات ذات البروج» ثم «والتين» ثم «لإيلاف قريش» ثم «القارعة» ثم «لا أقسم بيوم القيامة» ثم «ويل لكل همزة» ثم «والمرسلات» ثم «ق» ثم «لا أقسم بهذا البلد» ثم «والسماوات والطارق» ثم «اقتربت الساعة» ثم «ص» ثم «الأعراف» ثم «قل أوحى» ثم «يس» ثم «الفرقان» ثم «الملائكة» ثم «كهيعص» ثم «طه» ثم «الواقعة» ثم «طسم الشعراء» ثم «طس» ثم «القصص» ثم «بنو إسرائيل» ثم «يونس» ثم «هود» ثم «يوسف» ثم «الحجر» ثم «الأنعام» ثم «الصفات» ثم «لقمان» ثم «سبأ» ثم «الزمر» ثم «حم» ثم «المؤمن» ثم «حم السجدة» ثم «حم عسق» ثم «حم الزخرف» ثم «الدخان» ثم «الجاثية» ثم «الأحقاف» ثم «الذاريات» ثم «الغاشية» ثم «الكهف» ثم «النحل» ثم «إننا أرسلنا نوحاً» ثم «سورة إبراهيم» ثم «الأنبياء» ثم «المؤمنون» ثم «تنزيل السجدة» ثم «الطور» ثم «تبارك الملك» ثم «الحاقة» ثم «سأل» ثم «عم يتساءلون» ثم «النازعات» ثم «إذا السماء انفطرت» ثم «إذا السماء انشقت» ثم «الروم» ثم «العنكبوت» ثم «ويل للمطففين». فهذا ما أزل الله بمكة.

ثم أنزل بالمدينة «سورة البقرة» ثم «الأنفال» ثم «آل عمران» ثم «الأحزاب» ثم «الممتحنة» ثم «النساء» ثم «إذا زلزلت» ثم «الحديد» ثم «القتال» ثم «الرعد» ثم «الرحمن» ثم «الإنسان» ثم «الطلاق» ثم «لم يكن» ثم «الحشر» ثم «إذا جاء نصر الله» ثم «النور» ثم «الحج» ثم «المنافقون» ثم «المجادلة» ثم «الحجرات» ثم «التحريم» ثم «الجمعة» ثم «التغابن» ثم «الصف» ثم «الفتح» ثم «المائدة» ثم «براءة»^١.

الفصل الرابع:

حكمة وجود المتشابه في القرآن الكريم

يصرح القرآن الكريم في الآية السابعة من سورة آل عمران بوجود آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

وقد اختلف المفسرون في المراد من المحكم والمتشابه، وترددت نظرياتهم بين كون التشابه قائماً على أساس علاقة اللفظ بالمعنى ومدى دلالاته وظهوره فيه، وكونه، أي التشابه، في مجال تطبيق المعنى المفهوم على مصاديقه وتجسيده الخارجية.

فالتشابه: هو ما حصل تردد في دلالاته على المعنى المراد - على رأي - أو ما حصل معه التردد في افراد المعنى الذي يدل عليه - والمحكم ما يقابله^١.

ولسنا نريد هنا الدخول في مجال عرض الاتجاهات الرئيسة في هذا المجال وترجيح أحدها على الآخر، وإنما نقصد أن نعرض إلى مبررات احتواء القرآن الكريم على آيات وألفاظ متشابهة يحصل التردد في فهم دلالاتها أو تطبيقاتها، وهل يتنافى ذلك مع كونه كتاب الهداية العامة للبشرية؟

١ . للمزيد في هذا الباب انظر: الاتقان في علوم القرآن ج ٢، ٥ - ١٣، القرآن في الإسلام للعلامة الطباطبائي: ٣٣ - ٣٩،

تلخيص التمهيد ١: ٤٦٢ - ٤٧٧.

وسنحاول فيما يلي التعرض إلى ما قيل في هذا المجال وتوضيحه أولاً، ثم نحاول التعقيب على ما ذكر إما بالرد أو بالتكميل.

الآراء في هذا المجال:

نستطيع أن نحصر أهم ما قيل في توضيح الحكمة من مجيء كل الآيات المتشابهة أو بعضها في نقاط كما يلي:

١- الامتحان والتربية على الاستسلام والخضوع:

فقد ذكر الشيخ محمد عبده: «إن الله سبحانه أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولا من البلداء لما كان في الإيمان به شيء من معنى الخضوع لما أنزل الله تعالى والتسليم لما جاءت به رسله»^١. ويؤكد هذا بالالتفات إلى ما قالته الآية: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾^٢ علي خلاف ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾^٣. وقد أكد هذا الرأي صاحب «مناهل العرفان» فقال في مجال تعداد حكم بعض أنواع المتشابه: «ثانيها الابتلاء والاختبار أي من البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا وان لم يعرفوا على التعيين والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به وهو الحق من ربهم، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة»^٤. ونقل عن السيوطي عن بعضهم انه ذكر فوائد للمتشابه الذي استأثر الله بعلمه ومنها: «ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم...»^٥.

ثم قال: ورابعها إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته مهما عظم استعداده وغزر عمله،

١. تفسير المنار ٣: ١٧٠.

٢. آل عمران: ٧.

٣. آل عمران: ٧.

٤. مناهل العرفان ٢: ١٧٨.

٥. نفس المصدر: ١٩٣.

وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وانه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً، وان الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهناك يخضع العبد ويخشع ويطامن من كبرياته ويخضع^١.
ومما لا ريب فيه، أن الامتحان والابتلاء يشكل نوعاً أساسياً من أنواع تربية الإنسان المسلم على أن يتحلى بالصفات التي يريد الله أن تتقوم شخصيته بها، وأهم هذه الصفات بل الملكات المتأصلة صفة التبعد والاستسلام لله تعالى في كل شيء يثبت أنه منه تعالى، عرف الحكمة فيه أم لم يعرف، وقد وضع الإسلام لغرس هذه الملكة في أعماق المسلم برنامجاً واسعاً وأساليب مختلفة يمكن أن يذكر منها ما نحن بصدده، كما يمكن أن يذكر منها أسلوب عرض قصص المستسلمين الأطهار (كإبراهيم وإسماعيل) وكذلك القصص التي تحكي عن الحكمة الإلهية الواسعة التي هي فوق ما يتصور الإنسان الحبيس في سجن ضعفه وإمكانه، حتى ولو كان ذلك الإنسان موسى عليه السلام.
ومنها نظام العبادات إلى غير ذلك مما ليس هنا محل ذكره.

وعليه فيقف الممتحن أمام هذه الآيات المتشابهة موقفين تبعاً لمسبقاته وتصوراته واستسلامه، فأما الاعتراض واتباع الرأي ابتغاء للفتنة، وأما الاستسلام لله تعالى وإرجاع الأمر إليه.

٢- الدفع نحو التعمق والتوسع الفكري:

وقد ذكر عبده أيضاً أن وجود المتشابه «كان حافزاً للعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيموت، فإن السهل الجلي جداً لا عمل للعقل فيه، والعقل أعزُّ القوى الإنسانية التي يجب تربيتها، والدين أعزُّ شيء على الإنسان، فإذا لم يجد العقل مجالاً للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه، وإذا مات فيه لا يكون حياً بغيره»^٢.

وذكر العلامة الطبرسي ذلك باختصار حيث قال: «فإن قيل: لم أنزل الله تعالى القرآن المتشابه وهلاً جعله كله محكماً؟ فالجواب: إنه لو جعل جميعه محكماً لاتكل الناس كلهم على الخبر واستغنوا عن النظر...»^٣.

١. نفس المصدر: ١٧٩.

٢. تفسير المنارج ٣ ص ١٧٠، ومجلة الهادي، السنة الخامسة، العدد ٣: ٣٣.

٣. مجمع البيان ٢: ٤١٠.

كما أنَّ الفخر الرازي ذكر ما يقرب من هذا المعنى حيث قال في هذا الصدد: «كما كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وأصول الفقه»^١. ويقول: «أنَّ القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد»^٢ وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كَلِّه محكماً لما احتاج إلى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملاً....

واخذ هذا المعنى الشيخ صبحي الصالح فقال: «لعل اشتهال القرآن على المتشابه وعدم اقتصاره على المحكم وحده، أن يكون حافظاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تعودهم على فهم الآيات المتشابهات فيتخلصون من ظلمة التقليد، ويقرأون القرآن متدبرين خاشعين»^٣.

ولربما عبّر عن هذا المعنى بلسان آخر، وهو حصول الثواب بإعمال النظر في القرآن الكريم، وهو ما قاله المرحوم الطبرسي من أنه: «لو لا وجود المتشابه لكان لا يحصل لهم ثواب النظر وإتباع الخواطر في استنباط المعاني»^٤.

وقال الفخر الرازي أيضاً: «متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب»^٥.

كما انه قد يعبر عنه بلسان آخر هو: «لسان ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات العلمية». وهذا ما جاء في المجمع حيث يقول: «ولكان لا يتبين فضل العلماء على غيرهم»^٦. ونقل السيوطي عن البعض قوله: «ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان كَلِّه محكماً لا يحتاج إلى تأويل ونظر، لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره»^٧.

١ . تفسير الرازي ٧: ١٨٤.

٢ . المصدر السابق.

٣ . مباحث في علوم القرآن: ٢٨٦.

٤ . مجمع البيان ٣: ٤١٠.

٥ . تفسير الرازي ٧: ١٨٤.

٦ . مجمع البيان ٣: ٤١٠.

٧ . الاتقان ٢: ٣٠.

ويرى السيد باقر الحكيم أنَّ نوعاً من المتشابه، وهو الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، إنما ورد في القرآن الكريم بهذا الأسلوب ليطرح أمام العقل بعض المسائل الكونية وغيرها لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة!!^١. هذا، ومما لا ريب فيه، فإنَّ القرآن الكريم أوجد بنزوله مرحلة فكرية جديدة، ونقل المجتمع من حضيض التفكير الجامد الضيق إلى سمو فكري متفتح ونضج بلغ في مراحل التالية إلى مستوى فلسفي لا تصله أية فلسفة ومستوى علمي جوال قاد العالم خلال قرون ومستويات فكرية تشريعية وأخلاقية ما رأى الكون لها مثيلاً.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: «إنَّ القرآن كان من أهم العوامل التي دفعت المسلمين إلى التفلسف، ثم بيان ما اشتمل عليه من فلسفة، سواء ما يتعلق منها بالإنسان وما يتعلق وصلته جل وعلا بالإنسان، ومن الحق أنَّ القرآن قبل كل شيء هو كتاب العقيدة الحقة، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان والأخلاق التي لا يقوم مجتمع سليم إلا بها»^٢.

ويقول الإمام الخوئي: «لأنه الكتاب الذي يضمن إصلاح البشر ويتكفل بسعادتهم وإسعادهم، والقرآن مرجع اللغوي ودليل النحوي، وحجة الفقيه، ومثل الأديب، وضالة الحكيم، ومرشد الواعظ، وهدف الخلق، وعنه تؤخذ علوم الاجتماع والسياسة المدنية، وعليه تؤسس علوم الدين، ومن إرشاداته تكتشف أسرار الكون، ونواميس التكوين...»^٣.
ويقول الأستاذ المطهري: «إنَّ الفلاسفة المسلمين استطاعوا بإلهام من القرآن الكريم وكلمات الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار: أن يوجدوا مدرسة فلسفية تعتمد الاستدلال المنطقي المتقن»^٤.

ولعل من أهم عوامل الدفع نحو الفلسفة بالخصوص والتوسع الفكري على العموم وجود هذه الآيات المتشابهة على اختلاف أصعدتها الفلسفية والعلمية والاجتماعية، والتي تدفع المسلم المتأمل في القرآن بحكم تطلُّعه إلى فهم معناها، وتدفعه لذلك التوسع.

١. علوم القرآن: ١٩٠.

٢. القرآن والفلسفة: ٥.

٣. البيان في تفسير القرآن: ٣.

٤. علل الانحراف نحو المادية: ١٦٧ طبع مشهد انتشارات طوس.

٣- تقريب الأمور العميقة إلى الإفهام:

ويتوضح ملخص ما ذكره العلامة الطباطبائي في هذه الحكمة بمتابعة الخطوات التالية:
أولاً: أن الارتباط بالله تعالى والمعاد وما إلى ذلك من تفصيلات العالم الغيبي أمر ضروري للإنسان، بل هو روح التصور الإسلامي عن الواقع... وهذا يستدعي أن يعرف المسلمون القدر الضروري عن نوعية هذه العلاقة.

ثانياً: أن الإنسان حبيس ضعفه وتصوراته الخاصة الحسية والعقلية التي توفرت له خلال حياته... ومختلف مراتب الناس على ضوء كمية التصورات التي لديهم.

ثالثاً: وعلى ضوء مما سبق، ولأجل الكشف عن القدر الضروري لنوعية العلاقة الآتفة لجميع الإنسانية، فقد أتبع القرآن أسلوب التمثيل والتشبيه ليقرب تلك المعاني العالية إلى الأذهان، فيقرب الأمر المعنوي المجرد إلى الأذهان المختلفة عبر ذلك التمثيل بحقائق حسية.
رابعاً: من الواضح أن الممثل قد لا يتوافق مع الممثل به في مختلف الجوانب والخصائص خصوصاً وهما من عالمين مختلفي القوانين والاحكام (عالم المجردات وعالم الماديات).

وعدم التوافق هذا قد يجبر إلى محذورين يخالفان الغرض الأساسي لهذا التمثيل وهو الهداية القرآنية:
أ- نقل الخصائص الحسية للممثل به إلى الممثل، وهذا يعني تغير الحقيقة وانقلاب الغرض.
ب- وقد يلتفت الإنسان إلى الفرق بين الممثل والممثل به، فيبدأ بعملية تجريد الممثل به من الخصوصيات مما قد يؤثر في تشويه الصورة المطلوب إعطاؤها بزيادة أو نقصان.

خامساً: وتخلصاً من هذه المحاذير، يلجأ القرآن إلى توزيع المعاني التي يريد إعطاؤها إلى أمثال مختلفة وإعطاؤها صيغاً مختلفة حتى يفسر بعضها بعضاً ويتهي الأمر إلى تصفية عامة تنتج ما يلي:
أ- إدراك القارئ للقرآن أن هذه الصور هي مجرد أمثال لا تعبر عن كل الحقيقة ولا تكسب الواقع العيني كل خصائصها.

ب- بجمع هذه الأمثال إلى بعضها ينفي بكل واحد منها الخصوصيات الحسية الموجودة في المثال الآخر.

وبذلك تتحقق الهداية القرآنية العامة ويتخلص من نقائص هذا الأسلوب الذي لا مفر منه^١.

وقد عبر ابن اللبان في كتابه «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات» عن رأي أخص من هذا، فقال بتلخيص من صاحب المناهل:

ليس في الوجود فاعل إلا الله، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا معين، فهي في الحقيقة فعله وله بها عليهم الحجة ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^١.

ومن المعلوم، أن أفعال العباد لا بدَّ فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى، وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين: مظهراً عبادياً منسوباً إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لإفهامهم والتأنيس لقلوبهم ولقد نبّه تعالى على القسمين، وأنه منزه عن الجوارح في الحالين. فنبّه على الأول بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^٢، فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى، ونبّه على الثاني بقوله فيما اخبر عنه نبيه ﷺ: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»^٣ وقد حَقَّقَ اللهُ ذلك لنبيه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^٤. وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^٥ وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوباً إليه تعالى فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيهه ولا تجسيم. ولكن الغرض من ذلك التقريب للافهام والتأنيس للقلوب...»^٦.

٤- إعطاء الكل والتركيز على البعض:

ذكر الفخر الرازي رأياً يقرب من الرأي السابق فقال: إنَّ القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من

١ . سورة الأنبياء: ٢٣.

٢ . سورة التوبة: ١٤.

٣ . صحيح البخاري ٧: ١٩٠، عوالي اللآلي ٤: ١٠٣، الإمام الخميني (الأربعون حديثاً).

٤ . سورة الفتح: ١٠.

٥ . سورة الأنفال: ١٧.

٦ . مناهل العرفان ٢: ١٩٣ - ١٩٤.

العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ظنَّ أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول: وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر من باب المتشابه.

والقسم الثاني: وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم.

وعبر عنه الشيخ عبده بتعبير آخر فقال: «إن الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وهناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، وإنما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده»^١.

ويعلق السيد باقر الحكيم على هذا النص بعد رد اشكال العلامة عليه فيقول: «إذا عرفنا دور المحكم والمتشابه أمكننا أن نتصور بسهولة، أن بعض المعاني لا يدركها إلا الراسخون في العلم دون العامة، خصوصاً المعاني التي تربط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية كجريان الشمس ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾^٢ أو تلقيح الرياح اللواقح أو جعل الماء مصدراً للحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^٣ فإن كل هذه المعلومات حين تتكشف لدى العلماء تكون من المعلومات التي أشار إليها القرآن الكريم ويعرفها الخاصة دون غيرهم»^٤.
ومما يؤكد، أن الراغب الأصفهاني في مفرداته ذكر أن من المتشابه ما «يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه بقوله في علي رضي الله عنه: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^٥.

فتكون بعض الآيات متوجهة إلى القادة الفكريين بالخصوص؛ على أساس أنهم سيعرفون

١. تفسير المنار ٣: ١٧٠-١٧١.

٢. سورة يس: ٣٨.

٣. سورة الأنبياء: ٣٠.

٤. رسالة الإسلام العددان ٥، ٦ السنة الثانية صفحة ٢٨.

٥. مفردات غريب القرآن: ٢٥٥.

الواقع المراد بالتفصيل للأمة ككل.

ولعله إلى مثل هذا الرأي، يشير الزرقاني فيقول في مجال تعداد الحكم من وجود المتشابه: «أولها» رحمة الله بهذا الإنسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، وإذا كان الجبل حين تجلي له ربه جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل، أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم، ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بجموحه من أعمارهم»^١.

وواضح أنّ هذا النص غير دقيق في تعبيره، وإلاّ فلا معنى لتصور إمكان تجلي الله تعالى بذاته وحقائق صفاته وإثما يقصد أن النفس والتصور الإنساني يكُلُّ غالباً عن تصور أقصى ما يمكن تصويره في الساحة الإلهية.

كما أنّ من الواضح أنّه يجمع إلى صف هذه الحكمة «حكمة إعطاء الناس على قدر إمكاناتهم» حكمة بث الأمن والأمل بإخفاء بعض الأمور عنهم جامعاً الحكمتين تحت عنوان رحمة الله بالإنسانية.

٥- تحقيق بعض جوانب الإعجاز:

إن في هذا التشابه بعض ضروب الإعجاز، ففيه الإعجاز البلاغي حيث يقول الزرقاني: «لأنّ كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي إلى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان، ولو أخذنا في شرح هذا لضاق بنا المقام، وخرجنا جملة من هذا الميدان، إلى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواطر وأسرار، للإيجاز والإطناب والمساواة...»^٢.

وفيه الإعجاز العلمي حيث تنكشف على الزمن حقيقة ما رمى إليه القرآن من الآيات التي تشكّل نوعاً متشابهاً لدى من لم يكونوا مطلعين على حقيقتها، في حين يكشف العلم عن الواقع بعد قرون مما يؤكّد النسب السماوي للقرآن. وكذا يمكن إدخال بعض الآيات المخبرة بالغييب.

١. مناهل العرفان ٣: ١٧٨.

٢. مناهل العرفان ٢: ١٨٠.

٦- القرآن دستور يحوي بعض الاجمال ولا يمكن التفصيل فيه:

ويقصد بهذا: إنَّ القرآن لو أراد أن يبين كلَّ جوانب الحقيقة ويعين المصاديق الصحيحة وينفي الباطل منها لكان ذلك يستدعي مجلدات ضخمة، ولم يكن من الممكن إنزاله على ذلك النمط. ويتوضح هذا عند ملاحظة قصر فترة حياة الرسول ﷺ وانشغاله بالمشاكل الهائلة، وعدم قدرة المسلمين على استيعاب تلك المجلدات الضخمة، وحفظها من الضياع وأمثاله. ولهذا يشير الزرقاني - بنوع من الاجمال - فيقول:

«ثانيها: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأنَّ كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دالٌّ على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام، ولو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ، لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^٢.

٧- التعبير العام الذي لا ينفر المذاهب عنه

ويقول الفخر الرازي في تقريب هذا الوجه إنَّه لو كان - أي القرآن - كله محكماً بالكلية، لما كان مطابقاً إلا للمذهب واحد، وكان بصريجه مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة، وذلك منقراً لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه، أمّا وجود التشابه والمحكم فيطمع فيه كل مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه، فيضطر إلى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل من باطله إذا أمعن فيه النظر فيصل إلى الحق^٣.

ملاحظات حول الوجوه السابقة

الملاحظة الأولى: يلزمنا أن نلاحظ هذه الوجوه كلها أو أكثرها - لو تمت في نفسها - ونعتبرها ردّاً على سؤال: لم ورد التشابه في القرآن الكريم؟

١. سورة الكهف: ١٠٩.

٢. مناهل العرفان ٢: ١٨٠.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٨٤.

وذلك لأن البعض منها إنّما يصح في بعض الآيات المتشابهة دون غيرها، وقد التفت إلى هذه النقطة بعض الباحثين.

الملاحظة الثانية: أنّ بعض الوجوه السابقة لا يمكن المساعدة عليه، وخصوصاً الوجه الأخير، فإنّ القرآن هو الفارق بين الحق والباطل وهو المقياس الحق ولا يمكن لهذا المقياس أن يكون عاماً مضملاً يمكن كلاً من تصحيح مذهبه والتمسك به ضد الآخرين. وكذا بالنسبة للوجه الخامس في قسمه البلاغي، فإنّ البلاغة تركّز أول ما تركز على إيصال المعنى بالدقة وبإطار لفظي جميل إلى السامع، أما الإبهام والتشابه فقد يتنافى والغرض البلاغي، اللهم إلا إذا كان هناك غرض آخر يستدعيه... فلا يمكن أن يكون التشابه معللاً بأنه ضرب من ضروب البلاغة أو ناتج لها.

الملاحظة الثالثة: إنّ أكثر ما ورد من وجوه، قد تعتبر تبريرات لما وقع، ولذا فإنّ روح المسألة تتركز في الحكم الثلاث (الثالثة، والرابعة، والسادسة) والتي يمكن جمعها تحت عنوان: (عدم إمكان خلو القرآن من التشابه) وذلك بعد ملاحظة دور القرآن كموضح لأعمق الحقائق، وكدستور عام، وكهاد يمنح كلاً بمقدار ما يستطيع تقبله. هذا هو روح الجواب وما ذكر من وجوه أخرى فهي ترتبط به وتدور حوله.

الملاحظة الرابعة: أنّ أهم اشكال يمكن أن يورد على وجود المتشابه يتلخص في تعبيرين: **الأول:** أنّ القرآن الكريم، هدى، ونور، وذكر، وفرقان، وحكيم، وما شابه ذلك، في حين أنّ التشابه لا ينسجم مع هذه الصفات؛ لأنه يوقع الإنسان في حيرة من معرفة الحقيقة، وربما كان بعض ما فيه لا يمكن معرفته مطلقاً.

الثاني: ما ذكره الفخر الرازي، من أنّ وجود المتشابه في القرآن كان سبباً لاختلاف المذاهب والآراء وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع مذهبه^١، ونضيف على هذا فنقول:

إن بعض الآيات التي يشير إليها المستشكلون قد تجعل - بل جعلت - ذريعة للتمسك

بعقائد تتناقض تمام التناقض مع العقيدة الإلهية، بل تقضي عليها من الأساس، وهذا يعني نقض الغرض الذي جاءت من أجله الرسالة... وهذا من مثل عقيدة التجسيم التي تساوق تقديم صورة هزيلة عن الله تعالى مما ينتهي الأمر إلى إنكاره في الواقع، وكذا من مثل عقيدة الجبر التي تنفي المسؤولية الأخلاقية وتوجد مشاكل كبرى، وعقيدة نفي العصمة عن الأنبياء التي تنتهي إلى التشكيك في أقوالهم وغير ذلك.

وعليه، فإنّ هذا الاشكال - بهذين التعبيرين - لا يمكن أن يدفع بهذه الوجوه التي مهما تصاعدت قيمتها فإنّها قد لا تعادل هذا الخسران الأساسي الكبير الذي يجزّ الأُمة إلى الضياع والتمزق، ويقضي على العقيدة ويفقد القرآن - والعياذ بالله - صفته الهادية، أو أن يقال بتعادل الربح والخسران.

وهذا يدعوننا لأن نتطلب وجود ما يعصم الأُمة من التفرّق والتمزق والعقيدة من الانقلاب على أهدافها فما هو هذا المرجع الذي يجب الرجوع إليه؟
ما يبدو من الآية والروايات الشريفة أمران هما:

أ - الآيات المحكمات: ويفهم الإرجاع إليها من جعلها أمّاً للكتاب، والأُمية لاريب تعني المرجعية، فهي التي تنفي إدخال صور باطلة في تصور الإنسان عن الآية أو إدخال مصاديق باطلة للمفهوم منها، ويحتاج هذا إلى رسوخ علمي في نفسه... ويبقى مجال كبير للتشابه خصوصاً لأولئك الذين في قلوبهم مرض ليغروا به الآخرين.

ب - الراسخون في العلم: وهم المرجع الثاني والأكثر عمومية لحل التشابه، فهم الذين يفسرون الدستور الإلهي ويعطون تفصيلاً له، ولهم يرجع في التفريق بين الحق والباطل، فهم محور وحدة الأُمة وملجأ العلم ومنتهى السبل، ولكن من هم هؤلاء الراسخون في العلم؟

إنّ الروايات المتواترة معنى عن النبي ﷺ تركّز بصورة عامة على مرجعية النبي ﷺ وأهل البيت  للأُمة في كل ما يبدو لها من غموض في كل شيء، ومن جوانب الغموض هذا التشابه الذي يلاحظ في بعض الآيات القرآنية، وأهم هذه الأحاديث حديث الثقلين الذي سلّمت به الفرق الإسلامية، والذي أكّد على اقتران العترة بالكتاب وعلى لزوم التمسك بهما معاً، وأنّ الرجوع إليهما معاً عاصم من الضلال، وأنّها لن يفترقا إلى يوم القيامة، وهكذا

الأحاديث النبوية المختلفة في علم الإمام عليه السلام مثل حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وقد أكد أهل البيت عليهم السلام على مرجعيتهم في كل الأمور فهذا نهج البلاغة يصفهم بانهم: «موضع سر النبي، ولجأة أمره، وأئمة أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، وهم أئمة الحق، وأعلام الدين وألسنة الصدق، وهم كمثل نجوم السماء إذا حوى نجم طلع نجم، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم وعندهم أبواب الحكم وضيء الأمر، وإن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا، وهم عيش العلم وموت الجهل وإن بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه»^١.

ويقول الإمام في نص رائع يعين المرجع في الشبهة: «فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجر، والبارئ من ذي السقم، واعلموا انكم لن تعرفوا الحق حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم وموت الجهل. هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصحتهم عن منطقتهم وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق»^٢.

وجاءت روايات أهل البيت عليهم السلام لتؤكد هذا المعنى، فهناك أبواب عديدة في أهم المصادر الشيعية ومنها الكافي في أن الأرض لا تخلو من حجة وهم الحجة، وأئمة شهداء الله عز وجل على خلقه وأئمة الهداة، وأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه، ونور الله، وأئمة وراث الكتاب، وأئمة يعلمون علمه كله، إلى غير ذلك من الأوصاف العظمية التي ذكروها لنا للإمام عليه السلام وهم الصادقون المصدقون. ويزداد التركيز على مرجعيتهم عليهم السلام، لذلك عندما تأتي الأحاديث المصرحة بأئمة هم الراسخون في العلم دون غيرهم، فقد جاء في كلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام متحدياً أولئك الذين ادعوا العلم والمرجعية فقال: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم

١. راجع نهج البلاغة - صبحي الصالح، ص ٧٣٣.

٢. نهج البلاغة: ٢٠٦.

وأعطانا وحرّمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدي، ويستجلي العمي، إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم»^١.

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله»^٢. وعن بريد بن معاوية عن أحدهما في قول الله عز وجل: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»^٣، «فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله عز وجل جميع ما انزل عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم فأجابهم الله بقوله: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا»^٤، والقرآن خاص وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه»^٥.

وعن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الراسخون في العلم أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده: ^٦.

وهكذا نعرف: أن الوجوه الصحيحة من الحكمة إذا لوحظت في جو من المرجعية الفكرية للرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام شكّلت حكماً حياً ولم تعد أية شبهة في أداء المتشابه إلى التفرق المذهبي العقائدي....

هذا ولا معنى لأن ينقض علينا، بأنه إن كان الأمر كما تقولون فلم هذا التفرق والتمزق؟ وذلك لأنه لما كانت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة قد أدت دورها الكامل الواضح في الإرجاع نحو أهل البيت عليهم السلام لم يعد هناك سبب من طرف الشارع المقدس يدعو إلى التفرق والتمزق، بل عبئت كل الطاقات وأريد لكل هذه الحكم وغيرها من أهداف

١. نهج البلاغة: ٢٠١.

٢. الكافي: ١: ٢١٣.

٣. سورة آل عمران: ٧.

٤. سورة آل عمران: ٧.

٥. الكافي: ١: ٢١٣.

٦. الكافي: ١: ٢١٣.

القرآن أن تؤدي دورها المطلوب في ظل المرجعية الفكرية والسياسية لهم: ... فإذا وجدنا التفرق بعد ذلك فهو من ذنب المتفرقين

فإن عادوا واعترضوا علينا بأن وجود المتشابه قد مكن لهم بعض الشيء تأييد عقائدهم الباطلة، عدنا وقلنا: إن هذا يشبه التمسك بقول لأحد المتكلمين دون ملاحظة القول المفسر الذي تبعه لا لشيء إلا عن زيغ ومرض في القلب... فهذا أمر لا يمكن التخلص منه وهنا يكون الامتحان والبلاء ليمحص الذين يرجعون للقرآن بموضوعية ممن يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله دون الرجوع إلى المرجع المفروض.

وأخيراً يمكن أن نضيف إلى تلك الحكم المذكورة نفس هذا الإطار العام الذي تعمل في ظله تلك الحكم، ونعني بذلك أن وجود المتشابه في القرآن يؤدي بالتبع للاتجاه نحو القادة للاستزادة والاستيضاح عن تفاصيل ذلك الدستور الإلهي الخالد.

فتكون النتيجة ملخصة في ما يلي:

١ - أكثر تلك الحكم المذكورة إذا جمعت إلى بعضها شككت أمراً يعتمد عليه وحكمة جيدة لمجيء المتشابه، إلا أن الإشكال الذي يورد على ذلك لا يمكن رده بتلك الحكمة إلا في إطار جعل المرجع الذي يرفع الخلاف.

٢ - ذلك المرجع هو الآيات المحكمات وكذلك (الراسخون) في العلم.

٣ - إن الراسخين في العلم هم النبي ﷺ والقادة من أهل البيت عليهم السلام.

أهم كتب المتشابه:

اهتم المفسرون بهذا الموضوع وأهم ما ألف فيه هو ما يلي:

١- المتشابه لأبي عمارة الزيات من أصحاب الصادق عليه السلام.

٢- المتشابه للكسائي (ت ١٨٩).

٣- المتشابه لأبي عبيدة بن المثنى (ت ٢٠٩).

٤- المتشابه لمحمد بن هذيل العلاف (ت ٢٥٣).

٥- المتشابه لجعفر بن حرب (ت ٢٣٦).

٦- المتشابه لابن المنادي (ت ٢٥٦).

- ٧- المتشابه للجبائي (ت ٣٠٣).
 - ٨- المتشابه للشريف الرضي (ت ٤٠٦).
 - ٩- المتشابه للعميري (ت ٤٣٢).
 - ١٠- المتشابه لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨).
 - ١١- المتشابه للسخاوي (ت ٦٤٣).
 - ١٢- المتشابه لمحمد بن محمد (ت ٧٤٥).
 - ١٣- المتشابه لابن اللبان الأشعري (ت ٧٤٩).
 - ١٤- المتشابه للسيوطي (ت ٩١١).
 - ١٥- المتشابه للملا صدرا (ت ١٠٥٠).
 - ١٦- المتشابه للدرديري (ت ١٢٠١).
- ويلاحظ أن الكثير من هذه الكتب الف في القرنين الثالث والرابع والخامس.

حديث عن بعض هذه الكتب

ونحن نتحدث بشيء من التركيز عن بعضها كما يلي:

- ١- كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبد الجبار المعتزلي.
وبطبيعة الحال طرح الموضوع وفق الرؤية الاعتزالية التي تحتكم للعقل في فهم النصوص.
وقد عالج ٨٤٦ شبهة أو طعناً وفق ترتيب سور القرآن، ونصف هذه الشبهة جاءت في ثلاث عشرة سورة فهو تارة يذكر تعارض آيتين ظاهراً ويعمل على حله، وأخرى بعرض آية ويوجب على الشبهة الواردة فيها، وثالثة يبدأ السورة بمقدمة عامة، يتحدث فيها عن هدفها ثم يعرض المطاعن ويوجب عليها، ورابعة يشرح الآية وفوائدها ودلالاتها داعياً إلى التأمل.

ويتمتع تفسيره بما يلي:

- ١- الاستدلال بالأحاديث الشريفة.
- ٢- الرجوع إلى أقوال الصحابة.
- ٣- الرجوع إلى اللغة.

٤- الاستعانة بكلام المفسرين.

٥- ترجيح الوجوه وتفضيل الرأي المختار.

٦- تأويل بعض الآيات.

٧- القدرة الجيدة على الجدل.

٨- الاستعانة بالقرآن لتأييد رأيه.

ومصادره: كتب الحديث والتفسير والفقه واللغة.

ويستعين بالتناسب، والسياق وأسباب النزول، والقراءات والنسخ والفقه وربما تعرض إلى عدة شبهات في بيان واحد فهو يقول في سورة يوسف وهو يدفع عدة شبهات.

عدّة شبهات

وربما قيل: كيف يجوز أن يخفي خبره عليهم المدة الطويلة مع قرب المسافة بين مصر وبين البدو الذي كانوا فيه حتى يجري الأمر على ما ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه؟ وجوابنا: أن إخوة يوسف لما أقدموا على ما فعلوه في أمر يوسف وجملة جماعة من السيارة وقد اشتروه بثمن بخس ظنوا فيه خلاف ما ظهر، فقل تفتيشهم عنه ولما حمل واشتراه ذلك العزيز لامراته واتخاذها كالولد كان كالمكتوم عن الناس مع حسن صورته ومثله ربما يخشى ظهوره. ثم أقام محبوساً ما أقام وتردد في المجلس فعمي أمره وقد طال المدة فلذلك ولأمثاله خفي خبره على أبيه وإخوته. فأما خبرهم فلم يخف عليه لأن الذي عامل به إخوته يدل على أنه كان بذلك عارفاً وكان يتلطف في تحصيل أخيه ثم أبيه بالوجوه التي أباحها الله تعالى، ومثل هذا السبب قد يخفي عنده الخبر فلذلك خفي على يعقوب وعلى إخوته خبره. فإن قيل: كيف يجوز مع شدة محبة يعقوب أن لا يفتش عن خبره وقد كان قال لهم ما يدل على أنه اتهمهم في أن الذئب أكله؟ وجوابنا: أنت يعقوب ما كان يعرف الأخبار إلاّ من جهة أولاده لأن سائر الناس كان يقبض عنهم وأولاده كانوا لا يفتشون عن ذلك لأن سبب الجناية كان منهم وظنوا أنه مفقود في الحقيقة، ولأن شدة حزنه وما لقي من المحن في تلك السنين كان يشغل عن مثله فإن قيل: كيف يجوز من يعقوب وهو نبي أن يحزن كل ذلك الحزن على يوسف أو ليس ذلك يصرف عن

أمور الآخرة؟ قيل له: قد أبيع للوالد محبة الولد والسرور بأحواله خصوصاً إذا كان الولد على مثل صفات يوسف أو ما يقاربها، ويحتمل أنه كان اشتد لأنه ظن أنه قصر في حفظه وأنه فرط في أن سلّمه منهم فتضاعف حزنه لذلك أيضاً. فإن قيل له: كيف جاز أن يقول يوسف وقد السقاية في رحل أخيه إنهم لسارقون وهذا في الظاهر كذب^١؟ وجوابنا: أن جعل السقاية في رحل أخيه يجوز أن يكون من قبله بأمره فأما ما قاله المؤذن من أنهم سارقون فهو من قبل المؤذن لا من قبل يوسف. فإن قيل: كيف قال: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ قالوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^٢. وجوابنا: أن كل ذلك ليس من قول يوسف فاما تملك السارق فقد كان بين ذلك الملك ويجوز أن يكون في بعض شرائع الأنبياء فلذلك قالوا: فهو جزاؤه. فإن قيل: وكيف قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^٣ وأخذه على هذا الوجه معصية لا يجوز أن يشاءه الله فكيف يصح ذلك؟ وجوابنا: أن المراد مشيئة جعلوا هناك حتى يصبح أخذه لأن كل ذلك مما يجوز أن يشاءه الله ولذلك قال: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن تَشَاءُ﴾^٤. فإن قيل: كيف يصح أن يقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفَنَّدُونَ﴾^٥ فيضيف إليهم التنفيذ والذم له؟ وكيف جاز أن يقولوا له: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾^٦ فينسبون الضلال إليه؟ وجوابنا: أنه لا يمتنع أن يجد ريح يوسف وامارات حياته وأن يكون الله تعالى قوى ذلك لما أراه من اجتماعهم. وأما الضلال في اللغة فهو الذهاب عن الشيء الذي فيه نفع فأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أنك تجري على عادتك في العدول عما ينفعك ومثل

١. وذلك في قوله تعالى: {فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتَهَا الْعِيبُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [يوسف: الآية ٧٠].

٢. يوسف: الآيتان ٧٤، ٧٥.

٣. يوسف: ٧٦.

٤. الأنعام: ٨٣.

٥. يوسف: ٩٤.

٦. يوسف: ٩٥.

ذلك قد يجوز أن يقال للأنبياء فيما يتعلق بأمور الدنيا، فإن قيل: كيف يعود بصيراً بإلقاء القميص إليه؟^١ قيل له: أنه نبي، وفي أيام الأنبياء قد يصح ظهور ما يخرج عن العادة فإن لم يكن من معجزات يعقوب فهو من معجزات يوسف فلا سؤال في ذلك. واختلفوا فقال بعضهم: كان بصره قد ضعف لا أنه قد زال، ومثل ذلك كالمعتاد.

٢. أمالي السيد المرتضى (ت ٤٣٦).

ورغم أن كتاب (الأمالي) لم يختص برفع التشابه بل تناول موضوعات متفرقة - كما هو ديدن كتب الأمالي - إلا أنه ركز على أكثر الشبه وحل الكثير من التشابه طبعاً على الطريقة الشيعية. ويتميز السيد الشريف المرتضى بالموسوعية وبسعة المعلومات والقدرة الفائقة على الإثبات وإبطال أقوال الطرف المقابل وقد عاش في بغداد موئل العلم وتحت ظل حكومة بني بويه أهل العلم والذوق والفن وتعلم هو وأخوه السيد الشريف الرضي على يد الشيخ المفيد وهو من هو في العلم والرئاسة.

وللسيد المرتضى مؤلفات كثيرة تجاوزت السبعين.

أما الأمالي فهي واحة غناء حافلة بألوان المعارف، عمرت بها المجالس وتنوعت فيها الأغراض ومنها حل التشابه ورفع بعض الغوامض وعرض بعض جوانب علم الكلام، وتراجم بعض الشعراء، وستأتي بعض المقتبسات منها عند الحديث عن مسألة (الرؤية).

٣. مشابه القرآن والمختلف فيه للحافظ محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني، وهو الإمام الفقيه المحدث (٥٨٨) وكان أيضاً موسوعياً شاعراً محدثاً وقد طبع كتابه حديثاً في خمسة مجلدات وتعرض فيه لمعاني المحكم والمتشابه والأقوال فيها، والحكمة في اشتغال القرآن عليهما. ويتمتع بحسن الأسلوب وجودة الترتيب بادئاً بالتوحيد. وقد ذكر العلامة معرفت أنه خير ما كتب في هذا الموضوع.

وقد اعتمد منهج تفسير القرآن بالقرآن ثم بالأثر ثم بالإجماع وسيأتي ذكر بعض النصوص مه في مبحث (الرؤية).

١. وذلك في قوله تعالى: {أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} [يوسف: الآية ٩٣].

نماذج من البحث في المتشابه

النموذج الأول: مسألة الرؤية والتشبيه والتجسيم

وتركز على موضوع إمكان الرؤية البصرية لله تعالى في الدنيا أو الآخرة وهي تستلزم التشبيه والتجسيم فقد جاءت في القرآن الكريم آيات يظهر منها إمكان الرؤية من قبيل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^١.

وآيات يظهر منها التجسيم من قبيل قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾^٢. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^٣ وغيرها.

في حين جاءت آيات تنفي ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^٤.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^٥. مما أظهر نوعاً من التعارض البدوي.

ومسألة الرؤية نفاها أهل البيت عليهم السلام والصحابة والفلاسفة والمعتزلة لأنها تستلزم التشبيه والجسمية والحاجة إلى المكان والجهة. ولكن الحنابلة بل الأشاعرة عموماً ويشملون أكثر الحنفية والمالكية والشافعية تبناها سواء في الدنيا والآخرة مستندين إلى بعض الآيات والروايات. والذي يبدو أن مشهور الصحابة وأم المؤمنين عائشة^٦ نفوا ذلك مطلقاً.

فقد روي في صحيح البخاري^٧ عن عامر بن مسروق قال: قلت لعائشة يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري مما قلت! أين أنت من ثلاث من حدّثكهن فقد كذب؛ من حدّثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ

١ . القيامة: ٢٢ - ٢٣.

٢ . سورة ص: ٧٥.

٣ . القصص: ٨٨.

٤ . الأنعام: ١٠٣.

٥ . الشورى: ١١.

٦ . العقائد الإسلامية: مركز المصطفى للدراسات الإسلامية تحت اشراف آية الله السيستاني ٢: ٧.

٧ . ج ٦ ص ٥٠.

اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴿١﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ عَدًّا﴾ ﴿٢﴾ ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآية. ولكنه رأى جبرئيل في صورته مرتين.

وجاء هذا المضمون في الجزء ٨ ص ١٦٦ ومن المعروف أن الصحابة قاوموا مسألة رؤية الله تعالى ولكن الدولة الأموية تبنت نشرها فكانت مركز القول بها لأنها كانت مركزاً لكعب الاحبار ومن تبعه^١.

وقال النووي في نهاية الأرب^٢ قال وهب: واختلف العلماء في معنى (التجلي)، قال ابن عباس: ظهر نوره للجبل.

وقال ابن قيم الجوزية:

واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه وصح عنه أنه رآه بفؤاده^٣.

والحقيقة أن المسألة عادت محل تضارب الآراء والنقول والمهم لدينا أن نرجع إلى الدليل العقلي في البين ويتلخص في أن الرؤية تستلزم التجسيم والتشبيه والحاجة إلى الجهة والمحدودية وأمثال ذلك وكلها محال على الله الكامل المطلق الغني، ويجب أن تؤول الآيات التي يبدو منها التجسيم والتشبيه والرؤية لأن العقل قرينة ارتكازية على أن المراد هو غير الظاهر. وعلى أي حال فمن الواضح من أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنهم يرفضون الرؤية البصرية جملة وتفصيلاً. وهذه بعض الأحاديث:

١- في أمالي الشيخ الطوسي عن ابن ناتانه عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن إبراهيم الكرخي قال: قلت للصادق جعفر بن محمد: إن رجلاً رأى ربه عز وجل في منامه فما يكون ذلك؟ فقال: رجل لا دين له، إن الله تبارك وتعالى لا يرى في اليقظة ولا في المنام ولا في الدنيا ولا في الآخرة^٤.

١. نفس المصدر ٢: ١٠.

٢. ج ٧، ج ٣ ص ٢١١.

٣. زاد المعاد ٣: ٢٩.

٤. البحار ٤: ٣٢ ومثله ما جاء في تاريخ دمشق ٥٦: ٩٠.

- ٢- حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد عن الوليد... عن حمزة بن محمد قال: كتبت إلى أبي الحسن أسأله عن الجسم والصورة فكتب: سبحانه من ليس كمثل شيء لا جسم ولا صورة^١.
- ٣- وروى الكليني عن يعقوب بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي محمد أسأله: كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه؟ فوقع عليه السلام: يا أبا يوسف؛ جل سيدي ومولاي والمنعم علي وعلى آبائي أن يرى. قال: وسألته هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربه؟ فوقع: إن الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمتته ما أحب^٢.
- والأحاديث كثيرة في هذا المجال عن أهل البيت عليهم السلام وهي تجمع على استحالة الرؤية^٣ وهو ما يطابق أحكام العقل^٤.

أقوال بعض المفسرين الشيعة

قال السيد المرتضى في الأمالي.

مسألة

قال الشريف المرتضى: اعلم أن أصحابنا لما استدلوا على نفي الرؤية بالأبصار عن الله تعالى بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^١، وبينوا أنه تعالى تمدح بنفي الإدراك الذي هو رؤية البصر عن نفسه على وجه يرجع إلى ذاته؛ فيجب أن يكون في ثبوت الرؤية له في وقت من الأوقات نقص ودم. قال لهم مخالفوهم: كيف يتمدح بأنه لا يرى، وقد يشاركه في نفي الرؤية ما ليس بممدوح؛ كالمعدومات والإرادات والاعتقادات؟ فقالوا لهم: لم يتمدح تعالى بنفي الرؤية فقط، وإنما تمدح بنفي الرؤية عنه

١. التوحيد للصدوق: ٥٧.

٢. الكافي: ١: ٩٥ باب في ابطال الرؤية، المجلسي في البحار ٤: ٤٣.

٣. راجع الفصل الرابع من كتاب العقائد الإسلامية ص ١٣٣.

٤. راجع كتاب العلامة شرف الدين: كلمة حول الرؤية.

٥. ج ١ ص ٤٩.

٦. الأنعام: ١٠٣.

وإثباتها له، فتمدحه بمجموع الأمرين؛ وليس يشاركه في هاتين الصفتين مشارك؛ لأن الموجودات المحدثات على ضروب؛ منها لا يرى ولا يرى كالإرادات والاعتقادات، ومنها ما يرى ولا يرى كالألوان، ومنها ما يرى ويرى كالإنسان وضروب الأحياء؛ وليس فيها ما يرى ولا يرى؛ فثبت المدحة لله تعالى بمتضمن الآية.

فقال لهم المخالفون: وكيف يجوز أن تكون صفة لا تقتضي المدحة بانفرادها، ثم تصير تقتضيها مع غيرها! ولئن جاز هذا ليجوز أن يتمدح بآنه شيء عالم، أو موجود قادر؛ فإذا كان لا مدحة في وصف الذات بآنه شيء وموجود، وإن انضمت إلى صفة مدح من حيث كانت بانفرادها لا تقتضي مدحاً، فكذلك لا مدحة في نفي الرؤية عمّن ثبتت له، من حيث كانت بانفرادها لا تقتضي مدحاً.

فأجاب أصحابنا عن هذا الكلام بأن قالوا: ليس يمتنع في الصفة أن تكون لا تقتضي مدحاً إذا انفردت، وتقتضيه إذا انضمت إلى غيرها، ومثلوا ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^١. وإن نفي السنة والنوم هاهنا إنما يكون مدحاً إذا انتفى عن هو بصفة الأحياء، وإن كان بانفراده لا يقتضي مدحاً لمشاركة ذوات كثيرة غير ممدوحة فيه، وفصلوا بين الوصف بالشيء والوجود، وبين ما ذكروا من حيث لا تأثير لهاتين الصفتين في المدح. واعلم أن صفات المدح المتضمنة للإثبات ما تكاد تفتقر إلى شرط في كونها مدحاً. وصفات النفي إذا كانت مدحاً فلا بدّ فيها من شرط؛ وإنما افترق الأمران من حيث كان النفي أعم من الإثبات؛ فيدخل تحته الممدوح وغير الممدوح، والإثبات أشدّ اختصاصاً؛ ألا ترى أن ما ليس بعالم من الذوات وليس بموجود أكثر مما ثبت له العلم والوجود منها؟ لأنّ الأول لا يكون إلا غير متناه، والثاني لا بد أن يكون متناهياً، فلما شملت صفات النفي الممدوح وغير الممدوح احتاجت إلى شرط يخصها.

وأنت إذا اعتبرت سائر صفات النفي التي يتمدح بها وجدتها مفتقرة إلى الشرط؛ ألا ترى أن من ليس بجاهل إنما يكون ممدوحاً بهذا النفي إذا كان حياً ذاكراً، ومن ليس بعاجز إنما يكون

ممدوحاً إذا كان أيضاً موجوداً حياً، ومن ليس بظالم إنما يكون ممدوحاً إذا كان قادراً على الظلم وله دواعٍ إليه، ولا بدّ في الشرط الذي يحتاج إليه في صفات النفي حتى تكون مدحاً من أن يكون أيضاً إثباتاً أو جارياً مجرى الإثبات، ولا يكون نفيّاً لأنه إن كان نفيّاً لم يتخصص، وساوى فيه الممدوح ما ليس بممدوح؛ مثال ذلك أنا إذا مدحنا غيرنا بأنه لا يظلم، وشرطنا في هذه المدحة أنه لم يذعه داعٍ إلى الظلم لم تحصل المدحة، لأنه قد يشاركه في نفي الظلم ونفي الدواعي إليه ما ليس بممدوح، فلا بدّ من شرط يجري مجرى الإثبات؛ وهو أن تقول: وهو ممن تدعوه الدواعي إلى الأفعال ويتصرّف فيها بحسب حاجته ودواعيه. فإذا صحت هذه الجملة فالوجه أن نقول: إن المدحة في الآية إنما تتعلق بنفي الإدراك عن القديم تعالى، لكن بشرط أن يكون مدركاً، ولا نجعل كلّ واحدة من الصفتين المدح مجتمعاً؛ مع أنّ كل واحدة لا تقتضيه على سبيل الانفراد، وليس بمنكر أن يقتضي الشيء غيره بشرط متى وجد حصل المقتضى، وإذا لم يحصل لم يحصل مقتضاه، ونفي السنة والنوم والظلم عن الله تعالى إنما كان مدحاً بشروط معروفة على نحو ما ذكرناه؛ وهذا التلخيص في هذا الموضوع أولى وأحسم للشبه مما تقدّم ذكره.

وقال في مجلس آخر^١

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَخَلَّى رُبَّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٢.

وقال: ما تنكرون أن تكون هذه الآية دالة على جواز الرؤية عليه عز وجل! لأنها لو لم تجز لم يجز أن يسألها موسى ﷺ؛ كما لا يجوز أن يسأل اتخاذ الصاحبة والولد؛ ولو كانت أيضاً الرؤية مستحيلة لم يعلّقها بأمر يصح أن يقع وهو استقرار الجبل. فإذا علمنا صحة استقرار الجبل في موضعه فيجب أن تكون الرؤية أيضاً صحيحة في حكم ما علقت به. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رُبَّهُ لِلْجَبَلِ﴾

١. ج ٢ ص ١٨٥.

٢. الأعراف: ١٤٣.

يقتضي جواز الحجاب عليه تعالى؛ لأن التجلي والظهور لا يكونان إلا بعد احتجاب واستتار. الجواب، قلنا: أول ما نقوله إنه ليس في مسألة الشيء دلالة على صحة وقوعه ولا جوازه؛ لأن السائل يسأل عن الصحيح والمحال، مع العلم وفقد العلم؛ لأغراض مختلفة؛ فلا دلالة في ظاهر مسألة الرؤية على جوازها.

ولأصحابنا عن هذه المسألة أجوبة:

أولها وهو الأولى والأقوى أن يكون موسى ﷺ يسأل الرؤية لنفسه؛ وإنما سألها لقومه، فقد روي أنهم طلبوا ذلك منه والتمسوه، فأجابهم بأنها لا تجوز عليه تبارك وتعالى؛ فلم يقنعوا بجوابه، وآثروا أن يرد الجواب من قبل ربه تعالى، فوعدهم ذلك، وغلبت في ظنه أن الجواب إذ ورد من جهته جلّ وعزّ كان أحسم للشبهة؛ وأبلغ في دفعها عنهم، فاختر السبعين الذين حضروا الميقات؛ ليكون سؤاله بمحضر منهم، فيعرفوا ما يرد من الجواب، فسأل وأجيب بما يدل على أن الرؤية لا تجوز عليه تعالى.

ويقوي هذا الجواب أشياء، منها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾^١. ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^٢.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^٣ لأن إضافة ذلك إلى السفهاء تدلّ على أنه كان بسببهم ومن أجلهم؛ وإنما سألوا ما لا يجوز عليه.

ومنها ذكره الجهرة في الرؤية، وهي لا تليق إلا برؤية البصر دون العلم؛ وهذا يقوي أن الطلب لم يكن للعلم الضروري، على ما سنذكره في الجواب الثاني.

ومنها قوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ لأننا إذا حللنا الآية على طلب الرؤية لقومه أمكن أن يحمل

١. النساء: ١٥٣.

٢. البقرة: ٥٥.

٣. الأعراف: ١٥٥.

قوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ على حقيقته؛ فإذا حملت الآية على طلب العلم الضروري احتيج إلى حذف في الكلام، ويصير تقديره: أرني أنظر إلى الآيات التي عندها أعرفك ضرورة. ويمكن في هذا الوجه الأخير خاصة أن يقال: إذا كان المذهب الصحيح عندكم هو أن النظر في الحقيقة غير الرؤية، فكيف يكون قوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ حقيقة في جواب من حمل الآية على طلب الرؤية لقومه؟ فإن قلت: لا يمتنع أن يكونوا التمسوا الرؤية التي معها يكون النظر والتحديد إلى الجهة، فسأل على حسب ما التمسوا.

قيل لكم: هذا ينقض فرقكم في هذا الجواب بين سؤال الرؤية، وبين سؤال جميع ما يستحيل عليه من الصاحبة والولد؛ وما يقتضي الجسمية بأن تقولوا: الشك في الرؤية لا يمنع من صحة معرفة السمع، والشك في جميع ما ذكر يمنع من ذلك؛ لأن الشك الذي لا يمنع من معرفة السمع إنما هو في الرؤية التي لا يكون معها نظر، ولا تقتضي التشبيه. فإن قلت: ذكر النظر على أن المراد به نفس الرؤية على سبيل المجاز؛ لأن من عادة العرب أن يسموا الشيء باسم الطريق إليه، وما قاربه وداناه.

قلنا: فكأنكم عدلتم من مجاز إلى مجاز؛ فلا قوة في هذا الوجه؛ والوجه التي ذكرناها في تقوية هذا الجواب المتقدمة أولى.

وليس لأحد أن يقول: لو كان إنما سأله الرؤية لقومه لم يضيف السؤال إلى نفسه فيقول: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولا كان الجواب مختصاً به؛ وهو قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وذلك لأنه غير ممتنع وقوع الإضافة على هذا الوجه؛ مع أن المسألة كانت من أجل الغير؛ إذا كانت هناك دلالة تؤمن من اللبس وتزيل الشبهة. فلهذا يقول أحدنا إذا شفع في حاجة غيره للمشفوع له: أسألك أن تفعل بي كذا، وتجيئني إلى كذا. ويجسن أن يقول المشفوع إليه: قد أجبتك وشفعتك، وما جرى مجرى ذلك، وإنما حسن هذا لأن للسائل في المسألة غرضاً، وإن رجعت إلى الغير فتحققه بها وتكلفه كتكلفه إذا اختصه ولم يتعدّه.

فإن قيل؛ كيف يجوز منه مع علمه باستحالة الرؤية عليه تعالى أن يسأل فيها لقومه! ولئن جاز ذلك ليجوز أن يسأل لقومه سائر ما يستحيل عليه من كونه جسماً، وما أشبهه متى شكوا فيه.

قلنا: إنما صحَّ ما ذكرناه في الرؤية ولم يصحَّ فيما سألت عنه؛ لأن مع الشك في جواز الرؤية التي لا تقتضي كونه جسماً يمكن معرفة السمع، وأنه حكيم صادق في أخباره، فيصح أن يعرفوا بالجواب الوارد من جهته تعالى استحالة ما شكوا في صحته وجوازه؛ ومع الشك في كونه جسماً لا يصحَّ معرفة السمع، فلا يقع بجوابه انتفاع ولا علم.

وقد قال بعض من تكلم في هذه الآية: قد كان جائزاً أن يسأل موسى عليه السلام لقومه ما يعلم استحالته؛ وإن كانت دلالة السمع لا تثبت قبل معرفته؛ متى كان المعلوم أن في ذلك صلاحاً للمكلفين في الدين، وإن ورود الجواب يكون لطفاً لهم في النظر في الأدلة، وإصابة الحق منها؛ غير أن من أجاب بذلك شرط أن يتبين النبي صلى الله عليه وآله في مسألته علمه باستحالة ما سأل عنه، وأن غرضه في السؤال ورود الجواب ليكون لطفاً.

والجواب الثاني في الآية أن يكون موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يعلمه نفسه ضرورة بإظهار بعض أعلام الآخرة، التي تضطرُّ إلى المعرفة، فتزول عنه الدواعي والشكوك والشبهات، ويستغني عن الاستدلال، فتخفَّ المحنة عليه بذلك؛ كما سأل إبراهيم عليه السلام ربه تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى طلباً لتخفيف المحنة، وإن كان قد عرف ذلك قبل أن يراه؛ والسؤال إن وقع بلفظ الرؤية فإن الرؤية تفيد العلم كما تفيد الإدراك بالبصر، وذلك أظهر من أن يستدل عليه أو يستشهد عليه؛ فقال له جلَّ وعزَّ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أي لن تعلمني على هذا الوجه الذي التمسته مني، ثم أكد ذلك بأن أظهر في الجبل من آياته وعجائبه ما دلَّ به على أن إظهار ما تقع به المعرفة الضرورية في الدنيا مع التكليف وبيانه لا يجوز، وأن الحكمة تمنع منه.

وقعت من المسألة أو من أمر يرجع إليها؛ وقد يجوز أن يكون سأل ذلك؛ إما لذنب صغير تقدم تلك الحال، أو تقدم النبوة فلا ترجع إلى المسألة. وقد يجوز أن يكون ما أظهره من التوبة على سبيل الرجوع إلى الله تعالى؛ وإظهار الانقطاع إليه، والتقرب منه، وإن لم يكن هناك ذنب معروف.

وقد يجوز أن يكون الغرض في ذلك مضافاً إلى ما قلناه وتوفيقاً على ما نستعمله وندعو به عند الشدائد ونزول الأهوال، وتنبية القوم المخطئين خاصة على التوبة مما التمسوه من الرؤية المستحيلة عليه تعالى؛ فإن الأنبياء، وإن لم يقع منهم القبيح عندنا فقد يقع من غيرهم؛ ويحتاج من وقع ذلك منه إلى التوبة والاستقالة.

فأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ فإن التجلي هاهنا التعريف والإعلام والإظهار لما تقتضي المعرفة، كقولهم: هذا كلام جلي أي واضح، وكقول الشاعر:

تَجَلَّى لَنَا بِالْمَشْرِفِيَةِ وَالْقَنَا وَقَدْ كَانَ عَنْ وَقَعِ الْأَسِنَّةِ نَائِيَا
أراد أن تدبيره دل عليه حتى علم أنه المدبر له وإن كان نائياً عن وقع الأسنة، فأقام ما ظهر من دلالة فعله مقام مشاهدته، وعبر عنه بأنه تجلَّى منه.

وفي قوله: ﴿لِلْجَبَلِ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون لأهل الجبل، ومن كان عند الجبل، فحذف؛ كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾^١؛ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾^٢.

وقد علمنا أنه بما أظهره من الآيات إنما دلّ من كان عند الجبل على أن رؤيته تعالى غير جائزة. والوجه الآخر: أن يكون معنى ﴿لِلْجَبَلِ﴾ أي بالجبل، فأقام اللام مقام الباء؛ كما قال تعالى: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ﴾^٣؛ أي به؛ وكما يقولون: أخذتك لجرمك وبيجرك. ولما كانت الآية الدالة على منع ما سئل فيه إنما حلت الجبل وظهرت فيه جاز أن يضاف التجلي إليه.

وقد استدلل بهذه الآية كثير من العلماء الموحدين على أنه تعالى لا يرى بالأبصار من حيث نفى الرؤية نفيًا عامًا بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾؛ ثم أكد ذلك بأن علّق الرؤية باستقرار الجبل الذي علمنا أنه لم يستقر. وهذه طريقة للعرب في تبعيد الشيء؛ لأنهم يعلقونه بما يعلم أنه لا يكون؛ كقولهم: لا كلمتك ما أضاء الفجر، وطلعت الشمس؛ وكقول الشاعر:

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ رَجُوتُ أَهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^٤. وليس لأحد أن يقول: إذا علّق الرؤية باستقرار الجبل؛ وكان ذلك في مقدوره، فيجب أن

١ . يوسف: ٨٢.

٢ . الدخان: ٢٩.

٣ . الأعراف: ١٢٣.

٤ . الأعراف: ٤٠.

تكون الرؤية معلقة به أيضاً في مقدوره؛ بأنه لو كان الغرض بذلك التعبيد لعلقه بأمر يستحيل، كما علق دخولهم الجنة بأمر مستحيل؛ من ولوج الجمل في سمّ الخياط؛ وذلك أن تشبيه الشيء بغيره لا يجب أن يكون من جميع الوجوه؛ ولما علق وقوع الرؤية باستقرار الجبل - وقد علم أنه لا يستقر - علم نفي الرؤية. وما عدا ذلك من كون الرؤية مستحيلة وغير مقدورة، واستقرار الجبل بخلافها يخرج عن ما هو الغرض في التشبيه على أنه إنما علق تعالى جواز الرؤية باستقرار الجبل في تلك الحال التي جعله فيها دكاً، وذلك محال لما فيه من اجتماع الضدين، فجرى مجرى جواز الرؤية في الاستحالة. وليس يجب في كل ما علق بغيره أن يجري مجراه في سائر وجوهه؛ حتى إذا كان أحدهما مع انتفائه مستحيلاً كان الآخر بمثابة؛ لأن تعلق دخول الكفار الجنة إنما علق بولج الجمل في سمّ الخياط؛ وولج الجمل في سمّ الخياط مستحيل، بل معلوم أن الأول في المقدور وإن كان لا يحسن والثاني ليس في المقدور. وهذه الجملة كافية في تأويل هذه الآية، وبيان ما فيها، والحمد لله.

وقال ابن شهر آشوب في ج ١ ص ٣٥٦ من فصل ٤٥

في الرؤية

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^١.

تمدح سبحانه بالإجماع، وبما يقتضيه سياق الآية بنفي إدراك الأبصار الذي هو رؤيتها. وهذا التمدح راجع إلى ذاته، لأن الإدراك، ليس بمعنى، فيتمدح بألا يفعله على سبيل التفصيل، وكل ما تمدح بنفيه - على هذا الوجه - لا يكون إثباته إلا نقصاً، وموجباً دماً. وهو يتعالى عما يوجب الذم، والنقص. ألا ترى أنه تعالى لما تمدح بنفي الصاحبة، والولد، والسنة، والنوم في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾^٢، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^٣، لم يجر إثبات شيء من ذلك في حال من الأحوال، لاقتضائه الذم، والنقص، كذلك - هاهنا - يوضح ذلك أن

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. الجن: ٣.

٣. البقرة: ٢٥٥.

قبل الآية: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^١.

فتمدح سبحانه بما تضمنته هذه الآيات من صفاته على حد واحد، لا يختلف فيه الحال، وكل ما كان نفيه مدحاً، فلا يكون إثباته إلا ذمّاً عند أهل اللسان.

الرضا^٢ (عليه السلام): «لا تدركه أوهام القلوب، فكيف تدركه أبصار العيون».

الصادق^٣ (عليه السلام): أي: إحاطة الوهم. ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^٤. يقال: فلان بصير بالدرهم، والثياب، والجوارح، والأشعار.

أبو جعفر الثاني^٥ (عليه السلام): أوهام القلوب أدق من أبصار العيون. أنت قد تدرك بوهمك البلدان التي لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك.

فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف تدركه الأبصار.

الصاحب^٦:

فقلت: فقل لي: أبالأبصار تُدْرِكُهُ؟ فقلت: جلّ عن الإبصارِ بالمثل

وأجمعوا على أنّ النبي^٧ (صلى الله عليه وآله) قال: يا من يرى، ولا يرى، وهو بالمنظر الأعلى.

وكتب أحمد بن إسحاق إلى أبي الحسن^٨ الثالث يسأله عن الرؤية؟ فكتب جوابه:

ليس تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي، والمرئي هواء، ينفذه البصر، فمتى انقطع الهواء، وعدم الضياء، لم تصحّ الرؤية. وفي وجوب اتصال الضياء بين الرائي، والمرئي، هواء ينفذه

١. الأنعام: ١٠١-١٠٣.

٢. أمالي الصدوق: ٣٦٧، مجمع البيان ٢: ٣٤٤، بلفظ مختلف قليلاً.

٣. الكافي ١: ٩٨، الاحتجاج ٢: ٧٧، التوحيد: ١١٢.

٤. الأنعام: ١٠٤.

٥. الكافي ١: ٩٩، التوحيد: ١١٣، الاحتجاج ٢: ٢٣٨، أمالي الصدوق: ٣٦٧ وأبو جعفر الثاني هو الإمام محمد الجواد (عليه السلام).

٦. ديوان الصاحب بن عباد: ٤٠ وفيه جلّ عن الإدراك.

٧. التوحيد: ٤٥ في جملة خطبة له (صلى الله عليه وآله).

٨. الكافي ١: ٩٧، التوحيد: ١٠٩، الاحتجاج ٢: ٢٥١ وأبو الحسن الثالث هو الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام).

البصر، والله تعالى عن الأشباه، فثبت أنه لا يجوز عليه سبحانه الرؤية بالأبصار.
وقيل للرضا عليه السلام: إن رجلاً رأى ربّه في منامه، فما يكون ذلك؟
فقال: ذاك الرجل، رجل لا دين له، إن الله عزّ وجلّ لا يرى في اليقظة، ولا في المنام، ولا في الدنيا، ولا في الآخرة.
أبو سعيد الواعظ في «رجال الصوفية»^٢: قال أمير المؤمنين عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني.
فقال له ذعلب: هل رأيت ربّك؟
فقال عليه السلام: ما كنت أعبدُ ربّاً لم أره!
قال: كيف رأيتَه؟
قال: لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس.
فصاح ذعلب، وخرّ مغشياً عليه^٣.
الصادق عليه السلام؛ وقد سأله أعرابي: هل رأيت ربّك حين عبدته؟
فقال عليه السلام: لم أكن أعبدُ ربّاً لم أره!
فقال: كيف رأيتَه؟
قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات، والدلالات، منعت بالعلامات، لا يجوز في قضيته، هو الله، لا إله إلا هو.
فقال الأعرابي: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^١ شعر.

١. أمالي الصدوق: ٥٤٦.

٢. كتاب <رجال الصوفية> لأبي سعيد الواعظ من الكتب المفقودة، وهذه الرواية وردت في مصادر عديدة أخرى، انظر التوحيد: ٣٠٤ فما بعدها، وانظر ما يأتي في هامش الرواية.

٣. هذه الرواية في الاحتجاج ١: ٣١٢ دون ذكر اسم السائل (ذعلب). وهي في أمالي المرتضى ١: ١٥٠ منسوبة إلى الباقر عليه السلام وفي أمالي الصدوق: ٣٠٥ منسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام والسائل فيها ذعلب، وفي الإرشاد: ١٣٣: أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له...٤. الكافي ١: ٩٧، التوحيد: ١٠٨ عن الباقر عليه السلام باختلاف يسير في اللفظ، أمالي الصدوق: ٢٤٦-٢٤٧، الإرشاد: ١٣٣ بزيادة في اللفظ عن أمير المؤمنين عليه السلام، الاحتجاج ٢: ٧٦-٧٧.

قالوا: نرى معبودنا وجاروا إذ قال: «لا تُدرکه الأبصار»
لا يُبصر الإنسان ما يراه إلا إذا حـاذاه أو وازاه
يراه إذ رآه في المكـان يقـدر أن يشـير بالبنان^٢
الصاحب^٣:
لو كان محسوساً بعيني ناظر لكـان ملموساً بكفّي زائر
وقال في الفصل ٤٦

في الرؤية

قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٤٧﴾﴾^٤.
فقوله: «وجوه»، لا يخلو إما أن يراد به: الوجه، أو العين، أو الجملة فالأول، لا يجوز، لأنّ
الوجه لا يرى، ولا ينظر، ولا يكون رائيًا الحقيقة. فلا يصح حمله على أيّ وجه، صرفت الآية
إليه، يدلّ عليه أنّه لا يجوز أن يقول: رآه وجهي.
ولا يجوز الثاني، لأنّ العين، لا توصف بالنضارة التي هي الإشراق. العين في الحقيقة
ليست بناضرة، لأنّ الناظر، والرائي، إنّما هو الجملة، إذ العين آلة، يرى بها.
فلم يبق إلا أن المراد به، الجملة. ويبيّن ذلك قوله في نظيره: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٤٨﴾﴾^٥
تظنّ، والظنّ إنّما يرجع إلى الجملة، ولا يصحّ أن يكون المراد، حقيقة الوجه، من حيث
وصف بالنضارة، والبسور. إذا ذلك جاء صفة الوجه، والجملة، توصف بذلك، يقال: فلان
عبوس كالح، فهو بسر، وبسير، وأشباه ذلك.
وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ والخصم لا يثبت ذلك إلا في الجنة، لأنّه من الفضائل، يختصّ بها
المؤمن. وهاهنا في صفة القيامة.

١ . الأنعام: ١٢٤.

٢ . لم أقف على اسم قائل الأبيات ولا مظنة أخذها.

٣ . أحلّ به ديوانه بتحقيق آل ياسين.

٤ . القيامة: ٢٢، ٢٣.

٥ . القيامة: ٢٤، ٢٥.

وقوله: ﴿نَاطِرَةٌ﴾، النظر: التأمل، وهو لازم ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾^١،
 ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^٢. وقد يتعدى هذا بالجار، نحو ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ
 إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^٣، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾^٤.
 والانتظار: ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّا هُوَ﴾^٥، ﴿وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا﴾^٦، حسان^٧:
 وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتي بالفلاح
 الكميت^٨:

وشعث ينظرون إلى بلال كما نظر الأطباء حيا الغمام
 البعيث^٩:

وجوه بهاليل الحجاز على الندى إلى مالك ركن المعارف ناظرة
 والمهلة: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾^{١٠}، ﴿فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^{١١}، ﴿نَظِرُنِي إِلَى
 يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾^{١٢}، ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾^{١٣}.
 أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقين^{١٤}

١. الإسراء: ٤٨ الفرقان: ٩.

٢. الإسراء: ٢١.

٣. الغاشية: ١٧.

٤. الأعراف: ١٨٥.

٥. الأحزاب: ٥٣.

٦. سورة ص: ١٥.

٧. لم تقف عليه في ديوانه بطبعاته المتعددة. وهو في التفسير الكبير ٣٠: ٢٢٧ من دون عزو، وشطره الثاني: إلى الرحمن تنتظر
 الخلاصا. وفي الأساس لعقائد الأكياس: ٨٠ يأتي بالخلاص ومن دون عزو.

٨. أخل به مجموع شعره المنشور من قبل داود سلوم.

٩. أخل به مجموع شعره بجمع وتحقيق ناصر حلوي.

١٠. البقرة: ٢٨٠.

١١. النمل: ٣٥.

١٢. الأعراف: ١٤.

١٣. الحديد: ١٣.

١٤. قائله اشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم التغلبي. انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٣٨٧، شرح الفصائد
 التسع المشهورات: ق٢: ٦٢٨، شرح القصائد العشر: ٣٣١ ومنها صدر البيت..

والرحمة: انظر إليّ نظر الله إليك. وفلان ينظر لفلان. وهو حسن النظر له. ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^١.

والإهلاك: نظر الدهر إلى بني فلان. قال الشاعر^٢:

في قروم سادة من قومه نظر الدهر إليهم فابتهل

والتحديق نحو الشيء، طلباً للرؤية، لأنهم يثبتون النظر دون الرؤية قولهم: نظرت إلى الهلال، فلم أراه. وما زلت أنظر إليه، حتى رأيت، وانظر حتى ترى. ولولا أنني كنت أنظر إليه، لما رأيت. ونظرت إليه، فوجدته جالساً.

ولا يقال: نظرت إلى زيد متعرياً. كما يقال: رأيت متعرياً. والله تعالى رائي، ولا يقال: ناظر. لأن النظر، تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي، لطلب الرؤية.

ونظرت إليه نظر راض، ونظر غضبان، ونظراً شزراً. ونظر بمؤخر عينه. وقد أهد إليه النظر. ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾^٣. شاعر^٤:

نظروا إليك بأعين حمرة نظر التيوس إلى سفار الجازر غيره^٥:

ونظرة ذي شـجنٍ وامقٍ إذا ما الرّكائبُ جاوزنَ ميلاً و«النظر» يتعدى بـ«إلى»، و«الرؤية»، وأمثالها بنفسها، يقال: نظرت إليه، ورأيت.

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^٦.

والقول بذلك يؤدّي إلى مناقضة قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^٧، إذ ذاك عموم، لا تخصيص فيه، ولأنّه تمدّح به، كما تمدّح بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^٨.

فهو - إذن - جارٍ - في عموم الأوقات - مجراه، لأنّ زوال ما يوجب المدح، نقص.

١. آل عمران: ٧٧.

٢. هو لبيد بن ربيعة العامري. انظر شرح ديوانه: ١٩٧. ومنه صدر البيت.

٣. محمّد: ٢٠.

٤. أمالي الصدوق: ٨٦ بلا عزو. شرح الأصول الخمسة: ٢٤٣. بلا عزو وفيه: بأعين مزورة، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ١٢٧ في جملة أبيات معزوة إلى علي بن عبد الله بن عباس.

٥. المفضّلات: ٥٦، معزواً إلى بشامة بن الغدير. وفي التفسير الكبير ٢٠: ٢٢٧ من دون عزو.

٦. الأعراف: ١٩٨.

٧. الأنعام: ١٠٣.

٨. الأنعام: ١٠٣.

ولا يجوز: إلى ربّها ناظرة لها، لأنّ التخصيص، لا يقع إلّا بما يشبه الأمر فيه، فكيف بما لا يقتضيه؟ ونمط هذه الآية، وما يتّعبه، لا ينبئ عنه، ويبطله، لأنّه قال في نقيضه: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ الآية^١.

فلما أوجب الكفّار خوف العقاب، دون المنع من الرؤية، وجب أن يكون ما أوجبه للمؤمنين انتظار الثواب، دون الرؤية، ليتشاكل المعنيان، لأنّه لو قال: إنّ المؤمنين يرونني، والكافرين أعذبهم، لم يكن متشاكلاً في المعنى، بل كان معيياً عند البلغاء.

وقال الصحاح بن عبّاد: «ناظرة إلى ربّها». أي: نعمة ربّها، لأنّ «الآلاء»، والنعم، وفي أحدها، أربع لغات، يقال: «ألى»، مثل: «قفا»، و«ألى»، مثل: «معاً»، و«إلى»، مثل «رمي» و«ألى»، مثل: «حسبي» قال الأعشى^٢:

أبيض لا يرهبُ الهُرّالَ ولا يقطعُ رحماً ولا يخونُ إلّا

وجاء في التفسير عن ابن عبّاس^٣، والحسن^٤، وعمرو، ومجاهد^٥، وقتادة، والأعمش^٦، وابن جريج، وأبي صالح^٧، والضحاك^٨، والكلبي، وابن المسيّب، وابن جبير^٩: «وجوه يومئذ ناظرة»، يعني: مشرقة تنتظر ثواب ربّها. وهو المرويّ عن النبيّ ﷺ.

وقال أمير المؤمنين^{١١} عليه السلام: ينظرون إليه في الآخرة، كما ينظرون في الدنيا.

١. القيامة: ٢٤.

٢. ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس): ٢٣٥.

٣. مجمع البيان ٥: ٣٩٧.

٤. جامع البيان ٢٩: ١٩٢. أيضاً: مجمع البيان ٥: ٣٩٧ - ٣٩٨.

٥. جامع البيان ٢٩: ١٩٢. أيضاً: مجمع البيان ٥: ٣٩٧، ٣٩٨، الدر المنثور ٨: ٣٦٠، رسائل الجاحظ الكلامية (رسالة الردّ على المشبهة): ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٠٩.

٦. جامع البيان ٢٩: ١٩٣.

٧. جامع البيان ٢٩: ١٩٣، الدر المنثور ٨: ٣٦٠، رسائل الجاحظ الكلامية (رسالة الردّ على المشبهة): ٢٣٢.

٨. مجمع البيان ٥: ٣٩٨.

٩. مجمع البيان ٥: ٣٩٨.

١٠. الاحتجاج ٢: ١٩١ مروياً بلفظه عن الرضا وكذلك في أمالي الصدوق: ٣٦٧ والتوحيد: ١١٦. وفي مجمع البيان ٥: ٣٩٨ وهو المروي عن علي عليه السلام.

١١. الاحتجاج ٢: ٢١٥.

النموذج الثاني: القضاء والقدر

وهنا أيضاً نجد نوعين من الآيات الشريفة:

النوع الأول: يؤكد على النفوذ المطلق للمشيئة الالهية وهو من قبيل:

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^١.
وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^٢.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾^٣.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^٤.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^٥.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^٦.

وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾^٧.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٨.

وفيها تصريح وتأكيد على نفاذ أمر القضاء والقدر وأن كل حادثة كونية لا بد أن تسبقها

مشيئة الهية وأنها سبق وإن رسمت من قبل في كتاب مبين محفوظ عند الله.

١. الأنعام: ٥٩.

٢. الحديد: ٢٢.

٣. آل عمران: ١٥٤.

٤. الحجر: ٢١.

٥. الطلاق: ٣.

٦. القمر: ٤٩.

٧. إبراهيم: ٤.

٨. آل عمران: ٢٦.

النوع الثاني: من قبيل:

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^١.
- وقوله عز من قائل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^٢.
- وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^٣.
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^٤.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^٥.
- وقوله جل وعلا: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^٦.
- وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^٧.
- وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾^٨.

وهناك آيات أخرى يمكن ضمها إلى أي من النوعين.

ويبدو بين النوعين تعارض ظاهري يتطلب تأويل أحدهما.

وليس هذا التعارض صريحاً وإذا كان فهو تعارض من حيث اللوازم فكيف يمكن رفعه؟

ومن الواضح أن النوع الثاني يركز على المشيئة الإنسانية ويعطيها دورها في صنع

مستقبل الإنسان.

ولا ريب في إن هذا التشابه ناتج من التفسير الخاطيء وإلا فلا تعارض في كتاب الله

وهذا ما اثبتته العلماء^٩.

١. الرعد: ١١.

٢. النحل: ١١٢.

٣. العنكبوت: ٤٠.

٤. فصلت: ٤٦.

٥. الدهر: ٣.

٦. الكهف: ٢٩.

٧. الروم: ٤١.

٨. الشورى: ٤١.

٩. راجع ما ذكره الاستاذ المطهري بهذا الصدد وما ذكره هو خلاصة ما ذكره في كتابه (الإنسان والقدر): ٤٤.

القضاء والقدر

القضاء هو الحكم والقطع والفصل. وسمي القاضي بذلك لأنه يفصل بين المتحاكمين. وقد استعمل القرآن الكريم هذه اللفظة ناسباً أياها إلى الله تارة وإلى الإنسان أخرى، في مجال الفصل اللفظي كأن يوجب كلام ما فصلاً بين أمرين وفي مجال الفصل التكويني العملي. والقدر هو المقدار والتعين. وهذه الكلمة استعملت أيضاً في القرآن الكريم كثيراً بهذا المعنى. والحوادث الكونية من زاوية كونها تحت علم الله ومشيئته الحتمية تندرج تحت القضاء الإلهي، ومن زاوية كونها محددة بمقدار معين من حيث الموقع الزماني والمكاني تندرج في التقدير الإلهي. وما يمكن البحث عنه هنا هو أن الحوادث الكونية عموماً لا بد وأن تنطوي تحت أحد ثلاثة فروض:

أ- أنها لا ترتبط بالماضي المتقدم عليها تقدماً زمنياً أو غير زماني فلا يرتبط وجودها بسوابقه ولا ترتبط خصوصياتها بذلك أيضاً.

ومع هذا الفرض لا معنى للقضاء والقدر بعد انكار الترابط بين وجودها أو خصوصياتها الزمانية والمكانية وبين الماضي والتعيين المسبق. وعلى هذه النظرة يجب أنكار مبدأ العلية وقبول كمفسر لوجود الأشياء.

في حين أن مبدأ (العلية العامة) والترابط الضروري القطعي بين الحوادث، وأن كل حادثة تستمد حتميتها وقطعيتها وقدرها وخصوصياتها الوجودية من أمر أو أمور أخرى مقدمة عليها، أمر مسلم لا يقبل الرد.

إن مبدأ العلية، والضرورة العلية والمعلولية ومبدأ السنخية بين العلة والمعلول كل ذلك من العلوم البشرية المتعارفة بلا ريب^١.

ب - أن يقال بأن كل حادثة لها علة متقدمة عليها مع انكار نظام الأسباب والمسببات القائم بين الحوادث والقول بأنها كلها معلولة مباشرة لعدة واحدة هي الله تعالى فليس في العالم إلا علة وفاعل واحد وهو الذات الإلهية، ومنها تصدر كل الموجودات مباشرة وإن

١. يراجع الجزء الثالث من كتاب (أصول الفلسفة والمذهب الواقعي).

أرادته تتعلق بكل حادثة بشكل مستقل عن ارادته الأخرى؛ كأن نفرض الأمر هكذا: القضاء يعني العلم والإرادة الالهية بوجود أي موجود، وهو مستقل عن أي علم وقضاء آخر. وهنا يجب أن نسلم أن ليس هناك فاعل إلا الله فقد تعلق علم الله في الأزل بأن تقع الحادثة الفلانية في الوقت الفلاني، ولا بد من أن تقع تلك الحادثة، مع عدم تدخل أي شيء في وجودها، وأفعال الإنسان وأعماله من هذا القبيل، فإن الذي يوجد هذه الأفعال والأعمال مباشرة وبلا واسطة هو القضاء والقدر الالهي أي العلم والإرادة الالهيين. أما الإنسان نفسه طاقته وقوته فليس لها دخل في الأمر مطلقاً، وإن كان لطاقته وقوته دور ظاهري وتمثيل خيالي لا أكثر.

وهذا هو بعينه مفهوم الجبر والمصير المحتتم، وهذا هو الاعتقاد الذي لو حل في مجتمع أو الفكرة - بالاضافة لمفاسدها العملية والاجتماعية - مردودة منطقياً، فلا تردد من زاوية البراهين العقلية والفلسفية - كما هو مذكور في محله - في بطلان هذه الفكرة..

وأن الترابط العلي والمعلولي بين الحوادث مما لا يقبل الانكار، وليست العلوم الطبيعية والمشاهدات الحسية والتجريبية وحدها هي الدليل على نظام الأسباب والمسببات، بل أن العلم الالهي أقام أتقن البراهين على هذا الأمر. علاوة على أن القرآن الكريم قد أيد نظام الأسباب والمسببات كذلك.

ج - القول بأن مبدأ العامة ونظام الأسباب والمسببات حاكم على العالم وجميع الحوادث والوقائع فيه، فكل حادث فيه يكتسب ضرورة وجوده وشكله وخصوصياته الزمانية والمكانية وسائر الخصوصيات الوجودية من علله المتقدمة عليه، وأن هناك رابطة قوية لا تنفصم بين الماضي والحاضر والمستقبل، وبين كل موجود وعلله المتقدمة عليه.

وعلى هذا الأساس فإن مصير كل موجود بيد موجود آخر هو علته التي أوجبت وجوده وأعطته الحتمية والضرورة، ومنحته خصوصياته الوجودية، وإن تلك العلة بدورها معلولة لعلة أخرى، وهكذا.

وعليه: فإن لازم قبول مبدأ العلية العامة قبول أن كل حادثة تستمد حتمية وجودها وخصوصياتها وشكلها ومقدارها وكيفيتها من علتها... ولا يختلف الأمر هنا بين ما لو كنا إلهيين مسلكتاً، نؤمن بأن أصل كل الايجابيات (القضاءات) وأصل كل التعينات (أنواع

المقدر) هي علة العلل وبين ما لو كنا لا نعتقد بذلك ولا نعرف مثل هذه العلة الأولى. ولهذا فمن الزاوية العملية والاجتماعية لا فرق في هذه المسألة بين الالهي والمادي، ذلك لأن الاعتقاد بالقضاء والقدر يستمد مبرراته من الاعتقاد بمبدأ العلية العام ونظام الأسباب والمسببات سواء كان من يعتقدون مهذبن المبدأين من الالهيين أو من الماديين نعم، الفرق بينهما أن القضاء والقدر - في نظر المادي - أمر عيني خارجي صرف، في حين أن القضاء في نظر الالهي عيني وعلمي، بمعنى أن المادي يرى أن مصير أي موجود يعين لدى علة الماضية دون أن تعلم هذه العلة بما لديها من دور وخاصة، في حين يرى الالهي أن سلسلة العلل الطولية (أي العلل التي هي فوق الزمان) تعلم بعملها وخواصها. ومن هنا فإن هذه العلل تسمى في المدرسة الالهية بأسماء (الكتاب) (اللوحة) (القلم) وأمثال ذلك، مع أنه ليس هناك شيء في المدرسة المادية يستحق هذه الأسماء.

الجبر

من مجموع ما تقدم توفرننا على أن الاعتقاد بالقدر لا يعني الجبرية، بل إنما يستلزم ذلك لو لم نعط الإنسان أي دور في صنع السلوك، مسلمين اياه للقدر فقط. والحال أنه من أشد الممتنعات أن نقول أن الله تعالى يعلم كل شيء بلا واسطة بل أنه تعالى يوجب وجود كل الأشياء عن طريق عللها وأسبابها الخاصة.

إن القضاء والقدر لا يعينان إلا ابتداء نظام السببية العامة على أساس العلم والإرادة الإلهيين، ومن لوازم قبول مبدأ العلية وضرورة حصول المعلول عند حصول علته والسنخية بينهما أن نقول إن مصير أي موجود مرتبط بالعلل السابقة والمرتبطة به سواء وجد مبدأ إلهي أم لم يوجد، أي سواء أكان نظام السببية نظاماً مستقلاً وقائماً بذاته، أم كان قائماً بغيره ومستنداً للمشيئة الإلهية. ذلك أن كون النظام السببي مستقلاً وقائماً بذاته أو غير مستقل لا تأثير له على مسألة المصير والحرية الإنسانية. ومن هذا المعنى نقول أن غاية الجهل تكمن في القول بأن العقيدة الجبرية ناشئة من الاعتقاد بالقضاء والقدر الالهيين، ولذا فيجب أن تنقد هذه العقيدة لترتب تلك النتيجة عليها.

فإننا لو قصدنا من هذا الاعتقاد انكار التلاحم بين الأسباب والمسببات والمسببات منها

الطاقات الإنسانية والإرادة والاختيار فمثل هذا القضاء والقدر خرافة يستحيل وجودها بالأدلة القاطعة التي تقيمها الفلسفة الالهية بحيث لا مجال لأي شك أو تردد. وإن قصدنا منها الارتباط الحتمي للعلل بالمعلولات؛ فهي حقيقة مسلمة ولا تختص بالالهيين، بل يقول بها كل مذهب يؤمن بمبدأ العلية العامة، وإن كان التفاوت يكمن في أن الالهيين يصعدون بسلسلة العلل إلى حيث لا أبعاد زمانية ولا مكانية حيث تنتهي إلى علة العلل الواجبة الوجود أي الحقيقة القائمة بذاتها والتي تنتهي إليها كل أنواع القضاء (الضرورة) والقدر (التعيني) ولكن ليس لهذا التفاوت أي أثر في اثبات الجبر أو نفيه.

الحرية والاختيار

وهنا ينطرح هذا السؤال:

إذا جعلنا القضاء والقدر الإلهي مرتبطاً - مباشرة وبلا واسطة علل وأسباب - بالحوادث فأى معنى للحرية؟ وكيف نوفق بين الايمان بنظام العلية العامة والايان بحرية الإنسان؟ وهل نحن ملزمون لو أردنا التسليم بالحرية أن نفصل تماماً بين الأفعال الإنسانية وأية علة خارجية وهذا يعني قبول الفرض الأول فقط؟ وعند الجواب نقول:

إن هذا التساؤل هو الذي دفع الكثيرين من قدامى المفكرين ومحدثيهم للجوء إلى القول بـ (الارادة الحرة) حسب تعبيرهم والتي لا تتصل بأية علة. ومعنى ذلك أنهم قبلوا مبدأ الصدفة ولو في اطار الارادة الإنسانية، ولكننا أثبتنا في هوامش الجزء الثالث من كتاب (أصول الفلسفة) أن مبدأ العلية أمر لا يمكن انكاره أو تخصيصه، ولو قطعنا الروابط بين العمل الإنساني، والعلل المتقدمة عليه لوجب علينا أن نقبل أنه لا اختيار له.

إن الإنسان خلق مختاراً حراً، بمعنى أنه أُعطي فكراً واردة. فليس الإنسان في اعماله كالحجر تدحرجه فيتدحرج ويسقط متأثراً بجاذبية الأرض دون أن تكون له أية ارادة، أو كالنبات ليس له إلا طريق واحد فبمجرد توافر شروط معينة ينمو بالشكل المعتاد، أو كالحيوان الذي يؤدي أعماله بتأثير غريزي. كلا إن الإنسان يجد نفسه دائماً على مفترق طرق ليختار منها

أيها شاء بملء حريته، ووفق مشيئته ونوعية تفكيره، وليس مجبوراً على سلوك أحدها لا غير، وإنما الذي يعين أحد الطرق هو أسلوب فكره واختياره.

وهنا تبرز مقومات الشخصية والصفات الأخلاقية والروحية، والمسبقات التربوية والوراثية، والمقاييس العقلية والنظرات البعيدة للانسان، فيعلم إلى أي حد يرتبط المستقبل السعيد أو الشقي بتلك العوامل وبالتالي بالطريق الذي يختاره بنفسه. إن الفرق بين الإنسان والنار المحرقة والماء المغرق، والنبات النامي بل وحتى الحيوان الماشي هو عنصر الاختيار.. إذ كل هذه لا تنتخب طريقها في حين ينتخب الإنسان طريقه بحرية. فما أن يواجه سبلاً متعددة فإن ضرورة سلوك أحدها لا تستمد إلا من ارادته الشخصية.

الحتمي وغير الحتمي

جاء في الروايات الدينية والإشارات القرآنية حديث عن القضاء والقدر الحتمي والقضاء والقدر غير الحتمي وهي تعبر عن نوعين من القضاء والقدر: نوع قابل للتغير، وآخر محتم ضروري لا يقبل أي تغيير.

وهنا يبرز لنا سؤال حول معنى القضاء والقدر غير الحتمي. فإذا نظرنا إلى حادثة خاصة بعين الاعتبار قلنا أن العلم الأزلي أما أن يكون قد تعلق بها أو لم يتعلق، فإن لم يتعلق بها فليس هناك قضاء ولا قدر، وأن تعلق بها كان من الضروري لها أن تقع، وإلا لزم عدم مطابقة علم الله للواقع، وللزم تخلف المراد عن الإرادة الالهية، وهو مستلزم لنقصان ذات الحق سبحانه وتعالى. وبعبارة أدق وأشمل يقال: إن القضاء والقدر في الواقع عبارة عن انبعاث كل العلل والأسباب من ارادة الله ومشيئته وعلمه، وهو علة العلل وعليه فالقضاء - اصطلاحاً - هو العلم بالنظام الأحسن والذي هو منشئ وموجد ذلك النظام.

والكل في نظامه الكياني ينشأ من نظامه الرباني

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قانون العلية العامة - كما نعلم - يوجب الحتمية والضرورة حيث أن لازم قانون العلية أن يكون وقوع الحادثة عند تحقق شرائطها المخصوصة الزمانية والمكانية قطعياً وحتمياً ولا يقبل التخلف. تماماً كما أن عدم وقوعها عند عدم تحقق تلك الشرائط أيضاً حتمي ولا يقبل التخلف.

وتدين العلوم في كونها قطعية لهذا المبدأ. وإن قدرة التنبؤ العلمي هي بمقدار علمه بالعلل والأسباب. ولما كان القضاء والقدر يعني إيجاب الحوادث وتقديرها عن طريق العلل والمعلومات، وفي نظام الأسباب والمسببات فالقضاء والقدر هما عين الحتمية والضرورة. وعلى هذا فكيف يمكن تقسيم القضاء والقدر إلى حتمي وغير حتمي، أو إلى قابل للتغير وغير قابل له؟ وهنا يبدو لنا السير في طريق مسدود فيما أن لا نقول إلا بنوع واحد من القضاء والقدر كالأشاعرة ولا يقبل هذا النوع التغير والتبدل، ولا يختلف مصير الإنسان عما رسم له، ونكون بالتالي قد سلبنا الإنسان أي قدرة على تغيير مصيره وأيّ حرية وإرادة، وأما أن نكون - كالمعتزلة - منكرين للقضاء والقدر وتأثيرهما في الحوادث الكونية وعلى الأقل في الأفعال والأعمال الإنسانية. ويجب أن نلاحظ الآن أنه هل يوجد سبيل للخلاص من هذا التردد أم لا؟

وهنا علينا أن نلفت النظر إلى نقطة مهمة هي أنه كما أن نظرية الأشاعرة القائمة على أساس عدم قابلية القضاء للتبديل تسلتزم نفي القدرة والاختيار من الإنسان وعدم سلطته على مستقبله، فإن نظرية المعتزلة أيضاً ليست علاجاً ناجعاً لذلك، إذ بالإضافة للاشكالات القوية التي يوردها العلم الإلهي عليها من زاوية تنافياها مع التوحيد، نجدها لا تنفع في إرجاع القدرة والاختيار للإنسان، فحتى لو لم نقبل القضاء والقدر بالمفهوم الإلهي، فإننا سوف نقف حائرين أمام المفهوم المادي لهما أي التحكم القطعي الذي لا يتخلف لمداً العلية العامة، وحكومة النواميس الناشئة منه - كما يعبر الجبريون - .

وهل يمكننا انكار تأثير قانون العلية في مجرى الحوادث أو على الأقل في أفعال الإنسان؟! وقد فعل المعتزلة وأتباعهم ذلك فأنكروا مبدأ الضرورة العلية والمعلولية - في الفاعل المختار على الأقل - وقد تبنى بعض المفكرين الاوروبيين المحدثين نفس افكار المعتزلة في هذه المسألة وتحذثوا عن «الارادة الحرة» أي الارادة المتحررة من قانون العلية... حتى أنهم ادعوا أن قانون العلية إنما يصدق في العالم المادي المتشكل من الذرات أما في دنيا الروح وفي العالم الداخلي للذرات نفسه فانه غير صادق.

ونحن لا نستطيع هنا أن نجر البحث إلى قانون العلية وإنما نحيل القارئ الكريم على

هوامش الجزء الثالث من كتاب «أصول الفلسفة، والمذهب الواقعي» ونكتفي هنا بالقول بأن سبب تردد هؤلاء العلماء المحدثين في عموم قانون العلية هو أنهم ظنوا أن قانون العلية هو قانون تجريبي، ولذا فعندما عجزت التجارب العلمية البشرية عن كشف روابط العلية ووجود معلول معين على أثر علة معينة، تصور هؤلاء أن هذا المورد خارج عن مبدأ العلية. والحقيقة هي: أن فرض نشوء كل القواعد والقوانين العلمية عند الإنسان وتماثل تصوراته الذهنية من الاحساس والتجربة من أكبر الاشتباهات التي ابتليت بها المبادئ الفلسفية الغربية وسرت منها إلى المقلدين الشرقيين.

وعلى أي حال فإن انكاره العلية العامة أمر غير ممكن ومع قبوله يبقى الاشكال في معنى القضاء غير المحتم سواء قلنا بالتصور الإلهي للقضاء والقدر الإلهي أو لم نقل. وخلاصة الاشكال أن كل حادثة - ومن الحوادث أفعال الإنسان - تصبح حتمية (مقضية) إذا توفرت عللها وأسبابها، وأنها تكتسب حدودها ومشخصاتها من ناحية هذه العلل والأسباب (القدر). فالعلة مساوية للحتمية واستحالة التخلف، فلا يمكن التغيير والتبديل.

ومن هنا فإن كل من اعترفوا بمبدأ العلية العامة - ومنهم الماديون - مبتلون بالإشكال والسؤال لأنهم قبلوا الضرورة والعلية والمعلولية (الديترماتيزم) من جهة، ومن جهة أخرى نجدهم يجعلون المصير الإنساني قابلاً للتغيير، ويعطون الإنسان دور المسلط على مصيره. وعليه فإن نظرية المعتزلة المبنية على نفي القضاء والقدر بالمفهوم الإلهي أي نفي شمول الارادة الالهية واحاطتها بكل الحوادث الكونية ونفي أن يكون العلم الإلهي مبدأ للنظام العام، هذه النظرية لا تنفع علاجاً للمشكلة المستعصية.

توهم المستحيل

إذا كان المقصود من التغيير والتبديل في القضاء والقدر غير الحتميين من الجانب الالهي هو أن العلم والارادة الالهية توجب شيئاً ثم يقوم عامل آخر مستقل لم ينشأ من القضاء والقدر بايجاده بالشكل المخالف للمشيئة والارادة والعلم الإلهي، أو يقوم ذلك العالم المستقل الخارجي بتبديل العلم والمشيئة الإلهية فان هذا محال.

وكذلك من زاوية العلية العامة إذا كان المقصود أن العلية العامة توجب شيئاً ثم يوجد عامل في قبال هذه العلية يمنعها من التأثير فهذا محال أيضاً.

ذلك أن كل العوامل في الوجود تنشأ من علم الله وإرادته، وأن كل عامل يبدو في العالم ما هو إلا مظهر لعلم الله وإرادته، وآلة لتنفيذ قضائه وقدره.

وكذلك فإن كل عامل نأخذه بعين الاعتبار هو محكوم بقانون العلية ومظهر من مظاهره ولا معنى لتصور قيام عامل ليس مظهراً لتجلي الارادة الإلهية وآلة لتنفيذ قضائها وقدرها، أو تصور عامل خارج عن قانون العلية ومقابل في التأثير له. فالتغيير والتبديل في المصير بمعنى قيام عامل في قبال القضاء والقدر أو في قانون العلية؛ أمر محال.

الحقيقة الممكنة

أما تغيير المصير بمعنى أن يكون سبب التغيير هو بنفسه من مظاهر القضاء والقدر وحلقة من حلقات العلية، أي تغيير المصير بموجب المصير وتبديل القضاء والقدر بحكم القضاء والقدر، فرغم أنه أمر يبدو غريباً ومشكلاً إلا أنه حقيقة واقعة.

والأعجب منه ما لو ركزنا النظر على القضاء والقدر من الوجهة الالهية. لأن تغيير القضاء والقدر من هذه الوجهة يلبس لبوس التغيير في العالم العلوي والألواح والكتب الملكوئية والعلم الإلهي! وهل يمكن التغيير في العلم الإلهي؟! ويصل العجب أقصاه عندما نتصور الحوادث الدانية وخصوصاً الارادة والأفعال الإنسانية مسببة لتغييرات، ومحو وإثبات في العالم العلوي وبعض الألواح التقديرية والكتب الملكوئية.

أليس النظام السفلي والعيني ناشئاً من النظام العلوي والعلمي ومنبعثاً منه؟ أليس العالم السفلي دانياً والعالم العلوي عالياً؟ أليس عالم الناسوت محكوماً لعالم الملوكوت؟ وهل من الممكن أحياناً في قبال ذلك أن يترك النظام السفلي - أو على الأقل قسم منه أي العالم الإنساني - آثاره في النظام العلوي والعلمي ويسبب تغييرات معينة فيه، ولو كانت هذه التغييرات نفسها بموجب القضاء والقدر؟

وهنا تتابع الأسئلة العجيبة وتبرز على ساحة الفكر... فهل أن علم الله يقبل التغيير؟! أو

يقبل حكم الله النقض؟! وهل يمكن للداني أن يؤثر في العالي؟! والجواب على كل هذه الأسئلة هو بالإيجاب: نعم؛ ولما كان هذا البحث عميقاً ويستلزم تبين مسألة (البداء) التي تحدث عنها القرآن الكريم عندما قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فلن نفصل القول، ولكن نقول إجمالاً:

إن الموجودات على قسمين: ما فيه إمكان نوع خاص من الوجود كالمجردات العلوية، وما فيه إمكان أكثر من نوع كالماديات التي تقبل الصور المختلفة فتعطيها بعض العوامل طاقة وتؤثر فيها العوامل الأخرى ضعفاً كالبدرة حينما تواجه جواً مناسباً أو آفة قاتلة. وعليه فالقضاء في الموجودات العلوية حتمي لأنها معلولة لعلتها الوحيدة ولكن الماديات تتعامل مع علل مختلفة فلها مصائر متنوعة فلعلة خاصة يمرض الإنسان ويأتي الدواء فيغير المصير.

وعليه فهناك أنواع من المصير والقضاء والقدر وسر الأمر أن القضاء ليس عاملاً إلى جانب العوامل الأخرى بل هو مبدأ لكل العوامل الكونية. إن الأعمال الإنسانية من الحوادث غير الحتمية بل ترتبط بالآلاف العوامل ومنها الإرادات الإنسانية فكل العلل والأسباب مظاهر القضاء والقدر بها تتكثر النتائج. وإذا لاحظنا صدر الإسلام رأينا المسلمين يتمتعون بهذه النظرة.

ومما ينقل عن الإمام علي عليه السلام أنه كان تحت حائط آيل فقام منتقلاً إلى حائط آخر فقيل له أنفر من قضاء الله؟ فقال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله. وهناك تفصيلات ترك إلى محلها. إن القرآن يقول من جهة ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^١.

ويقول من جهة أخرى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^٢.

فالقدر كما يعبر العلامة الطباطبائي هو هندسة الوجود نفسه والنظم القائمة لا تقبل

١. الأنعام: ٥٩.

٢. الرحمن: ٢٩.

التغيير ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^١.

ويمثل السيد الخوئي لذلك بـ (أن الإنسان يدرك بفطرته ذلك وهو أنه قادر على أن يفعل أولاً، وقد أطبق العقلاء على ذم المفسد ومدح المصلح فلو كانت يد إنسان ما شلاء ولكن إن أوصل إليها تيار كهربائي قدر على أن يستعملها وحينئذٍ يمكنه أن يعمل الخير أو الشر ويمكن نسبة النتيجة إليه وإلى الموصل الكهربائي معاً^٢. وجاء في الكافي والتوحيد للصدوق أن الإمام الصادق سئل: أجبر الله على المعاصي؟ قال: لا، قيل ففوض إليهم الأمر فقال: لا قيل فماذا؟ قال: لطف من ربك بين ذلك) فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين. ويمكن بالتالي أن نقول: إن الله تعالى شاء أن يكون الإنسان حراً وأن تدخل إرادته الحرة في عملية صنع المصير.

النموذج الثالث: هل المعاد جسماني أو روحاني؟

ما يبدو من كلام العلامة الطباطبائي في تفسير (الميزان) يمكن تلخيصه في أمور أربعة^٣:
الأول: إن المادة لا تنحصر بالمصاديق الطبيعية فهناك مواد غير طبيعية وغير دنيوية وغير عنصرية^٤.

الثاني: إن حقيقة الإنسان تتمثل في الروح (الانا) وهو محفوظ عند الله تعالى^٥.

الثالث: إن البدن فرع للروح تابع لها تبعية الظل^٦.

الرابع: إن هناك تماثلاً بين بدني الإنسان الدنيوي والأخروي ولكنها ليسا عين الآخر؛ إذ للإنسان نشأة أخرى في الآخرة^٧.

١. الأحزاب: ٦٢.

٢. تفسير البيان: ٨٦.

٣. يراجع كتاب (المعاد الجسماني في الحكمة المتعالية): ٦٦٦.

٤. الميزان ج ١ المقدمة ص ٧.

٥. ن. ج ٧ ص ١٣٣، ج ١٣ ص ٢٢٤.

٦. ن. ج ٢ ص ٣٩٨.

٧. ن. ج ١٩ ص ١٥٢.

والنتيجة من هذه الأمور هي أنه كان يؤمن بالمعاد الجسماني ولكن ببدن يماثل البدن الدنيوي. وهو ما يقول به الفيلسوف الملا صدرا الذي دفع علماء آخرين لاتهامه بمخالفة الظاهر القرآني بل وتكفيره.

وعلى أي حال فإن النزاع يبدو مردداً بين فروض ثلاثة.

الأول: أن يكون المعاد روحانياً.

الثاني: أن يكون المعاد جسمانياً في بدن هو عين البدن الدنيوي.

الثالث: أن يكون المعاد جسمانياً في بدن هو مثل البدن الدنيوي.

أما الفرض الأول فقد نسب إلى الفارابي وابن سينا عدم قدرة العقل على اثباته وإن اتبعوه شرعاً وهو رأي مرفوض من قبل الحكماء والمفسرين لمخالفته للظواهر القرآنية قطعاً كما سيبدو. أما الرأيان الثاني والثالث فهما يتفقان على إمكان المعاد الجسماني عقلاً ودلالة الظواهر القرآنية عليه ولكنها يختلفان في البدن الذي تدخله الروح الإنسانية في يوم القيامة هل هو عين البدن الدنيوي أو هو مثله وقد اصر المرحوم الاستاذ المطهري على الرأي الأول لأنه هو الموافق للظواهر القرآنية^١.

والذي يبدو أن الاختلاف في نوع الاستظهار من الآيات هو سر الخلاف.

فلنذكر بعضها ونحاول معرفة ظهورها بالتالي:

١ - ﴿أَيَّدَا مِثْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَثْنًا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٠﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١١﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وهنا يقول الطباطبائي: (فإن استبعاد الكفار مبني على أن حقيقة الإنسان هو البدن الذي يتلاشى ويفسد بالانحلال بعد الموت فيضل في الأرض والجواب مبني على كون حقيقته هو الروح)^٣. فالجواب القرآني بـ (نعم) يركز على إعادة الروح ولا ينظر لكيفية إعادة أهي عين البدن أو مثله؟

١ . مجموعة كتابات الشهيد ٤: ٧٩٢.

٢ . الصافات: ١٥-١٨.

٣ . الميزان ٧: ١٣٤.

٢- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿١﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٣﴾﴾ .

والتساؤل الإنكاري ينصب على الإدانة يوم القيامة، ولا ينظر إلى متعلق الإدانة وهل هو عين البدن الدنيوي أو مثله؟

٣- ﴿وَكَاثِرُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٣﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٤﴾﴾ .

والآية تركز على جميع الناس، ولا تذكر مطلقاً كيفية الحشر فهي بأبدان دنيوية أو مثلها أخروية؟

٤- ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١﴾﴾ .

وربما كان في تعبير (خلقاً جديداً) إشارة إلى المثلية ولكنها من كلام المنكرين ولا تدل على ما سيقع.

٥- ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴿٢﴾﴾ .

والذي يبدو هنا أن المراد بيان قدرة الله على أن يخلق مثلهم فهو أمر ممكن لله تعالى الذي خلق الكون، ولا تنظر إلى العينية أو المثلية.

٦- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَدَسَّىٰ خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٢﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ .

وهنا قد يقال إن الإحياء إعادة نفس الأجسام الميتة ولكن يقال في الجواب إن غاية ما يستفاد هو المعاد الجسماني أما كيفية المعاد فلا تدل عليه الآية ولا تنظر إليه.

١. الصافات: ٥١-٥٣.

٢. الواقعة: ٤٧-٥٠.

٣. الإسراء: ٤٩.

٤. الإسراء: ٩٨-٩٩.

٥. يس: ٧٧-٧٩.

٧- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾^١.

قد يقال: إنها ظاهرة في البدن العنصري الدنيوي الذي دفن في القبر والآن ينسل إلى ربه. ولكن الظاهر أن التركيز على هوية المدفون (الأنا) وليس الجسد فلا مانع من أن يعيشوا (هم) في بدن مثل بدنهم وهكذا قل عن الآيات الأخرى. (البقرة: ٢٥٩، البقرة: ٢٦٠، القيامة: ١-٥، المؤمنون: ٣٥، النمل: ٦٧، الحج: ٧، النساء: ٥٦، فصلت: ٣٩، البقرة: ٧٣، الاحقاف: ٤٣، القيامة: ٤٠، الروم: ٥٠، الحج: ٦) ولكن يجب التركيز على قوله تعالى: ﴿نُنشئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٢.

وقد قيل: إنه يدل على نفي العينية لأنها مما نعلم ولكن قد يقال: إن المراد أنكم لا تعلمون عملية الانشاء.

وعلى أي حال؛ فاننا نستطيع أن ندعي أنه لا توجد أية محكمة تدل على أحد الرأيين دون الآخر ولكنها جميعاً تدل على أصل المعاد الجسماني لا الروحاني.

١. يس ٥١-٥٢.

٢. الواقعة: ٦١.

الفصل الخامس: القرآن ذكر الهي سالم من التحريف

ولاريب لدى المسلمين جميعاً في سلامة القرآن الكريم من التحريف بالزيادة، وأما التحريف بنقصان بعض نصوصه فقد اتَّجه معظم المسلمين لرفضه أيضاً ولكن ظهرت هناك أقوال تخالف ذلك الاتجاه العام للمسلمين هي:

الأول: القول بنسخ التلاوة.

الثاني: القول بسقوط شيء منه وهو ما نسب إلى بعض المحدثين الشيعة، وحشوية السنة.

الثالث: القول بالحديث بأن النص القرآني مصوغ من قبل النبي ﷺ بعد تشبعه بتعاليم السماء^١.

أما القول الأول فيقتضي التأمل في موارد المذكورة القول بالتحريف^٢.

ويأتي الكلام عن القول الثاني بشيء من التفصيل.

أما القول الثالث: فهو يبدو من الوهن بمكان؛ إذ ترفضه الآيات نفسها حيث تقول:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^٣.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^٤.

١. ذكره الدكتور سروش أخيراً في كتاباته. ومال إليه من شد من قبل (راجع بحوث السيد الزرندي ص ٩٠)

٢. راجع (البيان في تفسير القرآن): ٢٠١ - ٢٠٦، وراجع ص ١٦٩ - ١٧٠ من هذا الكتاب.

٣. سورة الشورى: ٧.

٤. سورة النجم: ١٠.

- ﴿وَإِنَّكَ لَلْأَعْيُنِ لَأَلْفَلَقِي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^١.
- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^٢.
- ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۗ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾^٣.
- ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^٤.
- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾^٥.
- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^٦.
- ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾^٧.
- ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾^٨.
- ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾^٩.
- ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^{١٠}.
- ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^{١١}.
- ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^{١٢}.

فالقرآن موحى من الله، متلقى من قبل النبي وهو ينطق بالوحي، ويتلو القرآن المنزل من الله بالحق، جمعه الله وعلم رسوله قراءته، فهو يقرأ ما علمه الله بإرادة الله، وهو يتلو آيات الله التي تلاها عليه الله بالحق، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم نوراً

١ . سورة النمل: ٦.

٢ . سورة النجم ٣ - ٤.

٣ . سورة النمل ٩١ - ٩٢.

٤ . سورة إبراهيم: ١.

٥ . سورة الإسراء: ١٠٥.

٦ . القيامة: ١٧ - ١٨.

٧ . الإسراء: ١٠٦.

٨ . يونس: ١٦.

٩ . آل عمران: ١٠٨.

١٠ . النساء: ١١٣.

١١ . المائدة: ١٥.

١٢ . هود: ١.

وكتاباً مبيناً أحكم الله آياته ثم فصلها وهو الحكيم الخبير.

فهل يجوز لفرد أن يقول ما قاله هؤلاء المتأثرون بالقراءات الغربية؟

وربما استدل بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^١.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾^٢.

ولكن ظاهر الآيتين نزول القرآن بألفاظه ومعانيه على قلبه الشريف.

ثم إن هناك فرقاً كبيراً بين كلام النبي ﷺ وخطبه وبين القرآن الكريم بلا ريب.

فلا يستحق هذا الرأي مناقشة، وإنا نعتبره ناتجاً من تأثر صاحبه بمناهج المستشرقين وبالهرمنوطيقيا الغربية المسيحية التي حاولت أن تفسر ما جاء في الإنجيل من آراء تخالف العقل بتفاسير وهمية.

وأما القول الثاني فقد تمّ التسالم على رفضه بعد وضوح أدلة الرفض، ونسهب الكلام فيه لكثرة ما ورد من اتهام للشيععة بالذهاب إليه.

والحقيقة أن على المسلمين نبذ هذا القول وعدم تبادل الاتهام فيه بنسبته إلى الآخر؛ لأن ذلك بطبيعة الحال يؤدي إلى التشكيك في أروع كتاب مسند إلى الله تعالى تملكه البشرية، بعد أن تسالم اليهود والنصارى على أن المعروف من الإنجيل والتوراة هي ثمار أفكار بشرية ادعي أنّها تشربت بتعاليم الإنجيل والتوراة الحقيقيين، فالموجود منها ثمار أفكار بشرية، أما القرآن الكريم فهو النص الإلهي الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأي تشكيك فيه تشكيك في هذه الذخيرة الإلهية العظمى، وبالتالي فهي جريمة لا تغتفر إن كانت مقصودة وغير ناتجة عن الغفلة. ذلك للأدلة القرآنية من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٣.

١. البقرة: ٩٧.

٢. الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.

٣. سورة الحجر: ٩.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾^١.

وكذلك تعضدها الأدلة الأخرى، كل ذلك ينفي هذه الشبهة.

وعلى أي حال؛ فان نسبة القول بالتحريف إلى الشيعة مما لا قيمة له.

يقول الإمام الخوئي: المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن، وأن الموجود بأيدنا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم ﷺ، وقد صرح بذلك كثير من الأعلام (الشيعة) منهم:

- رئيس المحدثين الصدوق بن بابويه، وقد عد القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية.

- ومنهم شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، وصرح بذلك في أول تفسيره (البيان)، ونقل القول بذلك أيضاً عن شيخه علم الهدى السيد المرتضى واستدلّاه على ذلك باتم دليل.

- ومنهم شيخ الفقهاء الشيخ جعفر في كتابه (كشف الغطاء) وادّعى الإجماع على ذلك.

- ومنهم العلامة الجليل الشهشهاني في بحث القرآن من كتابه (العروة الوثقى) ونسب القول بعدم التحريف إلى جمهور المجتهدين.

- ومنهم المحدث الشهير المولى محسن القاساني في كتابه^٢.

- ومنهم بطل العلم المجاهد الشيخ محمد الجواد البلاغي في مقدمة تفسيره (آلاء الرحمن).

ويقول الإمام الخوئي: «وجملة القول: إن المشهور عليه بين علماء الشيعة ومحقيهم بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف»^٣.

وقد ناقش بعد ذلك روايات ذكر فيها التحريف واستخلص منها انها تشير إلى اختلاف

١ . سورة فصلت: ٤١ - ٤٢ .

٢ . الوافي ١: ٢٧٤ وعلم اليقين ١: ٥٦٥ .

٣ . البيان: ٢٠٠ - ٢٠١ .

القراء، أو إلى حمل القرآن على غير معانيه وامثال ذلك، كما ضعّف رواة بعضها حيث قال: إن كثيراً من هذه الروايات... نقلت من كتاب أحمد بن محمد السيارى الذي اتفق علماء الرجال على فساد مذهبه وانه يقول بالتناسخ، ومنهم علي بن أحمد الكوفي الذي ذكر علماء الرجال أنه كذاب وأنه فاسد المذهب^١.

وسنذكر في ما يلي قائمة من العلماء الشيعة على مر العصور وهم يرفضون التحريف.

القرآن الكريم كما تصوّره روايات أصول الكافي

تتكون الشخصية الإنسانية من منظومة عقديّة وتركيبة نفسية عاطفية تؤدي عند تصاعدها إلى تكوين إرادة وعزم يحرك السلوك الواعي المحقق للهدف. ويعمل الإسلام بمقتضى واقعيته وفطريته على الاهتمام بكل هذه الأبعاد ليضمن انسجام الإنسان مع المسيرة التي تحقق له أهداف خلقته كما أرادها الله سبحانه لها. وهذا هو ما نشهده في النصوص القرآنية الكريمة والسنة النبوية الشريفة. يقول الإمام علي عليه السلام: «العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء»^٢.

ولما كانت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إنما تعبر عن القرآن والسنة النبوية أروع تعبير كما يبدو من استعراضها أولاً ومن تأكدهم بكل وضوح في أحاديثهم الثابتة على ذلك^٣ ثانياً، فإننا نجدهم: يركّزون على تلك الأبعاد وصياغتها الصياغة المطلوبة. وقد اخترنا أن نركز في مقالنا على كتاب (الكافي) باعتباره من أقدم المصادر الحديثية، إذ يعود تأليفه إلى القرن الرابع الهجري، ومن أهمها لدى الإمامية لما يشتمل عليه من روايات كثيرة هي محط اهتمامهم واعتمادهم.

ورغم أننا لا نؤمن بصحة كل ما رواه المرحوم الكليني عليه السلام فإننا سنفترض هنا الاعتماد على

١. نفس المصدر: ٢٢٦ و ٢٢٩. وانظر: تحريف القرآن اسطورة أم واقع.

٢. بحار الأنوار ١: ٩٦.

٣. وسائل الشيعة ١٨: ٥٨ والكافي ١: ٥٣.

هذه الروايات، لأنه ﷺ صرّح في مقدمته بأنّه نقلها عمّن يثق بعلمه استجابة للسائل، وإن كان ذكر بعضها في النوادر، ومن المعروف لزوم الأخذ بالمجمع عليه دون الشاذ النادر، كما جاء في الروايات^١. وسنشير في الخاتمة إلى هذا الأمر. ونحن بصدد الوصول إلى الصورة التي تتكوّن من اتباع هذه الروايات عن القرآن الكريم في خلد المسلم العامل به. ولعل أهم ما في أصول الكافي مشيراً إلى هذه الصورة جاء في باين هما:

١- باب الدعاء، وبالخصوص الدعاء عند قراءة القرآن، وحفظه^٢.

٢- باب فضل القرآن^٣.

فهنا إذن محط إشارتنا، وسنسير هنا وفق ثلاثة خطوط كما يلي:

أولاً: القرآن الكريم والعقيدة والمفاهيم المنبثقة عنها

وهنا ترسم الروايات أروع صورة عقديّة خالصة عن أصول العقيدة وأهمها التوحيد، وما يتبعه من تصور للصفات الإلهية، فتؤكد أن الإمام الصادق عليه السلام كان يدعو عند قراءة كتاب الله عز وجل قائلاً:

«اللهم ربنا لك الحمد، أنت المتوحد بالقدرة والسلطان المتين، ولك الحمد، أنت المتعالي بالعز والكبرياء، وفوق السماوات والعرش العظيم، ربنا ولك الحمد أنت المكتفي بعلمك، والمحتاج إليك كل ذي علم، ربنا ولك الحمد يا منزل الآيات والذكر العظيم، ربنا فلك الحمد بما علمتنا من الحكمة والقرآن العظيم المبين، اللهم أنت علمتنا قبل رغبتنا في تعليمه، واختصصتنا به قبل رغبتنا بنفعه، اللهم فإذا كان ذلك منّا منك وفضلاً وجوداً ولطفاً بنا ورحمة لنا وامتناناً علينا من غير حولنا ولا حيلتنا ولا قوتنا، اللهم فحجب إلينا حسن تلاوته وحفظ آياته وإيماناً بمتشابهه وعملاً بمحكمه، وسبباً في تأويله، وهدى في تدبيره وبصيرة بنوره، اللهم وكما أنزلته شفاء لأولياك، وشقاء على أعدائك، وعمى على أهل معصيتك،

١. راجع مثلاً: بحار الأنوار ٢: ٢٢١، ٢٤٥، و١٧: ١٤٩، و٣: ٥٨ و... .

٢. الكافي ٢: ٥٧٣، ٥٧٦.

٣. نفس المصدر: ٥٩٦.

ونوراً لأهل طاعتك، اللهم فاجعله لنا حصناً من عذابك، وحرزاً من غضبك، وحاجزاً عن معصيتك، وعصمة من سخطك، ودليلاً على طاعتك، ونوراً يوم نلقاك نستضيء به في خلقك، ونجوز به على صراطك، ونهتدي به إلى جنتك^١. وواضح التركيز العقائدي على التوحيد بمعانيه، والصفات الإلهية الحسنى، من الحياة والقدرة والعلم والغنى والحكمة واللطف والرحمة وغيرها، والتركيز على الإيمان بالرسالة عبر إنزال القرآن، وعبر التمسك به واستمداد الهدى منه واللجوء إليه استعداداً للآخرة والجواز على الصراط والتنعم بالجنة.

ومن هذا المنطلق العقائدي الرصين، تدفق المعاني والتوجيهات الكثيرة ومنها:

أ- إنَّ القرآن يفتح آفاق العلم والمعرفة، حيث تأتي الاستعاذة من الشقاء في حمله والعمى عن علمه والجور عن حكمه والعلو عن قصده، والتقصير دون حقه^٢. ويستمر الدعاء على هذا النحو: (اللهم اجعل لقلوبنا ذكاء عند عجائبه التي لا تنقضي، ولذاذة عند ترديده وعبرة عبر ترجيعه ونفعاً بيناً عند استفهامه... اللهم اجعله لنا زاداً تقويناً به في الموقف بين يديك، وطريقاً واضحاً نسلك به إليك، وعلماً نافعاً نشكر به نعماءك)^٣.

وتقول الرواية في موضع آخر: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل الإنسان على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أتيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائب، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من نشب، فإن التفكير حياة البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربُّص»^٤.

١. نفس المصدر: ٥٧٤.

٢. نفس المصدر: ٥٩٩.

٣. نفس المصدر: ٥٩٩.

٤. نفس المصدر: ٥٩٩.

ويقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر فيها»^١.

ب - القرآن هو الحجة المنجزة والمعذرة ومعيار الحق. والروايات كلها تشع بهذا الأمر، ومنها قوله: «فإنك اتخذت به علينا حجة قطعت به عذرنا، واصطنعت به عندنا نعمة قصر عنها شكرنا، اللهم اجعله لنا شافعاً يوم اللقاء، وسلاحاً يوم الارتقاء، وحجيجاً يوم القضاء»^٢.

ج - هو الصورة الأسمى للإنسان الكامل، حيث تذكر الروايات أن القرآن سيتمثل بشكل مجسد يوم القيامة، فيظنه المسلمون والشهداء والنبيون والملائكة أنه رجل منهم^٣.
د - هو معيار دقيق للفهم التاريخي السليم^٤. فمن خلال ما يشير إليه من سنن يمكن اكتشاف الحقائق التاريخية.

هـ - القرآن جامع لتعاليم الأنبياء ومهيمن على الكتب السابقة^٥.

إلى ما هنالك من تصورات تؤكدها النصوص.

ثانياً: القرآن الكريم وتربية المشاعر

والنصوص في هذا المورد حافلة بالمعاني متنوعة الأساليب إلى حد معجز، تعمق القرآن في المشاعر، وتربط التأثيرات بالمعاني أروع ربط، وتؤكد على قراءته وحفظه والتفاعل مع معانيه. فلنتابع بعض هذه النصوص بكل تأمل ووعي:

في دعاء الإمام الصادق عليه السلام عند قراءة القرآن نلاحظ هذا المقطع:

«اللهم ارزقنا حلاوة في تلاوته، ونشاطاً في قيامه ووجلاً في ترتيله، وقوة في استعماله في آناء الليل من رقاد الراقدين، ونبهنا عند الأحايين التي يستجاب فيها الدعاء من سنة الوسنانين»^٦.

١. نفس المصدر: ٦٠٩.

٢. نفس المصدر: ٥٧٥.

٣. نفس المصدر: ٥٩٦ و ٦٠١ و ٦٠٢.

٤. نفس المصدر: ٥٩٩.

٥. نفس المصدر: ٦٠١ ح ١٠.

٦. نفس المصدر: ٥٧٤.

وبعد أنواع عظيمة من القسم بأسماء الله، يسأل الداعي ربّه قائلاً: «أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن ترزقني حفظ القرآن وأصناف العلم، وأن تثبتها في قلبي وسمعي وبصري، وأن تخالط بها لحمي ودمي وعظامي ومخي، وتستعمل بها ليلي ونهاري برحمتك وقدرتك»^١. وفي دعاء آخر: «وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن اتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم نور بكتابك بصري، وشرح به صدري، وفرح به قلبي، وأطلق به لساني، واستعمل به بدني»^٢.

وفي الرواية قال رسول الله: «تعلموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له القرآن: أنا الذي كنت قد أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك وأجففت ريقك وأسلت دمعك، أوول معك حيثما ألت»^٣.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه وجعله الله عز وجل مع السفرة الكرام البررة»^٤.

ويقول عليه السلام: «ومن أوتي القرآن فظن أن أحداً من الناس أوتي أفضل ما أوتي فقد عظم ما حقر الله وحقر ما عظم الله»^٥.

«وقارئ القرآن في تطور مستمر فهو حال مرتحل»^٦.

«وحملة القرآن عرفاء أهل الجنة»^٧.

ويأتي التأكيد على ختم القرآن وتنوير البيوت بالقرآن^٨.

والحث على قراءته في كل حال^٩.

١. نفس المصدر: ٥٧٦.

٢. نفس المصدر: ٥٧٧.

٣. نفس المصدر: ٦٠٣.

٤. نفس المصدر: ٦٠٣.

٥. نفس المصدر: ٦٠٤.

٦. نفس المصدر: ٦٠٥.

٧. نفس المصدر: ٦٠٦.

٨. نفس المصدر: ٦١٠.

٩. نفس المصدر: ٦١١.

وختم القرآن في مكة خلال أسبوع^١.

وترتيل القرآن بصوت حسن^٢.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلاً، فإذا مررت بأية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله عز وجل الجنة، وإذا مررت بأية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار»^٣.

ثم يأتي ذكر فضل قراءة السور^٤.

ثالثاً: القرآن والسلوك

وبطبيعة الحال يأتي تأطير كل السلوك بإطار القرآن فيجعل معياراً عاماً له وضابطاً لكل حركة: فيقول الإمام في الدعاء: «اللَّهُم اجعلنا نتبع حلاله ونجتنب حرامه ونقيم حدوده ونؤدِّي فرائضه»^٥.

وفي مقطع آخر: «اللَّهُم اجعله لنا ولياً يثبتنا من الزلل ودليلاً يهديننا لصالح العمل، وعوناً هادياً يقومنا من الميل حتى يبلغ بنا أفضل الأمل»^٦.
ويقول الصادق عليه السلام: «وهو الدليل يدل على خير سبيل»^٧.

وخلاصة الأمر

أنَّ روايات الكافي تربي الإنسان القرآني الكامل، تصوغ له عقيدته ومفاهيمه القرآنية، وتزكيه وتربيه على التخلق بأخلاقه والتفاعل معه، كما أنَّها تعطيه الإطار القرآني للسلوك، فالقرآن حينئذ كل شيء في حياته: يسمع به ويصبر به وينطق به.

١. نفس المصدر: ٦١٢.

٢. نفس المصدر: ٦١٤.

٣. نفس المصدر: ٦١٧.

٤. نفس المصدر: ٦١٩ فما بعدها.

٥. نفس المصدر: ٥٧٤.

٦. نفس المصدر.

٧. نفس المصدر: ٥٩٩.

ومع كل ما سبق نجد أنّ المرحوم الكليني عليه السلام يعطي القرآن في كتابه أعظم المقام ويحله أكبر الإجلال ويدفع الأجيال وخصوصاً أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام لبناء أنفسهم وفقه وتصحيح كل تصوراتهم بمعياره والتفاعل معه كل التفاعل.

ومع هذا لا يبقى مجال للاستماع إلى تهمة موجهة إليه عليه السلام من أنّه شكك في حجّيته، أو آمن بتحريفه، وبالتالي خرج على الإجماع الإسلامي بسلامته من التحريف وأنّه ذكر الهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن الله تعالى هو الذي نزلّه، وهو الذي تكفّل بحفظه. فإنّ كل هذه النسب لا يبقى لها مجال. ولكن لتعرض إليها عرضاً ونقول الحق دفاعاً عن هذا العالم النحرير والمحدث الجليل.

الشيخ الكليني والتحريف

تعد نسبة القول بالتحريف لشيخنا الكليني من أخطر التهم الموجهة إليه. وهذا الخطأ ارتكبه المرحوم الفيض الكاشاني حيث قال: «فالظاهر من ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني طاب ثراه أنّه كان يعتقد التحريف والنقصان في القرآن»^١.

الأمر الذي أدّى إلى نتيجة أكثر خطراً وهي (التكفير) حيث استند الشيخ محمد أبو زهره إلى هذه النسبة وأقدم على تكفيره قائلاً: «ومن الغريب أنّ الذي ادعى هذه الدعاوى الكليني، وهو حجة في الرواية عندهم، وكيف تقبل رواية من يكون على هذا الضلال، بل على هذا الكفر المبين»^٢.

والحقيقة هي أنّ المرحوم الكليني لم يصرح بذلك أبداً، ونقله لبعض الروايات في باب (أنّه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة)^٣.

لا يعني الايوان بالتحريف، ورواياته إنّما تركز على الاختلاف في كيفية ترتيب النزول، وجمع القرآن، وعلم القرآن وتفسيره وهي بعيدة عن التحريف.

١. تفسير الصافي ١: ٥٢.

٢. الإمام زيد: ٣٥١.

٣. أصول الكافي ١: ٢٢٨.

وكذلك باب (النوادر في فضل القرآن)^١. ورواياته بين مؤكدة على حفظ الحروف وتضييع المعاني، وبين التركيز على أن علمهم: بتفسير القرآن وعلومه أكثر من غيرهم. وكل هذا لا يعني الالتزام بالتحريف. ثم إنه موسوعي ينقل الروايات التي يعتمد على إسنادها ولا يعني ذلك الإيثار بكل مضامينها، خصوصاً وأنه نقلها في باب (النوادر) مما يجعلها مشمولة لمنهج الواضح في رفض الشاذ النادر عملاً برواية (ودع الشاذ النادر)^٢. والأهم من ذلك أنها لا تدل على التحريف وإنما على اختلاف في تحديد الآيات، أو على التحريف المعنوي كما دلت عليه رواية أخرى نقلها المرحوم إذ تقول: «وكان من نبههم الكتاب أنهم أقاموا حروفه وحرفوا حدوده»^٣. أو على الاختلاف في ترتيب الآيات وما إلى ذلك. أما (التكفير) فهو أمر تسرع فيه الشيخ أبو زهرة، فظلم المرحوم الكليني بذلك. وناقش الأمر المرحوم استأذنا السيد محمد تقي الحكيم فقال: «فرواية هذه الأحاديث في الشواذ النوادر من كتابه، وتعارضها مع مروياته، ولزوم طرحها بالنسبة إلى منهجه الذي رسمه، وعدم التلازم بين الإيثار بالصدور - لو آمن بصدورها - وبين الإيثار بمضمونها، كل ذلك مما يوجب القطع بطرحه لهذه الأخبار، وإيثاره بعدم التحريف. على أن التحريف لو كان مذهباً له لما صح دعوى الشيخ كاشف الغطاء وغيره إجماع الإمامية على عدم التحريف، ومثل الكليني ممن لا يتجاهل أمره عادة»^٤.

ولكنني أعود فأؤكد أنه لا توجد رواية في الكافي يستفاد منها التحريف بصراحة. وما توهم منه ذلك ذكره في النوادر. فهو إذن بريء من هذه التهمة، ساعد على نشر القرآن وصياغة الإنسان صياغة قرآنية فريدة.

علماء الشيعة على مر القرون يرفضون التحريف

وها نحن نذكر قائمة نموذجية بعلماء الشيعة الكبار الذين صرحوا بنفي التحريف^٥:

١. أصول الكافي ٢: ٦٢٧.

٢. بحار الأنوار ٢: ٢٤٥.

٣. الكافي ٨: ٥٣.

٤. الأصول العامة للفقهاء المقارن: ١١١.

٥. لمعرفة نصوص كلامهم يراجع كتاب (النص الخالد) للسيد علي الدار أبي، نشر مجمع البحوث الإسلامية بمشهد ط ١، عام ١٤٣٣.

- ١- ابن شاذان (م ٢٦٠هـ) في (الإيضاح).
 - ٢- الشيخ الصدوق (م ٣٨١) في (الاعتقادات).
 - ٣- الشيخ المفيد (م ٤١٣) في (أوائل المقالات).
 - ٤- الشريف الرضي (م ٤٠٦) في (حقائق التأويل).
 - ٥- الشريف المرتضى (٤٣٦) نقلاً عنه في (مجمع البيان).
 - ٦- الشيخ الطوسي (٤٦٠) في (التيان).
 - ٧- الشيخ الطبرسي (٥٤٨) في (مجمع البيان).
 - ٨- الشيخ الرازي (٥٤٨) في (روض الجنان).
 - ٩- الشيخ الراوندي (٥٧٣) في (الخرائج والجرائح).
 - ١٠- الشيخ ابن شهر آشوب (٥٨٨) في (متشابه القرآن).
 - ١١- الشيخ ابن إدريس (٥٩٨) في (المنتخب من تفسير القرآن).
 - ١٢- السيد ابن طاووس (٦٦٤) في (سعد السعود).
 - ١٣- العلامة الحلي (٧٢٦) في (نهاية الوصول).
 - ١٤- المحقق الكركي (٩٤٠) نقلاً عنه في (شرح الوافية).
 - ١٥- المقدس الاردبيلي (٩٣٣) في (مجمع الفائدة والبرهان).
 - ١٦- الشيخ البهائي (١٠٣٠) كما نقل عنه في (آلاء الرحمن).
 - ١٧- صدر المتألهين (١٠٥٠) في (تفسير القرآن).
 - ١٨- الفاضل التوني (١٠٧١) في (الوافية).
 - ١٩- الشيخ الطريحي (١٠٨٥) في (مجمع البحرين).
 - ٢٠- الشيخ الحر العاملي (١١٠٤) في (تواتر القرآن).
- وغيرهم من العلماء كثيرون.

الفصل السادس: النسخ في القرآن

وهو في الاصطلاح رفع أمرٍ ثابت في الشريعة بارتفاع أمده سواء كان ذلك المرتفع من الأحكام التكليفية أو الوضعية، وسواء أكان حكماً أو غيره مما يعود إلى الله تعالى بها هو شارع كما في ما يسمى بـ (نسخ التلاوة).
وقد قيد الرفع بارتفاع الأمد لإخراج الرفع بارتفاع الموضوع خارجاً كارتفاع الصوم بانتهاء شهر رمضان وارتفاع مالية الشخص بموته^١.

شبهة في إمكانه

وقد قيل إن النسخ هو البدء في التشريعات (الأحكام) كما أن البدء هو نسخ في التكوينية.

وكلاهما مستحيل في حقه تعالى لاستلزامه الجهل بما سيكون.
إذ أن الحكم إن كان ينشأ من مصلحة توجب تشريعه مؤبداً فلماذا ينسخ؟ وإن كان ينشأ من مصلحة قصيرة الأمد فلماذا يشرع مؤبداً.

والبدء يعني ظهور ما خفي عليه تعالى وهو مما ينتزه عنه الله تعالى^٢.
ولذا ذهب المرحوم الآخوند الخراساني صاحب الكفاية إلى أن النسخ في الأحكام الإلهية ليس بمعنى رفع الحكم ليستلزم الجهل بل بمعنى دفع الحكم أي المنع من الاستمرار تماماً كما

١. البيان لآية الله الخوئي: ٢٧٨.

٢. نفس المصدر: ٣٨٣.

في تخصيص العام إلا أن الفرق بينهما هو أن التخصيص يمنع من سراية الحكم العام إلى جميع الأفراد، ولكن النسخ يمنع من سراية الحكم إلى جميع الأزمان. وهناك حكمة اقتضت إصدار الحكم بشكل يظهر منه الدوام والاستمرار بينما هو في الواقع لا يقبل ذلك.

وقد اعترض على المرحوم صاحب الكفاية بأن تعبير الدفع مثلاً لا يصح في التخصيص المتصل فالأفضل أن يقال: إنه بيان أجل الحكم، كما أن الأفضل أن يقال إن حكمة ما اقتضت إخفاء أمد الحكم في بدء الأمر.

وأما البدء في التكوين فإنه ليس بمعنى ظهور ما خفي عليه تعالى فهو محال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾^١ بل بمعنى ظهور ما خفي علينا من شروط تحقق الخبر. من قبيل الإخبار عن فاجعة معلقة على عدم التصديق ولكنه لا يذكر التعليق هنا بالخصوص لمصلحة ما معتمداً على الإخبار بشكل عام عن أن الصدقة تدفع البلاء كما في أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسمايل عليه السلام وظهر بعد ذلك أن المقصود هو الامتحان^٢. وقد احتجوا لجواز ذلك - أي النسخ - حتى قبل العمل بأمور:

الأول: إطلاق قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^٣.

الثاني: أنه تعالى أمر إبراهيم بذبح ابنه ثم نسخ ذلك قبل العمل.

الثالث: أنه عليه السلام عند المعراج أمر بخمسين صلاة في اليوم فراجع ربه فعادت خمساً.

الرابع: إن المصلحة قد تتعلق بنفس الأمر بهذا الشكل وليس بالعمل. وهناك مناقشات علمية قوية تترك محلها من كتب الأصول.

ولكن نذكر أن المرحوم الطبرسي ذكر أقوالاً في الآية الشريفة بلغت الثمانية. ومنها:

١- إن ذلك في الأحكام من الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد وابن

جريج وهو اختيار أبي علي الفارسي.

١. آل عمران: ٥.

٢. راجع ما ذكر في النموذج الثاني من بحث (المحكم والمشابه).

٣. الرعد: ٣٩.

- ٢- إنه يمحو من كتاب الحفظ المباحات ويثبت الطاعات الإلزامية ونقله عن جماعة.
 - ٣- يمحو من الذنوب ما يشاء فضلاً ويثبت ما يشاء عدلاً عن سعيد بن جبير.
 - ٤- إنه عام في كل شيء فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ومن الأجل إلخ^١.
- وتعدد الاحتمال يبطل الاستدلال وعلى أي حال؛ فإن أقو دليل على الإمكان هو الوقوع شرعاً فإن كثيراً من أحكام الشرائع السابقة قد نسخت في الإسلام، كما أن القرآن صرح بوقوع النسخ في أمثال حكم التوجه إلى القبلة.

أقسام النسخ

- ١- نسخ التلاوة دون الحكم ومثاله آية الرجم المزعومة.
 - ٢- نسخ التلاوة والحكم.
 - ٣- نسخ الحكم دون التلاوة وهو المشهور.
- أما القسم الأول فقد أكد الإمام الخوئي أنه يؤدي للقول بالتحريف، واستعرض ما ادعي بهذا الصدد روايةً لثبت رأيه - وهو الحق - مستنداً إلى أن الروايات المذكورة هي روايات آحاد ومثل هذه الروايات لا يمكنها أن تنسخ القرآن بالإجماع وقد ذهبت جماعة من المعتزلة إلى عدم جواز هذا القسم^٢.
- والقسم الثاني مثل القسم الأول.
- أما القسم الثالث فهو محط البحث إلا أن يدعى وجود تناقض بين آيتين يؤدي للقول بالنسخ وهو أمر يرفضه القرآن بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^٣.
- فمحط البحث مجيء آية، أو قيام سنة قطعية أو إجماع قطعي على نسخ حكم دون تلاوته وقد اختلف في نماذجه. ونحن نذكر البعض منها ونترك البحث الكامل إلى مظانه.

١. مجمع البيان ٦: ٥٢-٥٣.

٢. البيان: ٢٠٦.

٣. نفس المصدر: ٢٨٧.

تبييه: وقبل الدخول في ذكر المصاديق لابد من التنبيه إلى ما نبّه عليه العلماء وهو: أن بعض الآيات الكريمة قد تشكل قرينة عرفية على المراد من الآيات الأخرى، كالخاص بالنسبة للعام، وكالمقيد بالنسبة للمطلق ولأريب في أن هذه الموارد لا تعد من النسخ وإنما هي من التخصيص والتقييد اللذين لا ينسبان عرفاً للتنافي. ولا يعدان من النسخ^١. هذا وقد درس الإمام الخوئي ٣٦ مورداً ولم يجد فيها نسخاً إلا في آية النجوى الآتية. وذكر السيوطي عشرين مورداً ونظمها^٢.

وقد حقق العلامة الزرندي هذه الموارد جميعاً^٣ ولم يجد فيها نسخاً غير موارد أربعة^٤. أما الشيخ الزرقاني فقد ذكر الآيات العشرين التي ذكرها السيوطي وأضاف اليها اثنتين ورفض النسخ في أكثرها. وسنذكر ثلاثة نماذج هي:

نماذج منها ادعي نسخه

النموذج الأول: آية المتعة

وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾^٥ والظاهر أن المراد كان واضحاً. وهو نكاح المتعة. والمشهور بين علماء السنة أنها نسخت وثبت تحريمها، في حين أن علماء الشيعة يجمعون على بقاء حليتها وقد وافقهم جماعة من الصحابة والتابعين كابن مسعود، ومعاوية وابن عباس وغيرهم ومن التابعين طاووس، وسعيد بن جبير وغيرهم ونسب القول بها إلى الإمام مالك، وأحمد عند الضرورة^٦. هذه الآية قيل بنسخها تارة بآية الطلاق والعدة^٧ ولكن الشيعة يقولون بالعدة في المتعة،

١. راجع البيان: ٢٨٧، وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه للسيد الزرندي.

٢. الاتقان ٢: ٢٣.

٣. بحوث... بدءاً بالصفحة ٢٠٠.

٤. هي الآيات: (آل عمران: ١٠٢، والبقرة: ٢٤٠، والنساء: ١٥، والانفال: ٦٦).

٥. النساء: ٢٤.

٦. البيان للإمام الخوئي.

٧. الطلاق: ١.

وقيل بنسخها بآية ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾^١ والمتمتع بها لا تترك ولا تورث ولكن ما دل على عدم الإرث يخصص آية الإرث ولا ينسخها. وقيل إنها نسخت بأخبار آحاد وقد مر أن النسخ لا يثبت بها، وهي معارضة بما ثبت من أخبار أهل البيت عليهم السلام المتواترة. ثم إن من المسلم أنها أي المتعة كانت حلالاً في الأزمنة الأخيرة من حياته صلى الله عليه وآله.^٢ وقد ناقش السيد الخوئي الروايات الدالة على تحريم النبي صلى الله عليه وآله لها بأقوى مناقشة فراجع^٣. فالآية محكمة غير منسوخة.

النموذج الثاني: آية المناجاة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^٤.
وقد قيل: إنها منسوخة بالآية التي تلتها: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^٥.
وقد جاءت روايات عديدة من طرق الفريقين الشيعة والسنة تؤكد هذا المعنى وأنه بنزول الآية الأولى قام علي عليه السلام بالتصدق المكرر وقدمها بين يدي نجواه معه صلى الله عليه وآله^٦ ثم جاء النسخ.

النموذج الثالث: آية الاكراه

الآية الشريفة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^٧.
وقد قيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^٨.

١. النساء: ١٢.

٢. تراجع الصحاح ومنها صحيح مسلم ٤: ١٤١، مسند أحمد ٣: ٣٢٥، سنن البيهقي ٧: ٣٠٦ وغيرها.

٣. البيان: ٣١٨-٣٣١.

٤. المجادلة: ١٢.

٥. المجادلة: ١٣.

٦. تراجع تفاسير (البيان للطوسي) و(الخصال للصدوق: ٥٤٧) و(الطبري) و(القمي) و(الدر المنثور) و(الرازي) و(الاتقان) وغيرها ويكاد يجمع المحدثون والمفسرون على ذلك.

٧. البقرة: ٢٥٦.

والحق أنها غير منسوخة بل هي آية تقرر حكماً عاماً قد لا يقبل التخصيص فضلاً عن النسخ، وذلك للتعليل الوارد فيها وهو تبين سبيل الرشد من سبيل الغي، وهو أن الاكراه لا محل له بعد هذا الوضوح فلا يصح ادعاء التخصيص بطائفة من الكفار كأهل الكتاب، كما لا يصح التخصيص بمرحلة ما قبل الإسلام وادعاء استثناء ما بعد الإسلام مثلاً بالخبر الوارد في الارتداد (من بدل دينه فاقتلوه) ٢.

والحقيقة من أن الآية الشريفة تتحدث عن أن الإيذان بالدين إنما يتم بالاختيار لا بالإجبار لأنه عمل نفسي لا يتحقق إلا من خلال القناعة الداخلية. فلا معنى لنسخها بآية الجهاد، وهي إنما تهدف للرد على فتنة الكافرين والمشركين وقتالهم للمؤمنين وعد فسح المجال لهم ليبينوا آرائهم بحرية حتى يقتنع الآخرون بها دونما إجبار. والخلاصة أن الآية خبرية لا إنشائية فلا معنى لنسخها أو تخصيصها بجملة إنشائية ٣ إلا أن يقال بالنسخ من خلال اللوازم والآية كما قلنا تأبى النسخ والتخصيص.

القاعدة الأصولية في النسخ

المرحوم آية الله المظفر بعد أن ذكر أن ما ثبت فيه النسخ - على سبيل الجزم - قليل جداً، وهو لا يهمننا كثيراً من ناحية فقهية استدلالية لمكان القطع فيها، ذكر القاعدة الأصولية المستخلصة من البحث وهي:

أن الناسخ إن كان قطعياً أخذنا به واتبعناه وإن كان ظنياً فلا حجة فيه ولا يصح الأخذ به، لوجود إجماع على عدم جواز الحكم بالنسخ إلا بدليل قطعي.

وأضاف: (ولذا أجمع الفقهاء من جميع طوائف المسلمين على أن الأصل عدم النسخ. وهذا الإجماع ليس من جهة ذهابهم إلى حجية الاستصحاب كما ربما يتوهمه بعضهم، بل حتى من لا يذهب إلى حجية الاستصحاب يقول بإصالة عدم النسخ) ٤.

١. التوبة: ٧٣.

٢. كما ذكره الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه العقوبة: ٨٤.

٣. يراجع بحثنا في الموضوع في كتاب (حول الدستور الإسلامي) ص ٣٧٢.

٤. أصول الفقه ٣: ٥٠ طبعة المطبعة العلمية - النجف.

الفصل السابع: حجية الظواهر القرآنية

وبادئ ذي بدء نقول: إن هذا البحث كما هو مهم في علم الأصول فهو ذو أهمية بالغة في علوم القرآن والتفسير. فبدون الانتهاء إلى حجية الظهور القرآني لا تبقى لباقي البحوث جدوى إلا قليلاً.

ومن الواضح أن حجيته من صغريات مسألة حجية الظواهر. وهي مما تسالم عليه الناس وإلا لما أمكنهم التفاهم لذلك كان علينا قبل أن نعتمد على هذه الأصالة. أن نفحص عن القرائن فإن يئسنا منها عملنا بعمومات الكتاب وإطلاقاته.

وقد استدل الأصوليون لذلك بأدلة من قبيل:

١- إن القرآن نزل حجةً على الرسالة، وإن النبي تحدى البشر على أن يأتوا ولو بسورة من مثله. ولا ريب أن العرب كانت تفهم القرآن من ظواهره.

٢- الروايات الآمرة بالتمسك بالثقلين ولا يعني إلا العمل بما يشتمل عليه.

٣- الروايات الواردة في عرض الأحاديث على كتاب الله.

٤- استدلالات الأئمة: بالظواهر القرآنية، وهي كثيرة^١.

مصادر التشكيك في حجية الظواهر القرآنية:

وقد ذكر استاذنا الحكيم هذه المصادر كما يلي وأجاب عليها^٢:

أولاً: ما نسب للأخباريين من دعوى التوقف فيها لأمرين:

١. البيان للإمام الخوئي: ٢٦٣-٢٦٧.
٢. أصول الفقه المقارن ١: ١٣٤-١٥١ طبعة مجمع التقريب.

أ- وجود علم إجمالي بطرو مخصصات من السنة وهي تقيد العمومات والاطلاقات، والعلم الاجمالي ينجز متعلقه، ويمنع من جريان الأصول وحتى اللفظية منها فلا مجال للتمسك بأصالتي العموم والإطلاق.

وجوابه: إن هذا العلم الاجمالي ينحل بعد الفحص في الآيات والروايات والعثور على مقدار المعلوم بالاجمال فإذا بقيت أطراف مشكوكة نفيناها بالأصول اللفظية.

ب - ما جاء عن طرق الفريقين من المنع عن تفسير القرآن بالرأي، أو بالنهي عن العمل بالكتاب دون الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام.

والجواب هو أن العمل بالظواهر وهي واضحة الدلالة ليس من العمل بالرأي، والرجوع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام مفروض كما بينا قبل قليل.

ثانياً: ما نسب إلى بعض المحدثين من أن فهم القرآن مختص بمن خوطب به. وقد ناقش الأصوليون هذا الاستدلال بأن المراد به فهم القرآن حق فهمه ومعرفة ظاهره وباطنه وناسخه ومنسوخه.

وهذا بيّن لمن لاحظ هذه الروايات.

ثالثاً: شبهة التحريف وقد بينا الحق فيها فلا شبهة في البين.

فظواهر القرآن حجة بلا ريب ولا مجال للتشكيك.

القسم الثاني: الوحي والإعجاز وشبهات المستشرقين

موقف المستشرقين من الإسلام ونزعاتهم
النزعة الأولى: تطويع المسلمين للاستعمار وتمكينه منهم
النزعة الثانية: المستشرقون ونزعتهم الصليبية
أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية
تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة
شبهات المستشرقين حول الوحي والقرآن
أشكال الشعور الواعي

متى نشأ الباعث على الحركة الاستشراقية؟

من الصعب على الباحث تحديد زمنٍ لوجود الباعث للحركة الاستشراقية، ولكن يمكن أن نتصور ذلك نتيجة للقاء الذي تمّ بين الغرب والشرق بصوره المختلفة؛ فإنّ هذا اللقاء أدّى إلى تفاعل ثقافي كبير بين العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي. وبسبب هذا كانت بعض أجزاء العالم الإسلامي - كالأندلس - تحتضن لفترة طويلة من الزمن جماعات من الغربيين يدرسون الثقافة الإسلامية ومقومات الحياة الاجتماعية للجماعات المسلمة.

كما أنّه نتيجة للتوسع الإسلامي - الفكري والسياسي - الذي حصل على حساب الوجود المسيحي والحروب الصليبية وما أعقبتها من هزائم... نجد العالم المسيحي حين ذاك يقوم بتأسيس بعض المدارس الخاصّة بالدراسات الشرقية محاولة منه لصدّ الغزو الفكري والعقائدي الذي جاءت به رسالة الإسلام السمحاء ومبادئها القويمة السهلة.

ويجدد بنا أن نؤكّد - بهذا الصدد - على ملاحظة هامة ذات صلة وثيقة بالموضوع هي العلاقة المتينة المستحكمة التي تربط بين أهداف الاستعمار في العالم الإسلامي والبلاد الشرقية ووسائله، وبين أهداف الإستشراق ووسائله. بل يمكننا أن نجزم بأنّ الاستشراق كان ولا يزال وسيلة بارزة من الوسائل التي استخدمها الاستعمار في تحقيق أهدافه في العالم الإسلامي؛ لأنّ دراسة المستشرقين للإسلام قامت - في أول الأمر - بوحى من الكنيسة الكاثوليكية خاصّة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه حرصاً على مذهب الكتلركة من جانب، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في تحرير بيت المقدس من جانب آخر. ثم تبنّى الاستعمار الغربي

هذه الدراسة في الجامعات الغربية نفسها حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى الشرق الإسلامي في صورة كتب تُولف وترسل إلى طلاب الثقافة، أو في صورة طلاب من الشرق الإسلامي يُدعون أو يُعاونون على الدراسة هناك، ثم يُمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكّنون بها من الظفر بوظيفة التوجيه في الكليات النظرية بالجامعات الحديثة في الشرق الإسلامي^١. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتصور الوجود الاستشراقي الحديث مرتبطاً بالوجود الاستعماري في العالم الإسلامي، كما نربط الباعث على الحركة الاستشراقية بالأهداف الاستعمارية للعالم الغربي.

ويلخص لنا الأستاذ محمد البهيّ تسلل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي بقوله:
في بداية منتصف القرن التاسع عشر وعلى التحديد في سنة ١٨٥٧ تمّ للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية التي تأسست في ٣١ / ديسمبر ١٦٠٠ م والتي انضمت مع شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩ إلى التاج البريطاني وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الثلاث الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي وهي دولة المغول في الهند، وأما الدولتان الأخريان - إذ ذاك - فهما الدولة الصفوية في إيران ودولة الأتراك العثمانية في آسيا الصغرى وشرق أوروبا.
كما تمّ في نفس السنة وهي سنة (١٨٥٧ م) استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن ابتدأوا في غزوها سنة (١٨٣٠ م).

ومن قبل هاتين الدولتين الاستعماريّتين (انجلترا وفرنسا) احتلت هولندا في بداية القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة (١٦٠٢ م) وذلك بعد ما ضاع استقلال البرتغال بإعلان ملك اسبانيا ضمّها إلى بلاده في سنة (١٥٨٠).

فبعد قرنين ونصف - أي منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر - تمكّن الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقها، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في إفريقيا.

١ . محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ٢٤.

كما تمكّن من مدّ نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي من الشرق والغرب وسلّط ألعابيه ودسائسه على بقية التجمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين. وما أن جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضت أجلها حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر^١. ومن خلال هذه الصورة الصغيرة لتسلل الاستعمار الغربي يمكننا أن نتعرّف على صورة أخرى لنشوء البواعث للحركة الاستشراقية كمواكبة أو تمهيد لتحقيق بعض الأهداف الاستعمارية التي كان يستهدفها الاستعمار الغربي طيلة محاولاته للتسلل إلى العالم الإسلامي. ولا بدّ لنا بهذا الصدد أن نفرّق بين الاستشراق كحركة تقوم بجماعة معينة من الناس لها أهداف معينة، وبين الاستشراق ضمن مجموعة من الافراد لا تربطهم صلة ولا هدف؛ فإنه على أساس النظرة الثانية قد نجد الدافع العلمي والرغبة في الاطلاع على ما في الشرق الإسلامي من معارف وعلوم وتشريع وحضارة؛ لأنّه كان يمثّل قمة التقدم البشري حينذاك.

ما هي حركة الاستشراق؟

وحركة الاستشراق هذه تعني في الحقيقة الحركة ذات المظهر الثقافي والعلمي التي قادها جماعة من الغربيين في دراساتهم لأحوال الشرق الثقافية والاجتماعية والسياسية والتي كان لها تأثير بالغ الأهمية في حياة الشرق الثقافية وبالتالي الفكرية والاجتماعية والسياسية، لما تتمتع به الثقافة من مركز خطير في حياة كل أمة وجماعة إنسانية.

وقد جاءت حركة الاستشراق واسعة النطاق فشملت كلّ الشرق بدياناته ومذاهبه ومجتمعاته المختلفة. كما أنّ الذين قادوها كانوا يتصفون غالباً بأنهم رجال دين كرّسوا حياتهم لخدمة ديانتهم الخاصّة وإن كانوا يحاولون أن يسبغوا على أبحاثهم الصفة العلمية الموضوعية. ونجد بعض المستشرقين أحياناً ينزع إلى العلمانية والتجرّد عن الصفة الدينية بشكل مطلق ليؤكدوا بذلك الصبغة الموضوعية في أبحاثهم.

ونحن في دراستنا الخاصّة هذه سوف نقصر على الحديث عن حركة الاستشراق فيما يختص منها بالعالم الإسلامي والأمة الإسلامية وذلك للأسباب التالية:

أولاً: أنّ العالم الإسلامي يعتبر إلى وقت قريب نقطة الارتكاز المهمة في الشرق بشكل عام سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية. ولذلك كان الهدف الرئيس لكثير من أعمال المستشرقين وأساليهم.

ثانياً: أنّ أسباباً معينة سوف تنكشف خلال حديثنا عن الاستشراق كانت تدفع المستشرقين إلى التأكيد على العالم الإسلامي بالخصوص إلى جانب الأهمية التي كان يتمتع فيها الشرق بصورة عامة.

ثالثاً: إنّنا بوصفنا مسلمين يجب أن نهتمّ بهذا الجانب من الاستشراق في دراستنا له؛ لأنّه الجانب الذي يعيننا بشكل خاص.

موقف المستشرقين من الإسلام و نزعاتهم

لقد تحدّث الأستاذ محمّد البهي عن موقف المستشرقين من الإسلام في مواضع متعددة من كتابه، وسوف نلخص ما ذكره بهذا الصدد ونضيف إليه بعض التعليقات التي نراها تنسجم مع هذا الغرض.

ينطوي عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيسيتين.

النزعة الأولى: النزعة الاستعمارية وتمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية وتمهيدُ النفوس بين سكّان هذه البلاد لقبول نفوذ الأوربي والرضا بولايته.

النزعة الثانية: الروح الصليبية في دراسة الإسلام تلك النزعة التي لبست في اطار حركة الاستشراق ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة.

النزعة الأولى: تطويع المسلمين للاستعمار وتمكينه منهم

تتجلّى هذه النزعة في خطّين رئيسيين:

الخط الأول: إضعاف القيم الإسلامية الدينية.

الخط الثاني: تمجيد القيم الغربية المسيحية.

وقد نهج المستشرقون تنفيذاً للخط الأول طريقاً في شرح تعاليم الإسلام ومبادئه يضعف في المسلم تمسّكه بالإسلام ويقوّي فيه الشكّ به كدين أو على الأقلّ كمنهج سلوكي يتفق وطبيعة الحياة القائمة. كما أنّهم درسوا العلاقات الاجتماعية القائمة في المجتمع الإسلامي بشكل يؤدّي إلى تفكيك الرابطة الإسلامية ويقضي على الشعور بالوحدة الدينية كإثارة النعرات الطائفية والقومية والخلافات بين زعماء البلاد الإسلامية.

وهناك شواهد كثيرة تدل على هذا المنهج الذي سار عليه المستشرقون. فـ«رينان» المستشرق الفرنسي المعروف يحاول أن يصوّر عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها عقيدة تؤدي بالفرد المسلم إلى الحيرة وتحط به كأنسان إلى أسفل درك. على حين أنّ عقيدة التوحيد مزية

الإسلام وآية على أنه الرسالة الكاملة الواضحة لخالق الكون إلى عباده، كما أنّها الطريق السليم والوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه وتحريره من سائر العبوديات الأخرى؛ لأنّ صاحب هذه العقيدة لا يخضع في حياته لغير الله ولا يتوجّه في طلب العون إلى غيره سبحانه. ولكنّ رينان يأبى هذا كلّه ويقول بصدّد الحديث عن عقيدتي القدر والاختيار:

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان إحداهما (ربانية) والثانية (بشرية) تمثّلان ذينك المذهبين - مذهب الجبر ومذهب الاختيار - المتناقضين ولكن بتلطيف في التناقض.

أمّا الأولى (الديانة الربانية) فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرّة مع مذهب السامية وإن كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته. ومن خصائص هذه الديانة (المسيحية) ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية! على حين أنّ الديانة الثانية (البشرية) وهي الإسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحطّ بالإنسان إلى أسفل درك وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له.

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الأساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الألوهية. أمّا المسيحي فيذهب في هذا الأصل إلى الثالث أي أنّ الإله أوجد الإله الابن وأتصل الاثنان بصلة هي روح القدس. وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً ومبشراً. هذا الثالث السري المشتقة أصوله من ضرورة إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ويفديه من الخطيئة التي اقترفها... يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكاً شديداً حيث يقول: لا إله إلاّ الله. غير أنّ إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخفّ وأعلى وأجلب للثقة إذ هو يحملهم على إتيان الأعمال التي تقربهم إلى الله، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الحالية موصولة. في حين أنّ المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الأحد الذي هو مستودع الآمال، ولفظة الإسلام معناها (الاستسلام المطلق لإرادة الله).

وقد كتب رينان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هذا المعنى وكان يظن أنّ هذا الأسلوب مختص بالعقلية الاستعمارية التي كانت تسيطر على العالم الغربي آنذاك.

وأما العقلية العلمية التي تدّعيها العقلية الغربية المعاصرة والتي يُنظر إليها على أنّها من مفاخر القرن العشرين؛ لأنّها تزعم أنّها لا تخضع - في بحث المسائل وإصدار الأحكام - لأيّ أثر حزبي أو مذهبي أو عاطفي ممّا يتأثر به الإنسان العادي كان يُظن أنّ القرن العشرين لا يصدر فيه مثل تصوير رينان المتحيّز للتثليث المسيحي ضدّ التوحيد الإسلامي، ولكن مجلة أمريكية يصدرها الدكتور «كريج» مدير مؤسسة هارتفورد للدراسات الدينية الشرقية ردّد هذا التصوير في شرح آية ﴿إلى الله المصير﴾ فيقول ما ترجمته: (أنّ إله الإسلام متكبر جبار مترفع عن البشرية يطلب أن يسير العباد نحوه. بينما إله المسيحية عطوف متواضع يتودّد للناس فظهر في صورة بشر وذلك هو الإله الابن، فعقيدة التثليث في المسيحية قرّبت الإنسان من الإله وأعطته نموذجاً رفيعاً واقعياً في حياته يسعى ليتقرب منه. أمّا عقيدة التوحيد فباعدت بين الإنسان والإله وجعلت الإنسان متشائماً من شدة الخوف منه ومن جبروته وكبريائه).

ونجد مثل هذا الاتجاه المتحيّز والموقف الملتزم في تفسير أكثر المبادئ الإسلامية روعة وأعظمها أثراً وفاعلية. فمبدأ الزكاة يفسّر على «أنّ الأموال في نظر الإسلام هي من أصل شيطان نجس، ويحلّ للمسلم أن يتمتّع بهذه الأموال شريطة أن يطهرها وذلك بإرجاع هذه الأموال إلى الله»^١. وكأنّه أخذ هذا التفسير الخاص لمبدأ الزكاة من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾.

ولم يفهم أنّ الضمير يرجع إلى الناس لا إلى الأموال، وأنّ الطهارة روحية لا طهارة مادية حسّية.

وليس هذا التفسير للزكاة اختص به هذا المبشّر بشكل خاص وإنّما يردّده غيره من المسيحيين القائمين على الدراسات الإسلامية في الوقت الحاضر. ففي تاريخ ٥ ابريل ١٩٥٦ تحدّث أب دومينيكاني من مصر كان يقوم بإلقاء محاضرات عن علم الكلام الإسلامي بجامعة مونتريال الأمريكية عن النظرة الإسلامية للحياة فقال: «إنّ المسلمين يتجنّبون الناس

١. دراسة الإسلام في افريقيا السوداء لمؤلفه فيليب فونداسي.

الذين ينشغلون بالمال ويعتبرونهم أقرب للكلاب منهم للبشر». وبمثل هذه النظرة يشرح المستشرقون مبدأ (قوامة الرجل) بأنه عبارة عن الالتزام بالتفوق الطبيعي ومبدأ الجهاد بأنه فكرة عدوانية، ومبدأ عدم زواج المسلمة بغير المسلم بأنه فكرة عنصرية، ومبدأ العودة إلى مبادئ القرآن بأنها رجوع إلى الحياة البدائية^١.

والخط الثاني: للتمكين الاستعماري من البلاد الإسلامية هو تمجيد القيم الغربية المسيحية وشرح صلاحيتها لإقامة الحياة الاجتماعية على أساسها.

وقد انطلق المستشرقون في هذا الأسلوب من نقطة بارزة كان لها في عقل الفرد المسلم وضميره وحياته تأثير كبير، وهذه النقطة هي التقدم الصناعي والتفوق التكنولوجي للغرب والزيادة الملحوظة في دخل الفرد والرفاه المادي في الحياة الاجتماعية الغربية، حيث حاول المستشرقون أن يربطوا ذلك بالقيم والمثل المسيحية على أساس أنها هي السبب في انطلاقة الغرب الصناعية والاجتماعية. وقد اعتبرت حلقة الوصل في هذا الربط تبني الغربيين للديانة المسيحية على أنها الديانة العامة لشعوبهم.

فالعربيون مسيحيون والغربيون متقدمون. إذن سبب التقدم هو القيم والمثل الغربية المسيحية، والشرقيون مسلمون والشرقيون متأخرون. إذن القيم والمثل الإسلامية هي سبب هذا التأخر. وقد فات هؤلاء أن أوروبا كانت تزرع تحت أثقال الجهل والمرض والفساد الاجتماعي وتعيش عصوراً مظلمة حين كانت تسيطر عليها المسيحية في الوقت الذي كانت تعيش الأمة الإسلامية حياة مزدهرة حين كان يعيش الإسلام وجوداً اجتماعياً في صفوفها ويتحكم في علاقاتها وتصرفاتها.

ثم أين هي القيم المسيحية ذات الأثر الإيجابي في هذه المدينة الصناعية الأوربية؟! ليست هناك أي صلة بين المسيحية كدين وبين هذه الحضارة الصناعية الغربية؛ لأن المسيحية ليست إلا سلوكاً فردياً يستوحى من السلوك الخلقى لشخص عيسى عليه السلام^٢.

١. راجع تفصيل ذلك في الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ٥٢ - ٦٤.

٢. راجع مقدمة كتاب (اقتصادنا) الطبعة الثانية لمعرفة حقيقة تأثير الأخلاق الإسلامية والأخلاق الغربية على التقدم الاجتماعي والمدني.

نعم تقوم هذه الصلة بين المسيحية والحضارة الغربية الصناعية في أن صاحب الحضارة يرفع المسيحية شعاراً ويتبناها ديناً وإن كان لا يلتزم بقيمها ومثلها واقعاً وعملاً.

النزعة الثانية: المستشرقون ونزعتهم الصليبية

والنزعة الثانية التي تتحكّم في أعمال المستشرقين وأبحاثهم الروح الصليبية الدينية التي استبطنت الحقد والبغضاء نتيجة للعوامل السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تربط المسيحية بالإسلام.

ولذلك نجد أن أعمال المستشرقين المرتبطين بالكنيسة تنبئ عن الحقد أكثر مما تنبئ عن محاولة إضعاف المسلمين وتحطيم قيمهم الفكرية والروحية، ويبدو ذلك جلياً واضحاً في أعمال المستشرقين الكاثوليك وبالأخصّ المستشرقين الفرنسيين. وقد صوّر المستشرق المسلم (محمد أسد) هذه الروح الصليبية وتأثيرها في أبحاث المستشرقين في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) كالتالي: «لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات عن الإسلام، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على جذور من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية. وقد لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف متزن ومبني على التفكير.

لكنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب. حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر، كما أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه (موضوع بحث) في البحث العلمي، بل إنه متهم يقف أمام قضاته^١.

إنّ بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور اعتبار الأسباب المختلفة.

١. راجع الإسلام على مفترق الطرق.

وعلى الجملة، فإنّ طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى، أي أنّ تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد وعدم تحزب.

إنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها عن المتن أو تأولوا الشهادات بروح غير علمية من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى القضية من وجهة نظر الجانب الآخر أي من قبل المسلمين أنفسهم. والشواهد على هذه الروح الحاقدة في أعمال المستشرقين كثيرة نذكر منها المثال التالي:

يقول المستشرق الفرنسي كيمون واصفاً الإسلام:

«إنّ الديانة المحمدية جذام تفسّى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمود والكسل ولا يوقظه منها إلاّ ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور وإمعان في القبائح. وما قبر محمد إلاّ عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة «الله» إلى ما لا نهاية والتعوّد على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والنبذ والموسيقى وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور والانغماس في اللذات»^١.

١. تاريخ الإمام محمد عبده ٢: ٤٠٩.

أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية

أسبابها - نتائجها

(أ) أخطاء المستشرقين

لقد انتهى المستشرقون في البحوث الإسلامية إلى عدة نتائج خاطئة، وقد عرفنا بعض هذه الأخطاء عندما عرضنا موقفهم من الإسلام. ويحسن بنا - قبل أن نذكر أسباب هذه الأخطاء والنتائج التي أدت إليها - أن نشير بشكل إجمالي إلى الأسس العامة التي تفرعت عليها هذه الأخطاء، وهي كما يلي:

١ - محمد، مصلح ديني وضع نظاماً جديداً دينياً أسماه «الإسلام»، وأولى بهذا النظام أن يسمى بالمذهب المحمّدي، ومحمد في الوقت نفسه إنسان عادي وقرآنه صنعة بشرية يكثر فيها التناقض وعدم الانسجام.

٢ - والإسلام الذي وضعه محمد تأثر فيه بالتعاليم الدينية السابقة عليه، كتعاليم اليهودية والمسيحية، وهو حين اقتبس من تعاليم هاتين الديانتين حرف ما اقتبس نتيجة لتأثره بعوامل شخصية وبشرية؛ ولذا نجده مثلاً ينكر ألوهية المسيح.

٣ - والإسلام بعد ذلك دين فردي شخصي لا يصح له أن يتدخل في حياة الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ولذا يجب فصله عن المجتمع والدولة.

٤ - وهو نفسه - أيضاً - يخضع لعوامل الزمن والتطور الاجتماعي، فلا بد من تطويره تبعاً لتطورها فهو موقوت - بمبادئه وأحكامه - بهذا التطور.

(ب) أسباب أخطاء المستشرقين

وبصدد معرفة السبب لأخطاء المستشرقين في بحوثهم الإسلامية، لا بد لنا أن نلاحظ الترابط الوثيق بين شتى العوامل والمؤثرات السياسية والنفسية والفكرية للمستشرقين أنفسهم، الأمر الذي أدّى بدوره إلى وجود كثير من الأخطاء الأخرى وتراكمها في بحوث

المستشرقين. ونحن وإن كنا قد ألمحنا إلى بعض هذه الأخطاء وأسبابها، ولكن يمكننا أن نجمل هنا هذه الأسباب بالعوامل التالية:

١ - الأهداف الاستعمارية التي كانت تختفي وراء أعمال المستشرقين، وبحوثهم مسترة بالروح العلمية والدراسة الموضوعية.

٢ - الروح الصليبية التي كانت تلقي بثقلها على أبحاث المستشرقين لتجعلها تقف موقف التحزب ضد الإسلام واتهامه، وكانت تُشيع في أبحاثهم الكراهية والحقد والبغضاء.

٣ - التأثير بالأفكار الحضارية المادية التي شاعت في الحياة الأوربية إبان عصر النهضة الصناعية، والخروج على سلطة الكنيسة الروحية، وبالتالي على كل ما يمت إلى الدين بصلة. وما زالت المجتمعات الغربية تعيش تحت سيطرة ونفوذ هذه الأفكار، الأمر الذي كان له تأثير في محاولة عزل الإسلام عن الحياة الاجتماعية.

٤ - النظرة إلى الإسلام والقرآن على أنها من صنع محمد، الذي تأثر بالديانة اليهودية والمسيحية، وبالعوامل البشرية والشخصية.

٥ - دراسة الإسلام وشريعته - بالإضافة إلى القرآن والسنة النبوية - من خلال المجتمع الإسلامي، والمدارس الفقهية والعقيدية والفلسفية والاجتماعية التي عاشت وتكاثرت بين المسلمين. بالإضافة إلى اعتبار مجموعة الأحاديث والروايات عن النبي ﷺ والصحابة بمستوى واحد في القيمة والأهمية دون الاقتصار على خصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة للتعرف على نظام الإسلام وحقيقته.

٦ - عدم فهم بعض النصوص الإسلامية وتجريدها عن ظروفها وقراءتها الحالية.

ج- نتائج أخطاء المستشرقين

وكان لأعمال المستشرقين وبحوثهم نتائج بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي، سواء فيما يتعلق بالجانب الفكري والثقافي أو فيما يتعلق بالجانب السياسي والاجتماعي:

١- أما فيما يتعلق بالجانب الفكري والثقافي

فقد أدت هذه الأعمال والبحوث إلى تشويه المفاهيم والثقافة الإسلامية لدى جمهرة

المسلمين، الأمر الذي أدى إلى ظهور اتجاهات وتيارات فكرية وثقافية مختلفة في المجتمع الإسلامي، يتنافى بعضها مع مبادئ المنطق ومبادئ الإسلام القويم. وقد تركزت هذه الاتجاهات في اتجاهين فكريين ثقافيين رئيسيين في العالم الإسلامي:

أحدهما: الاتجاه الذي يعمل على تحريف الإسلام وتشويه معالمه باسم التجديد وتحويره إلى الشكل الذي لا يتنافى مع تقرير سلطة المستعمر، وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية، أو على الأقل أن لا يكون الإسلام عامل تحدد أو معارضة للحكم الاستعماري أو الأنظمة الحديثة الكافرة التي يريد أن يفرضها على المسلمين.

ثانيهما: الاتجاه المضاد الذي سار عليه جماعة من كبار علماء الإسلام في محاولة لصياغة المفاهيم الإسلامية صياغة حديثة، تتضح فيها معالم قدرة الإسلام على معالجة مشاكل الحياة الحديثة، وإمكاناته في الحكم والتطبيق في العصر الحاضر، مع تجريده من العادات والتقاليد التي أصبحت في نظر بعض المسلمين - نتيجة تقادم الزمان عليها - وكأنها جزء من الشريعة الإسلامية. ونتيجة لتنامي قوة الاستعمار وسيطرته العسكرية والسياسية والفكرية على العالم الإسلامي، حدثت مضاعفات وتطويرات للاتجاه الأول، انتهت إلى نشوء تيارات فكرية إلحادية وكافرة في العالم الإسلامي، بناها عدد من أبناء المسلمين أنفسهم. وقد كان لكل واحد من هذين الاتجاهين الرئيسيين وما تفرع عنهما من تيارات أنصاره ومؤيديه.

٢- وأما فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي والسياسي:

فقد أدى انتشار الأفكار الغربية المسيحية والسيطرة الاستعمارية العسكرية والسياسية إلى حدوث تغييرات كبيرة في العالم الإسلامي سياسية واجتماعية. فظهرت الاتجاهات القومية والعنصرية، كما شاع تطبيق القوانين الكافرة والأنظمة الغربية تحت شعارات وأسماء مختلفة من (الحرية) و(التجديد) و(الإصلاح) وغير ذلك. كما انخفضت الروح الدينية بين المسلمين، واعتادوا الحكم الكافر وأنظمتهم، وأنقسم العالم الإسلامي إلى دول وبلاد مختلفة ومتنازعة فيما بينها في كثير من الأحيان. وفي كل هذه الأوضاع تلاحظ لأعمال المستشرقين وبحوثهم مساهمة كبيرة وآثاراً ونتائج؛ لأنها كانت تمثل بالنسبة لهم الأساس الفكري والسياسي.

والى جانب ذلك نجد لأبحاث المستشرقين تأثيراً آخر في المجتمع الغربي نفسه، حيث أخذ الفرد الغربي ينظر إلى الإسلام نظرة سيئة حاقدة.

وقد صوّر لنا المستشرق النمساوي المسلم «محمد أسد» هذه النظرة بقوله: «إلا أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً؛ لقد نشأ تسميم العقل الأوربي عما شوّهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب. في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوربيين من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيواني، وأنه تمسك بفروق شكلية، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها. ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت»^١.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نلخص المجالات التي ساهمت في تكوينها أخطاء المستشرقين في بحوثهم وأعمالهم كالتالي:

- ١ - تشويه الثقافة الإسلامية بجوانبها المتعددة في العالم الإسلامي وفي المجتمع الغربي.
- ٢ - إضعاف الروح الدينية والعقيدية عند المسلمين.
- ٣ - قيام الأوضاع الاجتماعية والسياسية الكافرة في العالم الإسلامي.
- ٤ - روح التجديد في الإسلام أو في المفاهيم الإسلامية على اختلاف اتجاهاته ودوافعه.

١. الإسلام على مفترق الطرق: ٥٨.

تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة

لقد خصَّ المستشرقون القرآن الكريم والسنة النبوية بقسط وافرٍ من أبحاثهم وأعمالهم، وتعرضا نتيجة لذلك إلى كثير من الهجمات العنيفة.

ومن الواضح أنَّ السبب في ذلك هو ما يتمتع به القرآن الكريم والسنة النبوية من مركز ديني وثقافي في الإسلام. فهما يعتبران الأساس الذي تقوم عليه العقيدة والثقافة الإسلامية، كما أنَّهما المصدران الأساسيان للنظام الإسلامي والشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى نظرة التقديس التي ينظر بها الفرد المسلم إليهما.

ولاشك أن القرآن الكريم والسنة النبوية يعتبران من أقوى الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ على أساس ما فيهما من مفاهيم وأفكار وتشريعات وأخبار لا يمكن أن تكون وليدة عصر البعثة، ولا من صنع شخص الرسول ﷺ، الأمر الذي أدركه المستشرقون بشكل واضح، ودعاهم إلى مهاجمة القرآن والسنة النبوية في محاولة للتشكيك في صدورهما بذلك العصر، أو إبراز الاختلافات والتناقضات فيها، أو غير ذلك من الجوانب التي تسقط هذه الميزة لهما.

وفي بحثنا هذا سوف نتناول بعض الشبهات المهمة التي أوردها المستشرقون حول القرآن الكريم؛ وذلك نظراً لما تفرضه أهمية القرآن على الخصوص من ناحية، وطبيعة البحث القرآني من ناحية أخرى. لقد أثار أعداء الإسلام - من جاهلين قدامى ومستشرقين جدد - الشبهات الكثيرة حول الوحي القرآني.

وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب التأكيد على أنَّ الوحي القرآني ليس مرتبطاً بالسماء وإنما هو نابع من ذات محمد ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الشبهات في مواضع مختلفة، وردد بعض المستشرقين هذه الشبهات وغيرها وحاول إضفاء طابع البحث والدراسة وسمات

١. منها: الأنبياء: ٣١، الدخان: ١٤، الفرقان: ٥ النمل: ١٠٣ وغيرها.

الموضوعية عليها، كما هي الطريقة المتبعة لديهم في مثل هذه الحالات.
ويحسن بنا أن نكوّن فكرة واضحة عن الوحي الذي نحن بصدده بحث الشبهة حوله
ومناقشتها؛ تمهيداً للدخول في صلب الموضوع.

شبهات المستشرقين حول الوحي والقرآن

ما هو الوحي^١

الوحي لغة هو الإعلام في خفاء^٢. ولكن ما هو الوحي الإلهي الذي اختصّ به الله سبحانه النبيين من عباده، وتجلّى بشكل واضح في القرآن الكريم؟
وبصدد الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نقول: إنّ كلّ فكرة يدركها الإنسان فهي ترتبط في وجودها - بسبب أو بآخر - بالله سبحانه وتعالى خالق الإنسان ومدبّر أموره. ولكنّ شعور الإنسان تجاه مصدر هذه الفكرة - بالرغم من إدراكه العقلي لهذه الحقيقة - قد يكون مختلفاً. ونذكر أنحاء ثلاثة لهذا الشعور:

(أ) أن يشعر بأنّ الفكرة نابعة من ذاته، ووليدة جهده الخاص وإدراكه الشخصي، وهذا الشعور هو ما نحسّه في حالات الإدراك الاعتيادية تجاه أفكارنا العادية، فإنّنا مع اعتقادنا بأنّ أفكارنا منسوبة إلى الله تعالى - على أساس أنّه الخالق المدبّر لعالم الوجود بجميع مقوماته، ومنه قدرتنا على التفكير - نشعر وكأنّ هذه الفكرة وليدة هذا المزيج المركّب في ذات أنفسنا، ونتيجة عن مجموعة المواهب والقدرات الشخصية لنا.

(ب) أن يشعر الإنسان بأنّ الفكرة قد أُلقيت إليه من طرف علوي، وجاءته من خارج ذاته. وشعوره هذا بدرجة من الوضوح بحيث يحسّ بهذا الإلقاء والانفصالية بين الذات الملقية والذات المتلقية، ولكنه مع ذلك كلّه لا يكاد يحسّ بالأسلوب والطريقة التي تمّت فيها عملية إلقاء الفكرة.

وهذا النحو من الشعور تجاه الفكرة هو ما يحصل في حالات (الإلهام) الإلهي^٣.

(ج) أن يصاحب الشعور الحسي الذي شرحناه في فقرة (ب) شعور حسي آخر بالطريقة

١. نقل هذا البحث من علوم القرآن (الحكيم): ١٤٨ فما بعدها.

٢. لسان العرب ١٥: ٣٨١، مادة (وحي).

٣. قارن بهذا ما ذكره الدكتور صبحي الصالح في كتابه (مباحث في علوم القرآن): ٢٢ - ٢٧.

والأسلوب الذي تتمّ به عملية الإلقاء والاتصال، وهذا الحس والشعور - سواء أحسّ بأنّ الفكرة جاءت من أعلى أو أحسّ بأنّ مجيئها كان بالأسلوب الخاص - لا بدّ فيه أن يكون واضحاً وجلياً كوضوح إدراكنا للأشياء بحواسنا العادية. وهذا ما يحدث في حالات الوحي إلى الأنبياء، أو على الأقل ما حدث في وحي القرآن الكريم إلى نبينا محمد ﷺ .

إذن هناك فرق بين الإدراك العادي الذي يكون نتيجة الموهبة، وبين الإلهام والوحي؛ لأنّ إدراك الموهبة في الحقيقة، يعبر عن فكرة يدركها الإنسان، مع شعوره بأنّها نتيجة للجهد الشخصي، وإن كان يدرك بشكل عقليّ ومنطقيّ أنّها مرتبطة بسبب أو بآخر بالله سبحانه. والإلهام عبارة عن فكرة يدركها الإنسان - مصحوبة بالشعور الواضح - بأنّها ملقاة من الطرف الأعلى المنفصل عن الذات الإنسانية، وإن كان لا يدرك الإنسان شكل الطريقة التي تمّ فيها هذا الإلقاء.

والوحي عبارة عن فكرة يدركها الإنسان - مصحوبة بالشعور الواضح - بأنّها ملقاة من الطرف الأعلى المنفصل عن الذات الإنسانية، وشعور آخر واضح بالطريقة التي تمّ فيها الإلقاء.

الشبهة حول الوحي

هناك ارتباط وثيق بين هذا الموضوع وبحث إعجاز القرآن؛ لأننا نتعرف من خلال ذلك البحث على أنّ القرآن ليس ظاهرة بشرية، وبالتالي ليس من صنع محمد ﷺ ، وإنّما يكشف - بجوانب تحدّي فيه - عن ارتباطه بعالم الغيب وما وراء الطبيعة.

وعلى هذا الأساس، نجد أنّ مناقشة الشبهات - التي تثار حول الوحي القرآنيّ - لا بدّ وأن تعتمد بصورة رئيسية على نتائج بحث إعجاز القرآن. ولذا فنحن حين نذكر هنا بعض ما يثار حول الوحي، نقصد بذلك أن نعالج بعض التفاصيل ذات العلاقة بهذه الإثارة دون الجانب الأساسيّ للمسألة.

ولعلّ من أخصب الأساليب في إثارة الشبهة حول الوحي، هو الأسلوب الذي يحاول أن يُضفي على النبي محمد ﷺ صفات الصدق والأمانة والإخلاص والذكاء، الأمر الذي أدّى به أن يتخيّل نفسه أنّه ممّن يوحى إليه، وهو ما يسمّى بالوحي النفسيّ... فإنّ هذا الأسلوب يحاول أن يستر دوافعه المغرضة بمظاهر الإنصاف والمحبة والإعجاب.

القرآن وحي نفسي لمحمد ﷺ

وخلاصة ما قيل في صياغة هذه الشبهة: أن محمداً ﷺ قد أدرك بقوة عقله الذاتية - وبما يتمتع به من نقاء وصفاءٍ روحي ونفسي - بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أيضاً أفراد آخرون من قومه، وأن فطرته الزكية - بالإضافة إلى بعض الظروف الموضوعية كالفقر - حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، وأكل المال بالباطل، أو الانغماس في الشهوات، وارتكاب الفواحش كالاستمتاع بالسكر والتسري وعزف القيان وغير ذلك من القبائح.

وأنه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات، وقد استفاد من النصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها كثيراً من المعلومات عن الأنبياء والمرسلين ممن بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم، فأخرجوهم من الظلمات إلى النور. كما أنه لم يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصارى، لما عرض للنصرانية من الأفكار الوثنية والانحرافات، كألوهية المسيح وأمه، وغير ذلك من البدع.

وأنه كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من عرب الحجاز بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وتولد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون ذلك النبي الذي آن أوانه، وأخذ يتوسل إلى تحقيق هذا الأمل بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى في خلوته بغار حراء.

وهناك قوي إيمانه وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكيره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات والدلائل البينة في السماء والأرض، على وحدانية الله سبحانه خالق الكون ومدبر أموره. وبذلك أصبح أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ثم ما زال يفكر ويتأمل وينقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشرية، وتجلي له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته من هذا الوحي، فهي مستمدة في الأصل من تلك المعلومات، التي حصل عليها من اليهود والنصارى، ومما هداه إليه عقله وتفكيره، في التمييز

بين ما يصحّ منها وما لا يصحّ، ولكنها كانت تتجلّى وكأثما وحي السماء، وخطاب الخالق عزّ وجلّ، يأتيه بها الناموس الأكبر، الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم، وغيرهما من النبيين.

مناقشة الشبهة

وإذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي)، لا نجد لها تصمداً أمام النقد والمناقشة العلمية؛ إذ يمكن أن يلاحظ عليها من خلال جوانب ثلاثة:

الأول: أن الدلائل التاريخية، وطبيعة الظروف التي مرّ بها النبي ﷺ، تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها.

الثاني: أن المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية، بما يضمّ من تشريع وأخلاق وعقائد وتاريخ، لا يتفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني.

الثالث: أن موقف النبي محمد ﷺ من الظاهرة القرآنية، يشهد بوضوح على رفض تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية الوحي النفسي.

(١) الدلائل التاريخية تناقض نظرية الوحي النفسي

لقد ذكر السيد رشيد رضا^١ - بصدده مناقشته للمقدمات التاريخية وغيرها التي رتبها (درمنغام) لعرض نظرية الوحي النفسي - عشر ملاحظات وسوف نقتصر على تلخيص بعضها.

الأولى: أن أكثر المقدمات - التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم - لا تقوم على أساس تاريخي صحيح، وإنها تنطلق من نقطة مفروضة على البحث بشكل مسبق، وهي أن الوحي القرآني ليس وحيّاً منفصلاً عن الذات المحمّدية، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النظرية إلى اختلاق الحوادث والأخبار، أو تخيلها من أجل إكمال الصورة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر.

ومن الأمثلة على ذلك، ما يذكرونه من تفاصيل في مسألة لقاء الراهب بحيرا مع

١. تفسير المنار ١١: ١٤٧ - ١٩٤.

محمد ﷺ وهو بصحبة عمّه أبي طالب، الأمر الذي يدعوهم إلى الاستنتاج وافتراض محادثات دينية وفلسفية معقدة.

وما يذكرونه أيضاً بصدد تعليل إطلاعه على أخبار عاد وشمود، من أنه كان نتيجة مروره بأرض الأحقاف، بالرغم من أن هذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية، كما أن التاريخ لم يذكر لنا مرور النبي بها، إلى غير ذلك من الأحداث والقضايا.

الثانية: أن افتراض تعلّم النبي محمد ﷺ من نصارى الشام وغيرهم لا يتفق مع واقع الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله؛ لأنّ مثل هذه العلاقة لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات، وبالرغم من أن هؤلاء لم يمسكوا عن إطلاق شتى التهم والأراجيف، وافترضوا في الوحي الفروض المتعددة، ومنها فرض التعليم والتلقي من أشخاص معيّنين، كالرومي في مكة.

ولكن مع ذلك كلّ لم يكونوا ليفرضوا أن يكون قد تعلّم من نصارى الشام أو غيرهم.

الثالثة: إنه لم يعرف عن الرسول محمد ﷺ، أنه كان ينتظر أن يفاجأ بالوحي، أو يأمل أن يكون هو الرسول المنتظر، لينمو ويتطوّر هذا الأمل في نفسه، فيصبح واقعاً نفسياً، بالرغم من تدوين كتب السيرة النبوية لأدقّ الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسول الشخصية. ولعلّ من القرائن التاريخية التي تشهد بكذب هذا الافتراض هو ما ذكرته كتب السيرة من اضطراب النبي وخوفه، حين فاجأه الوحي في غار حراء، «وهذا الاضطراب أمر مشكوك فيه تماماً».

الرابعة: أن هذه النظرة تفرض أن يكون إعلان النبوة نتيجة مرحلة معينة من التكامل العقلي والنفسي، ونتيجة مراحل طويلة من المعاناة والتفكير والتأمل والحساب... وهذا يستلزم بطبيعة الحال أن ينطلق الرسول في اللحظة الأولى من دعوته إلى طرح مفاهيمه

١. «وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (سورة النحل: ١٠٣).
اختلف في اسم وشخصية هذا الذي ادعى أنه كان يعلم الرسول، وأكثر الروايات كانت تعرفه رومياً يتكلم الرومية، لكن بعضها أوردت أن المراد منه سلمان الفارسي. انظر التفاسير الواردة ذيل هذه الآية.

وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعددة؛ لأنّ المفروض أنّ الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل... مع أنّ التاريخ يؤكّد أنّ أسلوب الدعوة وطريقتها كان يختلف عن ذلك تماماً، وأنّ الانطلاق إلى المجالات الأخرى بشكل تدريجي، مع ما كان يتخلّل ذلك من ركود وانقطاع في الوحي.

٢) المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظرية الوحي النفسي

إنّ لسعة النظرية القرآنية وآفاقها المتعددة ومجالاتها المتشعبة، أهميّة كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي؛ إذ أنّ هذا الاتّساع والشمول لا يتفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية. ويتضح ذلك عندما نلاحظ الأمور التالية:

الأول: أنّ الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية، هو موقف المصدّق لهما والمهيمن عليهما. فقد صدّق القرآن الكريم الأصل الإلهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى، كما جاء مهيمناً ورفيقاً وحاكماً على ما فيهما من ضلالات. وجاءت هذه الرقابة دقيقة شاملة، فلم تترك مفهوماً أو حكماً أو حادثة إلاّ ووضعت المقياس الصحيح فيه. ولا يمكن أن تتصور محمّداً ﷺ - وهو يأخذ عن أهل الكتاب - يتمكّن من أن يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات، ويوضح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثم تأتي نظريته بعد ذلك كلمة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف. ولكنّ محمّداً لم يكن قد أخذ منهم شيئاً، وإنّما تلقى كلّ ذلك عن الوحي الإلهي الذي جاء مصدّقاً لما سبقه من الوحي ومهيماً على الانحراف والتحريف معاً.

الثاني: ونجد القرآن أيضاً يخالف التوراة والإنجيل في بعض الأحداث التاريخية، فيذكرها بدقّة متناهية ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل على الأقل، تفادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل.

ففي قصّة موسى يشير القرآن إلى أنّ التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أنّ سفر الخروج يؤكّد أنّها كانت ابنته. كما أنّ القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق لا يتجاهل، حتى

مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^١.

في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم. ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل، حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، ويتكرر أيضاً في قصة ولادة مريم للمسيح ﷺ وغيرهما من القضايا...

ولا يصحّ لمحمد ﷺ وهو الإنسان الصادق الأمين الذكي أن يذكر هذه التفاصيل، فيصطدم بالتوراة والإنجيل دون سبب معقول، لولا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي لا يستطيع مخالفته.

الثالث: أن سعة التشريع الإسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفاصيل، برهان واضح على تلقيه ذلك عن طريق الوحي، إذ لم يكن لمحمد ﷺ - وهو الإنسان الأمي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم، كما أنه قضى أكثر حياة دعوته في خضم الصراع الاجتماعي... - ليتمكن كإنسان أن يفعل ذلك، لولا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي والسماء.

(٣) موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي^٢

لقد كان النبي محمد ﷺ يدرك بشكل واضح، الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الإلهية الملقية من أعلى، وهذا الإدراك هو حقيقة الوحي الذي أشرنا إليه سابقاً. وقد صور الرسول ﷺ هذا الوعي والإدراك في مناسبات متعددة، وأوضحه للمسلمين فيما روي عنه حيث قال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»^٣.

١. سورة يونس: ٩٢.

٢. لخصنا هذا الموضوع عن الدكتور صبحي الصالح في كتابه (مباحث علوم القرآن): ٢٨ - ٣٨ وهو بدوره أخذه كما يظهر

من الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه «النبأ العظيم» ومالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية».

٣. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي الحديث رقم ٢.

أشكال الشعور الواعي

وقد انعكس هذا الشعور الواعي بالانفصال في الوحي - بين الذات الأمرة المعطية والذات المخاطبة المتلقية - على الظاهرة القرآنية. وكان له مظاهر عديدة نذكر منها الأشكال الثلاثة التالية:

الشكل الأول: الصورة التي يبدو فيها النبي ﷺ من خلال الظاهرة القرآنية عبداً ضعيفاً لله سبحانه، يقف بين يدي مولاه يستمد منه العون، ويطلب منه المغفرة ويمثل أوامره ونواهيه، ويتلقى منه العقاب بمختلف مراتبه وأشكاله. والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة. فالقرآن يصور محمداً ﷺ في صورة الإنسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئاً، ويخاف ربه إن عصاه، فيلتزم الحدود التي وضعها له ويرجو رحمته، وليس من شيء يأتيه إلا من قبل ربه، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة الله أو تبديل حرف من القرآن.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَّا يَكُونُ لِي أُنْبِئُهُ مِنَ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنَّ آتِيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ فُلٌ لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ... ﴿١٩﴾﴾.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ... ﴿٢٠﴾﴾.

١. سورة يونس: ١٥ - ١٦.

٢. سورة الكهف: ١١٠.

٣. سورة الاعراف: ١٨٨.

٤. سورة الأنعام: ٥٠.

ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية ونظائرها ويترك لوجدانه الحكم، لا يسعه إلا أن يقتنع من أعماق قلبه ونفسه بالفرق بين الذات الإلهية الأمرة الملقية والذات المحمّدية المطيعة المتلقية. ثم يزداد هذا الفرق وضوحاً بين ذات الله المتكلم منزل الوحي وصفاته، وبين ذات رسوله المخاطب متلقي الوحي وصفاته، في الآيات التي يعتب الله على نبيه عتاباً خفيفاً أو شديداً، أو يعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه ما تقدّم من ذنبه وما تأخر.

فمن العتاب الخفيف المقترن بالعفو خطابه لرسوله في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾^١، ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^٢.

وأشدّ من هذا ما يوجّهه إلى الرسول ﷺ من الإنذار والتهديد في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^٣، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتُفْتِرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً ﴿٦٠﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ تَرَكْنَا لِيَهُمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿٦١﴾ إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾^٤.

وهذا الإنذار يبلغ القمة، فيستصغر بعده كلّ تهديد وكلّ وعيد حين يقول الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٦٢﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٦٤﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^٥.

ومن خلال هذه الآيات المتوعدة المنذرة، وتلك العاتبة المؤدبة، يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ذي القدرة الظاهرة.

ويبدو لنا أيضاً كامل الوعي، للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الأمرة، وبوعيه الكامل هذا كان يفرّق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصة التي كان يعبر عنها

١ . سورة التوبة: ٤٣ .

٢ . سورة الفتح: ٢ .

٣ . سورة المائدة: ٦٧ .

٤ . سورة الاسراء: ٧٣ - ٧٥ .

٥ . سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٧ .

بإلهام من الله، لذلك نهى أول العهد لنزول الوحي عن تدوين شيء منه سوى القرآن؛ لكي يحفظ للقرآن صفته الربانية، ويجول دون اختلاطه بشيء ليست له هذه الصفة القدسية، بينما كان عند نزول الوحي - ولو آية أو بعض آية - يدعو أحد الكتبة فوراً ليدون ما نزل من القرآن.

الشكل الثاني: يبدو النبي في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الآيات القرآنية ونسيانها، الأمر الذي كان يدعو إلى أن يعجل بقراءة القرآن، قبل أن يقضى إليه وحيه، ويأخذ بترديده، ويجهد نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك^١، ويتضح هذا في قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^٢.
﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^٣ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^٤
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^٥.

ولا يسعنا إزاء هذه الحقيقة إلا أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي ﷺ استقلالاً مطلقاً، وتفرداً عن العوامل النفسية تفرداً كاملاً، فالنبي لا يملك حتى حق استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل الله يتكفل بتحفيظه إيّاه. وقانون التذكر نفسه بطل الآن سحره وعفا أثره تجاه إرادة الله، فكيف لا يعي النبي - بعد هذا كله - الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات الله الأمرة، وهو يرى بنفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً؟!

الشكل الثالث: يبدو النبي من خلال تاريخ نزول القرآن أنه كان مقتنعاً بأن التنزيل القرآني مصحوب بانمحاء إرادته الشخصية، وأنه منسلخ عن الطبيعة البشرية، حتى ما بقي له - عليه الصلاة والسلام - اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه. فقد يتتابع الوحي ويحمي حتى يشعر أنه يكثر عليه، وقد يفتر عنه ويشعر أنه أحوج ما يكون إليه. فقد كان الوحي ينزل على قلبه - صلوات الله عليه - في أحوال مختلفة، فإنه ليأوي إلى فراشه فما يكاد يغفو إغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسماً، فقد أوحيت إليه سورة الكوثر (الخير الكثير). وإنه ليكون وادعاً في بيته وقد بقي من الليل ثلثه، فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا: ﴿حَتَّىٰ

١. انظر: التبيان (الطوسي) ٧: ٢١٢ - ٢١٣.

٢. سورة طه: ١١٤.

٣. سورة القيامة: ١٦ - ١٩.

إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

إنّ الوحي لينزل على قلب النبيّ في الليل الدامس والنهار الاضحيان، وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر، وفي هداة السوق أو وطيس الحرب. ثم ها هو ذا الوحي ينقطع عن النبيّ، وهو أشدّ ما يكون إليه شوقاً وله طلباً، فبعد أن نزل عليه جبريل بأوائل سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فتر الوحي ثلاث سنوات فحزن النبيّ، ثم الوحي تتابع فاستبشر النبيّ وتبدّل انتظاره الحزين فرحة غامرة، وأيقن أنّ هذا الوحي الذي استعصى عليه ولم يوافه طوع إرادته مستقل عن ذاته خارج عن فكره، فاستقرّ في ضميره الواعي أنّ مصدر هذا الوحي هو الله علامّ الغيوب.

ومن ذا الذي ينسى كيف أبطأ الوحي بعد (حديث الافك) الذي رمى به المنافقون زوج النبيّ ﷺ، وأثاروا به حولها الفضيحة حتى عصفت بقلب الرسول الريبة. من ذا الذي لا يدرك أنّ هذه المدة التي تصرّمت على الحادثة من غير أن يتلقّى النبيّ خلالها وحيّاً، كانت أثقل عليه من سنين طويلة، بعد أنّ خاض المنافقون في زوجه خوفاً باطلاً؟ فما بال النبيّ الذي كان فريسة للشك والقلق يظلّ صامتاً ينتظر واحماً يتربّص، حتى نزلت آيات النور تبرّئ أم المؤمنين؟

وما له لا يسرع إلى التدخل في أمر السماء، فيرتدي مسوح الرهبان، ويهيء الأسجاع ويطلق البخور ويبرّئ زوجه من قذف القاذفين؟

ولقد كان النبيّ يتحرى شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة^٢، وظلّ يقلّب وجهه في السماء ستّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، لعلّ الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكن ربّ القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآناً، رغم تلّهف رسوله الكريم إليه، إلاّ بعد قرابة عام ونصف العام، ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ

١. سورة التوبة: ١١٨.

٢. انظر: من لا يحضره الفقيه ١: ٢٧٤ - ٢٧٦ ح ٨٤٥.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿١﴾.

فلماذا لم يُسعف النبي نفسه بوحى عاجل يحقق ما يصبو إليه ويتمناه؟! إن الوحي ينزل ويكثر على محمد ﷺ حين يشاء رب محمد ﷺ، ويفتر إذا شاء له رب محمد ﷺ الانقطاع، فما تنفع التعاويذ والأسجاع، لا تقدم عواطف محمد ﷺ ولا تؤخر في أمر السماء.

وحين نلتفت إلى هذه الأشكال الثلاثة بصورها المختلفة، ونضيف إليها الجانبين الآخرين، لا يبقى لدينا مجال لأي تردد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنية، وانفصالها عن الذات المحمدية، وبطلان الوحي النفسي وما إليه من شبهات قد تثار.

القسم الثالث: حول التفسير والمفسرين

الفصل الأول: التفسير واهتمام المسلمين به

الفصل الثاني: نحو تفسير علمي للقرآن

الفصل الأول: التفسير واهتمام المسلمين به

اهتمام المسلمين

وقد اهتم المسلمون منذ صدر الإسلام بهذا الأمر أكثر من أي موضوع آخر ليرسم القرآن الكريم مسيرتهم العقلية والفكرية ويوضح لهم معالم مسيرتهم الحضارية إلى الأبد.

فهرس أهم التفاسير (حسب تواريخ وفيات أصحابها مع ذكر مذاهبهم ومناهجهم).

التسلل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج
١	عبدالرزاق	عبدالرزاق	القرن لثاني	سني	روائي
٢	الشافعي	الشافعي	٢٠٤	سني	روائي
٣	ابن أبي حاتم	ابن أبي حاتم	الولادة ٢٤٠	سني	روائي
٤	التفسير المعروف	علي بن إبراهيم	٣٠٧	شيعي	روائي
	بتفسير القمي	القمي			
٥	الطبري	محمد بن جرير بن يزيد الطبري	٣١٠	سني	روائي
٦	العياشي	محمد بن مسعود	٣٢٠	شيعي	روائي؛ سورة الحمد إلى آخر سورة الكهف
٧	الخصاص	أبو بكر أحمد بن علي الرازي	٣٧٠	سني حنفي	روائي
٨	الكشف والبيان	أبو إسحاق الثعلبي	٤٢٧	سني	فيه نقل الاسرائيليات
٩	التيان في تفسير القرآن	الطوسي	٤٦٠	شيعي	روائي
١٠	الكيهراسي	علي بن محمد الطبري	٥٠٤	سني	
١١	المحرر الوجيز	البغوي	٥١٠	سني	
١٢	الكشاف	الزمخشري	٥٢٨	سني	عقلي

التسلسل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج
١٣	ابن العربي	كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني	٥٤٣	سني	عرفاني
١٤	المحرر الوجيز لابن عطية	ابن عطية	٥٤٨	سني	
١٥	مجمع البيان في تفسير القرآن	الطبرسي	٥٤٨	شيعي	نظرة تقريبية
١٦	الراوندي	قطب الدين سعيد الراوندي	٥٧٣	شيعي	متأثر بالتبيان
١٧	الكبير - مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازي	٦٠٦	سني	الاشكال على الفلاسفة نقل أقوال تناسب السور
١٨	القرطبي	محمد بن أحمد الأنصاري	القرن السابع	سني مالكي	اتجاه فقهي نقل الاسرائيليات
١٩	أنوار التنزيل واسرار التأويل	البيضاوي	٦٥٨	سني شافعي	خلاصة الكشاف؛ ذكر فضائل السور
٢٠	مدارك التنزيل	النسفي	٧٠١	سني	خلاصة الكشاف والبيضاوي؛ فيه فضائل

التسلسل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج السور
٢١	غرائب القرآن	النيسابوري	٧١١	شيعة	
٢٢	لباب التأويل في معاني التنزيل	علي بن محمد الخازن	٧٤١	سني	روائي
٢٣	القرآن العظيم	ابن كثير الدمشقي	القرن الثامن	سني	
٢٤	كنز العرفان في فقه القرآن	المقداد السيوري	٨٢٦	شيعة	
٢٥	الثلاثي الزيدي	الزيدي	٨٣٢		
٢٦	جواهر الحسان	الثعالبي	٨٧٦	سني	مختصر بدون زوائد
٢٧	الجلالين	جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي	٨٦٤	سني	روائي
٢٨	الدر المنثور	السيوطي	٩١١	سني	
٢٩	السراج المنير	الشرييني	٩٧٧	سني	نقل ارجع الأقوال مع بعض الاسرائيليات
٣٠	ارشاد العقل	أبو السعود	٩٨٢	سني	إرشاد إلى مزايا

التسلسل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج الكتاب الكريم
٣١	الصافي	ملا محسن فـيـض الكاشاني	١٠٩١	شيعي	روائي نقلي
٣٢	البرهان في تفسير القرآن	سيد هاشم البحراني	١١٠٧	شيعي	يحيوي روايات أهل البيت
٣٣	نور الثقلين	عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي	١١١٢	شيعي	روائي
٣٤	الجزائري	أبو بكر الجزائري	١١٥٩	سني	
٣٥	روح المعاني	شهاب الدين الالوسي	١٢٧٠	سني	
٣٦	المنار	سيد رشيد رضا	١٣٥٥	سني سلفي	تقرير دروس الشيخ محمد عبده
٣٧	اضواء البيان	الشنقيطي	١٣٩٣	سني	تفسير القرآن بالقرآن
٣٨	الميزان في تفسير القرآن	السيد محمد حسـيـن الطباطبائي	١٤٠٠	شيعي	جامع

التفسير حسب القرون

أوائل المفسرين

و يذكر المؤرخون الشخصيات التالية	سنة الوفاة
عبدالله بن عباس	٦٨ هجرية
سعيد بن جبير	٩٤ أو ٩٥
مجاهد بن جبير	١٠٤
الفراء النحوي	٢٠٧
عكرمة	١٠٥
ابن جريج	١٠٥

أما حسب القرون فيذكرون ما يلي:

في عصر الصحابة:

الإمام علي عليه السلام

ابن عباس

ابن مسعود

أبي بن كعب

في عصر التابعين:

مدرسة مكة:

سعيد بن جبير

مجاهد بن جبير

ت ١٠٦

طاووس بن كياس

ت ١١٤

عطاء بن أبي رباح

مدرسة المدينة:

٩٤

سعد بن المسيب

٩٠

أبو العالية الرياحي

	محمد بن كعب القرظي
١٣٦	زيد بن أسلم العدوي

مدرسة العراق

١١٧	قتادة السدوسي
١٢٨	جابر الجعفي
١٢٧	السدي الكبير
٦٣	مسروق بن الأجدع
٦١	علقمة بن قيس
٧٦	مرة الهمداني
١٠٩	عامر الشعبي
١١٠	الحسن البصري
١٢٠	أبو صالح باذان

ويجب أن لا نغفل هنا دور أهل البيت عليهم السلام العظيم في نشر الثقافة التفسيرية بين المسلمين وله حديث مفصل.

في القرن الثالث

٢٠١	الإسفراييني
٢٠٤	هشام الكلبي
٢٠٨	يونس بن عبدالرحمن
٢٢٤	ابن فضال
٢٢٤	البطائني

في القرن الرابع

٣٢٩ ت	على بن إبراهيم القمي فرات الكوفي
٣٢٠ ت	العياشي النعمانني
٣١٠ ت	الطبري بحر العلوم السمرقندي

في القرن الخامس

٤٣٦	السيد المرتضى
٤٠٦	السيد الرضى
٤١٣	المفيد
٤٦٨	الطوسي
٤١٢	السلمي
٤٢٧	الثعلبي
٤٥٠	الواحدي النيشابوري

٤٨١	الاندلسى
٤٨٩	المروزي
٤٤٨	القشيري

في القرن السادس

٥٤٨	الطبرسى
٥٥٦	الرازي
٥٧٣	الراوندي
٥٥٨	ابن شهر آشوب
٥٣٨	الزحشري
٥١٦	البغوي
٥٩٧	الجوزي
بعد ٥٣٠	المبيدي

في القرون ٧ و٨ و٩

بعد ٦٤٠	الشيبياني
ق ٧	الواعظ
٧٨٧	الأملي
ق ٨	الرجاني
٦٦٤	ابن طاووس
٨٢٦	المقداد السيوري
٦٠٦	الفخر الرازي
٧٦١	القرطبي
٦٨١	البيضاوي
٧١٠	النسفي
ت بعد ٧٢٥	الخازن

٧٣٠	النیشابوري
٧٤٥	أبو حیان الاندلسی
٧٧٤	ابن كثير
٨٧٦	الثعالبي
٨٨٥	البقاعی

القرون ١٠، ١١، ١٢

٩٨٨	الكاشاني
١٠٩١	الفيض الكاشاني
١١٠٧	البحراني
١١١٢	الحويزي
١٠٥٠	الملا صدرا
٩١١	السيوطی
١١٢٧	الحقی

القرنان ١٣، ١٤

١٢٤٢	السید عبدالله شبر
١٢٥٠	الشوكاني الزيدي
١٢٧٠	الآلوسی
١٣٥٨	الطنطاوي
ت ١٣٥٥	رشيد رضا
ت ١٤٠٠	الطباطبائي
	وغيرهم ^١ .

١ . راجع: كتب طبقات المفسرين للاندودي والداوودي والعقيقي والعلوي والقيسي وكتاب (التفسير والمفسرون) في ثوبه القشيب للشيخ معرفت وغيرها.

مناهج المفسرين

وقد اختلف المفسرون والمؤرخون للتفسير في تقسيم هذه المناهج؛ فقسمها الذهبي إلى تفسير بالمأثور أو بالرأي (وذكر له أحد عشر نموذجاً) وقسمها خالد عبدالرحمن إلى التفسير بالمأثور أو باللغة أو بالعقل أو بالاجتهاد أو بالاشارة وقسمها الشيخ السبحاني إلى العقل والنقل.

أما العقل فهو يشمل:

- ١- العقل الصريح.
- ٢- وفق المدارس الكلامية.
- ٣- طبق السنن الاجتماعية.
- ٤- طبق العلم الحديث.
- ٥- طبق تأويلات الباطنية.
- ٦- طبق تأويلات الصوفية.

وأما النقل فيشمل:

- ١- تفسير القرآن بالقرآن.
- ٢- التفسير التبييني البلاغي.
- ٣- التفسير باللغة والقواعد العربية.
- ٤- التفسير بالمأثور عنه صلى الله عليه وسلم أو عنهم ^

أما الشيخ معرفت فيقسمه إلى النقل والاجتهادي.

والنقلي قد يكون مع توضيح (كالطبري) وقد يكون بدونه (كالسيوطي والبحراني) والاجتهادي: كتفاسير الباطنيين.

أو ما يجمع بين العقل والنقل وهو الشائع وهو بدوره ينقسم إلى الفقهي والأدبي واللغوي والموجز والعرفاني الرمزي.

وهناك تقسيمات أخرى التقسم المختار:

أن يقال باختلاف الحثيات فيقسم:

أ- من حيث السير التفسيري إلى:

١- التفسير الترتيبي (آية فأية).

٢- التفسير الموضوعي بالتركيز على الموضوعات القرآنية كلها أو بعضها.

ب- من حيث التفصيل إلى مطول وموجز ومتوسط.

ج- من حيث الجامعة ينقسم إلى:

١- الجامع لكل الأبعاد (كتفسير الميزان وتفسير مفاتيح الغيب للرازي).

٢- التركيز على جانب واحد من قبيل:

- تفسير المفردات (للاغب الاصفهاني).

- الإعراب والقواعد (كالسبوطي).

- بعض الآيات أو السور أو الأجزاء.

- بعض الأبعاد وتشمل:

البعد التاريخي، البعد الفلسفي، البعد العرفاني، البعد الاجتماعي، أسباب النزول، البعد الكلامي، البعد الفقهي (بالتركيز على آيات الأحكام)، البعد الروائي، البعد العلمي الحديث، البعد الباطني، أقوال المفسرين، وغير ذلك.

ملاحظات تعريفية لبعض التفاسير المختارة

١- تفسير القرآن العزيز المعروف بتفسير عبدالرزاق والمؤلف هو الصنعاني في أوائل القرن الثاني.

وقد اختلف في مذهبه، وقيل إنه كان يحفظ ١٧ ألف حديث.

وهو تفسير روائي يحوي ٣٧٥٩ حديثاً وربما خلا من الاسرائيليات إلا قليلاً.

٢- تفسير الإمام الشافعي (ت ٢٠٤) وهذا التفسير جمعه الحافظ البيهقي النيشابوري صاحب السنن الكبرى (ت ٤٥٨).

٣- تفسير ابن أبي حاتم وفيه (١٩٥٤١) حديثاً وينقل حتى عن أتباع التابعين بعبارة (حدثنا) وقد حاول أن يذكر أصح الأسانيد إلا أن فيه أحاديث ضعيفة.

٤- تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم وكان من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام وكان حياً سنة ٣٠٧ وهو ثقة له كتب ومن مشايخ المرحوم الكليني وربما كان التفسير من تأليف تلميذه أبي الفضل العباس ولا ذكر لهذا في كتب الرجال، كما أن الإسناد إليه مجهول وفيه ضعاف وفيه غلو أيضاً.

٥- تفسير (العياشي) ومؤلفه سني متشيع توفي عام ٣٢٠ وهو من أهالي سمرقند يجوي تفسيره على ٢٧٢٢ رواية بلا سند (ربما لحذف النساخ). وقد فقد الجزء الثاني ولكن صاحب مجمع البيان والحاكم الحسكاني ينقلان عنه وقد اتهم بالقول بالتحريف.

٦- تفسير (جامع البيان) مؤلفه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في مدينة آمل سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ في بغداد ودفن ليلاً لأنه اتهم بالتشيع رغم أنه كان شافعيّاً.

ويعد تفسيره مرجعاً للمفسرين ويقع في ثلاثين مجلداً ويجوي ٢٩٦٨٤ حديثاً وهو تفسير اجتهادي نقلي فيه ترجيح للأقوال والروايات ويتعرض للقراءات. ولم يخل من الاسرائيليات.

٧- تفسير التبيان لشيخ الطائفة الطوسي. وقد ولد بخراسان (طوس)١.

ولد الشيخ عام ٣٨٥ وهاجر إلى بغداد عام ٤٠٨ زمن الشيخ المفيد فتلمذ عليه ثم على السيد المرتضى (٢٣ سنة) وكان زعيم الشيعة ولما هاجم طغرل بك زعيم السلاجقة بغداد عام ٤٤٨ هاجر إلى النجف بعد أن احترقت داره ومكتبته وأسس الحوزة العلمية الكبرى في النجف. وتوفي عام ٤٦٠ هـ وما زال مسجده إلى اليوم محلاً لتدارس العلماء. وكان الشيخ من أعظم العلماء وله خمسون كتاباً منها (التبيان) وكتب تفسيرية أخرى كالرجية ولعظمته وعمق مؤلفاته فقد أغلق باب الاجتهاد طوعاً بعده إلى أن برز المرحوم ابن إدريس الحلي وراح ينتقد آراء الشيخ. ويتعرض تفسير (التبيان) في المقدمة إلى أنواع التفسير وعلوم القرآن ثم يشرح الهدف منه ثم يذكر معاني القرآن فمنها ما اختص الله تعالى به كعلم الساعة. ومنها ما يطابق معناه ظاهره كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

١. ومن الملاحظ أنه خلافاً لما يشاع من أن التشيع فارسي والتسنن عربي، فإن التشيع ولد بشكل منظم في الكوفة والمدينة ويوم سيطر على العالم الإسلامي تقريباً في القرنين الرابع والخامس كان علماء خراسان من قبيل الغزالي، وإمام الحرمين الجويني والزمخشري والنسائي والبيهقي هم الذين حموا التسنن ونشروه.

ومنها ما هو مجمل في ظاهره مثل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. ومنها ما يشترك بين معنيين ولعله المتشابه.

ويعتمد في تفسيره على القرآن وأقوال المعصومين والسلف وقواعد العربية والعقل والإجماع والتاريخ وأسباب النزول. هذا ورغم انتقادات ابن إدريس للشيخ إلا أنه - كما يقول السيد بحر العلوم^١ - اعترف بعظمة (التبيان) وذكر الشيخ شحاذة المصري أن الشيخ كان من رواد التفسير العقلي^٢.

٨ - تفسير أحكام القرآن للرازي الجصاص الحنفي الذي رفض تقلد المناصب وقد توفي عام ٣٧٠ وهو يدعم رأي الحنفية ويستطرد أحياناً ويذم مخالفه وخصوصاً الشافعي. وقد تأثر بآراء المعتزلة.

٩ - أحكام القرآن للكهرازي الشافعي الرازي: درس في المدرسة النظامية ببغداد وتوفي ٥٠٤ وقد تعصب لمذهبه ورد على الجصاص.

١٠ - أحكام القرآن لابن العربي المالكي الأندلسي وكان من الجامعين للفنون وألف كتباً كثيرة منها: (المسالك في شرح موطأ مالك) يقل تعصبه لرأي مذهبه وربما هاجم المخالفين كالشافعي. كره الاسرائيليات ونفر من الأحاديث الضعيفة.

١١ - المحرر الوجيز لابن عطية المتوفى سنة ٥٤٨ وهو تفسير ممدوح يميل إلى الاعتزال.

١٢ - تفسير قطب الدين الراوندي الشيعي توفي سنة ٥٧٣ وهو صاحب (منهاج البراعة في تفسير نهج البلاغة) وقد اعتمد عليه ابن أبي الحديد.

١٣ - تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي المالكي وكان زاهداً عابداً له مؤلفات، توفي عام ٦٧١ وقد تحدث عن أسباب النزول، والغريب، ورد على المعتزلة والشيعة والفلاسفة والصوفية فهو أقرب إلى السلفيين اليوم. وكان حراً في البحث وربما انتقد المالكية.

١٤ - تفسير (مجمع البيان) للشيخ الفضل بن فضال الطبرسي التفرشي توفي عام ٥٤٨. وهو عالم جامع على وزان الطبري، وكان تلميذاً لأعلام القرنين الخامس والسادس.

١. الرجال ج ٣: ص ٢٢٨.

٢. القرآن والتفسير ص ٢٣١.

والمعروف عنه أنه كان أسوة في التقريب بين المذاهب ويروى عنه أنه بعد الفراغ من كتابة (المجمع) عثر على كتاب (الكشاف) للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ فرآه جامعاً فسعى التأليف كتاب بعنوان (جوامع الجامع) ومن كتبه التقريبية (المؤتلف من المختلف) وتفسيره جامع قوي العبارة. وقد مدحه العلماء الكبار؛ فقال عنه الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الأزهر في تقديمه للكتاب: حلال معظلات كشاف مبهمات.

وقال فيه العلامة شلتوت: نسيح وحده؛ سعة في البحوث مع الترتيب والتبويب الذي لم نعهده من قبل... أول كتب التفسير الجامعة.

وقال عنه صاحب (التفسير والمفسرون): كتاب عظيم في بابه يجيد في كل ناحية تناولها. وتأليفات الشيخ الطبرسي كثيرة ومقدمة تفسيره جديرة بالقراءة والظاهر أن تفسير (البيان) يشكل أصلاً لـ (مجمع البيان) وإن كان المجمع أحسن ترتيباً وأكثر مطالباً وتفرعات.

وهو تفسير اجتهادي جامع يذكر الآراء بموضوعية ويتعرض لعلوم القرآن وغيرها بالمناسبة. ومصادره القرآن والسنة والعقل والتاريخ واللغة. وفيه بعض الإسرائيليات. ١٥- تفسير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ويسمى إمام المشككين. وقد دفعت تشكيكاته الفلسفية ليجيب عليها الفلاسفة مما طور العلوم العقلية.

أتقن علوماً كثيرة، وقام برحلات كثيرة أيضاً، وتمرس في العلوم كالفلسفة والكلام والأصول والطب والتفسير.

يبدو أنه كان محباً لأهل البيت عليهم السلام ويظهر ذلك من مواضع في تفسيره من قبيل تفسيره لسورة الكوثر، وحديثه عن الجهر بالبسملة في الصلاة وقوله: (من اقتدى بعلي فقد اهتدى) وقوله: (آل محمد كان لهم أشد التعلقات برسول الله).

إلا أنه يتحامل على شيعتهم أحياناً. ولعل ذلك من دس النساخ. وتفسيره اجتهادي روائي جامع (استغرق منه ١٠ سنوات) وهو كلامي يرى أن الله كوناً منظوراً وآخر مقروءاً (القرآن) وأنه يمكن أن يكتشف من سورة الحمد أكثر من عشرة آلاف مسألة.

وكان له اعداء الفواضله كالمسرمباحي حيث ألف فيه مجلدين. وكان يقدر مذهب خصمه بما لا يقدر هو عليه.

يلتزم بذكر تناسب الآيات والصور وأول السورة مع آخرها وهو ما نشهده عند بعض المفسرين الآخرين كسيد قطب في (الظلال).

يستفيد في تفسيره من القرآن والسنة والفلسفة والكلام والعرفان والعلوم التجريبية واللغة والتاريخ. وذكر الذهبي أنه لم يتم تفسيره وقد اختلفوا في من أتمه والظاهر أنه أكثر من واحد.

١٦- تفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للشيخ ناصر الدين البيضاوي الشافعي الأذربايجاني، توفي عام ٦٨٥ بتبريز وكان قاضياً بشيراز. تأثر بتفسير الكشاف بل يقال أنه اختصره، وذكر فضائل كل سورة رغم أن الكثيرين ينكرونها واستمدت من مفاتيح الغيب ومفردات الراغب. وهو تفسير اجتهادي جامع يذكر مذهب أهل السنة والمعتزلة ويقلل من ذكر الإسرائيليات، ويدخل في مباحث الكون والطبيعة، حشى عليه أربعون من أمهات كتب التفسير.

١٧- تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي الحنفي صاحب المؤلفات توفي عام ٧٠١ وقد اختصر تفسير البيضاوي والكشاف، ولم يذكر فضائل السور، وخاض في النحو والحديث والفقه، وقلل من الإسرائيليات.

١٨- تفسير غرائب القرآن لمحمد بن الحسين النظامي الأعرج النيسابوري. وأصله من مدينة قم وهو من كبار الحفاظ، زاهد ورع، متصوف له مؤلفات. وهو منسوب إلى التشيع ولا يبعد ذلك وإن دافع أحياناً عن رأي أهل السنة.

وهذا التفسير يختصر (مفاتيح الغيب) والكشاف يناقشه، ويذكر القراءات العشر والآراء ويدخل في الكونيات والفلسفة والعرفان. وقد رد فضائل السور.

١٩- تفسير الجلالين وهما المحلي والسيوطي والأسلوب واحد إلا في بعض الجوانب.

٢٠- تفسير كنز العرفان للمقداد السيوري الحلبي الشيعي توفي عام ٨٢٦ ولقد درسناه فوجدناه قوي الحججة واسع المعرفة وهو مؤلف (التنقيح الرائع فس شرح الشرائع) ويهاجمه الذهبي هجوماً غير موضوعي.

٢١- تفسير (السراج المنير) للخطيب الشرييني القاهري الشافعي توفي عام ٩٧٧. وقد اقتصر على ارجح الأقوال لديه، ولم يذكر إلا ما تواتر من القراءات، وركز على الأحاديث القوية، ورد أحاديث فضائل السور، واهتم بالنكت التفسيرية والمشكلات والمناسبات بين السور، والفقه إلا أن فيه إسرائيليات.

٢٢- تفسير (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود محمد العمادي الحنفي المتوفى سنة ٩٨٢ في استانبول والمدفون جوار قبر الصحابي أبي أيوب الانصاري. وفيه أسرار البلاغة، وقد كتبت تعليقات عليه. وقد مدح الكشاف والبيضاوي وذكر بعض فضائل السور.

٢٣- تفسير (زبدة البيان) للشيخ أحمد الأردبيلي الشيعي مؤلف (مجمع الفائدة في شرح الإرشاد) وهو من تفاسير آيات الاحكام الجيدة.

٢٤- تفسير ابن كثير وقد قيل عنه أنه خير كتب التفسير.

٢٥- تفسير الجواهر الحسان للثعالبي المتوفى عام ٨٧٦ وهو تفسير موجز وليس فيه حشو.

٢٦- تفسير (الصافي) للفيض الكاشاني التوفى عام ١٠٩١ وهو نسيب الفيلسوف الملا صدرا الشيرازي.

وكان أخبارياً صلباً، استفاد من تفسير البيضاوي. تفسيره روائي اجتهادي، مقدمته طويلة مفيدة، يشتمل على بعض الإسرائيليات والموضوعات. واكبر ضعفه احتمال التحريف. وقد نسب خطأً للمرحوم الكليني ذلك فقام بعض علماء السنة بتكفيره دون ترويه وقد حققنا الأمر في هذا الكتاب فوجدنا النسبة باطلة^١ غفر الله له.

٢٧- تفسير (الدر المثور في التفسير المشهور) لعبدالرحمن بن الكمال الأسيوطي الإيراني الأصل المتوفى سنة ٩١١. فيه أكثر من ١٠٠٠٠ حديث مع ذكر الراوي الأول والمصدر فهو مرجع لأهل السنة، وكثيراً ما استند العلامة الطباطبائي إليه في تفسيره (الميزان)، وفيه إسرائيليات.

٢٨- تفسير (نور الثقلين) للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي الشيعي وهو من محدثي القرن الحادي عشر ومعاصر للمرحومين البحراني والحر العاملي وكلهم أخباريون. توفي عام ١١١٢ وقد مدحه العاملي. نقل أحاديث أهل البيت عليهم السلام. وفيه أكثر من ١٣ ألف حديث وفيها الضعيف وهو بنفسه يقول: (فيه الغث والسمين).

٢٩- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا تقريراً لدرس استاذة الشيخ محمد عبده الذي التقى بالعلامة السيد جمال الدين الأسد آبادي الأفغاني فكان يخاطبه ب- مولاي الأعظم. ناوأ الانكليز وسجن مرتين، ونفي وأصدر مع أستاذة (العروة الوثقى)، تولى القضاء بمصر

١. راجع بحث (التحريف)، ص ١٥٦.

عام ١٨٨٨ م وعاد مفتياً لمصر. شرح نهج البلاغة وكتب كتباً كثيرة جمعت في أعماله الكاملة، توفي عام ١٣٢٣ وله تلامذة كثر.

أما رشيد رضا فاصله من سورية وعاش في مصر وأصدر مجلة المنار.

تفسيره جامع ولكنه ناقص ينتهي في م ١٢ إلى الآية (وما أبرئ نفسي) من سورة يوسف. والغريب أن محمد عبده اعتبر من المعتزلة الجدد في حين عاد رشيد رضا سلفياً متشدداً وقد رفض الإسرائيليات. واعتمد على تفسير الجلالين، ومفردات الراغب وتفسير البيضاوي والفخر الرازي. ونجده أحياناً يراجع ٢٥ تفسيراً. ومصادره القرآن والحديث المأثور والعقل والعلوم الحديثة والأدب والتاريخ واعترض على الطبري في حادثة بختنصر مع المسيحيين مع أنها سبقت المسيح بستة قرون. وقد ألف حوله الكثيرون وقد أنكر بعض الغيبيات.

٣٠- تفسير (الميزان) للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي وهو تلميذ العلماء الأجلة: الميرزا النائيني والإصفهاني الكمباني والعارف القاضي وتفسيره اجتهادي جامع نموذجي رائع، وجمع بين التفسير الترتيبي والموضوعي، والتفسير بالقرآن والحديث والفلسفة والعقل والأدب والتاريخ والعلم. وتفسيره تقريبي يستفيد من تفاسير الفريقين بشكل جميل، ويناقش بقوة ما يراه باطلاً.

الفصل الثاني: نحو تفسير علمي للقرآن

أهداف التفسير و التفسير العلمي

وأهمها الوصول إلى فهم المضامين التي أرادها الله تعالى في كتابه الكريم، ومعرفة ما افترض الله تعالى على عباده، وهي أهمّ الغايات بالإضافة إلى آثار هامة أخرى تترتب على ذلك. ولا شك أننا في سبيل فهم مضامين القرآن نحتاج إلى التفسير باعتباره الوسيلة التي توصلنا إلى معرفة المحكم والمتشابه والمجمل والمبين وحكمه وعلله وفرائضه وسننه... فالتفسير: محاولة لفهم مراد القرآن وبهذا نعرف الفرق بين التفسير القرآني الإسلامي، والتفسير المسيحي للإنجيل والتوراة المعروف بـ (الهرمنوطيقا).

فإن التفسير القرآني يستهدف اكتشاف مراد المولى جل وعلا من النص لا غير؛ وذلك لكي ينفذ أوامره أو يمتنع عن نواهيه، أو ليفهم المفاهيم والصور القرآنية عن الكون والتاريخ والحياة والإنسان، فيحقق الاعتقاد الصحيح وينطلق منه لتكوين المفاهيم العامة والخاصة التي تترك أثرها على سلوك الأفراد والمجتمعات. في حين أن الهرمنوطيقا جاءت في منطلقها لمعرفة قصد مؤلف النص ولكنها واجهت الكثير من الخرافات والتناقضات ليتحير (غادامير) مثلاً في إمكان فهم النص وينتهي الأمر بالمدرسة التركيبية الحديثة لتعتبر قراءة النص نشاطاً حراً وتعاملاً مطلقاً من أي قيد مع النص وعليه فمن الممكن أن نمتلك قراءات متنوعة عبر تحطيم أسس النص وبنيته وتركيبه من جديد حتى لو تطلب الأمر مخالفة مراد القائل خالق النص^١.

١. راجع مقالنا حول الموضوع في كتاب الحوار مع الذات والآخر ص ٢٢٤.

المراد من التفسير العلمي

وصفنا التفسير الذي ندعو إليه بالتفسير العلمي. ولإيضاح المقصود نقول: العلم كما يعرفونه هو: «حضور صورة الشيء في الذهن أو في العقل»^١، وهو «إدراك الشيء بحقيقته»^٢. فالإدراك بناءً على التعريف يقع على المدرك ذاته، وهذا هو جوهر التعريف، أي لا غير المدرك ولا أنقص في المدرك ولا أزيد منه، فإذا قال العنوان (تفسير علمي) فالمقصود: أن التفسير يجب أن يكون للقرآن لا لغير القرآن؛ بدعوى أنه القرآن، ولا أزيد منه، ولا أنقص منه. وسنحاول إيضاح الفكرة عن هذه الأقسام وهي ثلاثة: أولها تفسير غير القرآن بدعوى أنه القرآن، وقد يبدو هذا غريباً، فكيف يفسر غير القرآن بدعوى أنه القرآن؟! بيد أننا بقليل من التأمل سنرى أن هذا يبدو واضحاً فيما يلي من أنواع التفاسير الآتية.

أنواع التفسير اللاعلمي^٣

١- التفسير الذي تدخله الأيديولوجية

أو قل الذي يتأثر بنزعة خاصة. وذلك أن المفسر يفترض مسبقاً رأياً خاصاً ثم يبدأ بتفسير الآية على ضوءه، وإذا استعصت عليه جرّها جرّاً وتعسّف في تطويعها لما افترضه من رأي سلفاً، فالآية تفسر تبعاً لما في ذهنه من المعنى لا أنه يتبع ما تقود إليه الآية في مضمونها. وحيث ذكرنا في تقسيم التفسير بأنه قسمان: تفسير بالمأثور وآخر بالجهد وإعمال الفكر والرأي، فإن الإيديولوجي يحصل في القسمين، أمّا في الرأي فواضح؛ لأنه يميل مع الهوى والنزعات، وأمّا في المأثور فإنه يختار من المأثور وما يميل إليه، وإن كان غيره ألصق بالآية وأقوى ظهوراً وأكثر تمشياً مع خطوط الشريعة العامة. ويختلف الرأي الإيديولوجي الذي يفرضه مسبقاً، فقد يكون ذا نزعة مذهبية عقائدية، أو منهجية صوفيّة أو نظرية علمية باختلاف مجالات العلم، وكون الأيديولوجي يتصوّر في هذه

١. المنطق للشيخ محمد رضا المظفر: ١٣.

٢. مفردات غريب القرآن: ٣٤٣، مادة (علم).

٣. هذا البحث يحاول أن يعرض آراءً ذكرت في بعض الكتب، وبراها ضرورة لتقوية ثقافة الطالب القرآنية.

الفروع ليس معناه أن القرآن الكريم يخلو من جذبات روحية صوفية، أو قابلية لتحمل عديد من وجوه المعاني، أو إشارة إلى قانون علمي أو سنة كونية، ولكنه على ذلك لا يتخصص لواحد منها، فليس هو بالمؤلف الذي يعنى بالجدل خاصة، وبالتخصص في الطرق الصوفية أو بالكون ضمن نطاق المختبر يضع الأسس للفيزياء والكيمياء - كما قد يتصور البعض من الذين ذهبوا إلى ذلك في كثير من حسن النية - كما سيمر علينا. وعلى كل فإن المفسر في هذين الحقلين وباختلاف الفروع التي يمارس التفسير فيها، إنما يفسر ما افترضه مسبقاً وسلفاً دون ما يؤدي إليه لسان الآية، وواضح أن هذا التفسير تفسير لغير القرآن بدعوى أنه تفسير للقرآن.

٢- الزائد على القرآن وليس منه

وأقسامه كالآتي:

(أ) إقحام بعض النظريات العلمية من مختلف مجالات العلم - كالفيزياء والفلك والأحياء وغيرها - في مضامين بعض الآيات استناداً لشبهة لفظية أو مضمونية لا تصل إلى مستوى الدليل، وسنمثل لذلك.

(ب) التوسع فيما له منشأ انتزاع وعدم الاقتصار على مؤداه، يتخذ منطلقاً للتوسع غير المشروع ومجالاً لترتيب حشد من النظريات بدون مبرر علمي.

(ج) تفسير بعض الآيات وترجمة مضامينها بما هو بعيد عن أهداف القرآن، استناداً إلى ما يتقدح في ذهن المفسر عن آية ما، وليس لذلك الانقذاح من صلة بالآية إلا دعاوي الإلهام والكشف الذي قد يعتبره البعض وجهاً من وجوه التفسير وطريقاً معترفاً به، وإنما أدرجناه في الزائد على القرآن لهذا الاعتبار المدعى، وإلا فهو في باب غير القرآن ألصق.

٣- الناقص عن القرآن الذي لا يستوعب مادته بالشرح ولا يجلي أهدافه

وأقسامه هي:

(أ) ما يغفل عن عنصر الأبدية في القرآن الذي يستلزم أن يكون فيه زاداً لكل جيل وعطاءً لكل فترة ومرونة تحفظ له جدته وخلوده ولصوقه بحاجات المجتمع تلو المجتمع والجيل بعد الجيل، حيث يأخذ منه كل جيل بقدر ما تنهض به وسائله وما تحمل من استعداد للتزود منه،

وهي خاصة موجودة في كثير من مضامين القرآن كما هو واضح من سماته؛ ذلك لأن القرآن يضع المفاهيم الثابتة للثابت من الحقائق الكونية، والمفاهيم المتطورة لغير الثابت مما يمكن أن يأخذ أطواراً وحالات مختلفة كما سنمر عليها.

والمفسر هنا، وفي هذا القسم بالذات - أعني القسم المتطور - يقصر مداليل الآيات على معاني يقطع بأنها هي المرادة لا غيرها، وهو بذلك يوصد باب الفكر ويحكم على المنبع الثر بالانقطاع وعلى دفع الشعاع بالنضوب، وبالتالي عدم استيعاب القرآن بالشرح؛ لأنه بصورة مباشرة أهمل وجوهاً أخرى محتملة وأبعدها عن مصدرها بدون مبرر غير ضيق الأفق.

ب) إغفال ما قد يتصوره بعض المفسرين بأنه ليس محلاً للابتلاء، أو أنه من الأمور الثانوية، أو أنه ترف في أمثال هذه المواضيع ونافلة، اللهم إلا الشروح اللفظية أو إشارة إلى المعنى بتركيز شديد جداً، وخذ لذلك مثلاً الرفق، أو الاقتصاد، أو نظرية الحكم، وغير ذلك من الأمور الهامة بالفعل.

ج) إهمال كثير من مضامين القرآن بدعوى أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه، فإذا قيل: ما هو مبرر وضعها في القرآن؟ تأتي أجوبة ليست بناهضة، وقد تكون تلك الأمور من الأعمدة الفقرية في الكتاب العزيز.

وستأتي الإشارة إلى ذلك إن شاء الله بقدر ما يتسع له هذا البحث المختصر^١.

وفي نهاية هذه المقدمة القصيرة لا بد من الإشارة إلى أمور ذات صلة بالبحث يستحسن

ذكرها، وهي:

أولاً: قد تبدو التفاسير في نظر البعض ناقصة من أمور، وقد يكون ذلك مما ليس في وسع المفسر؛ إما لأنه قد جدت وسائل ومعلومات لم تكن في عصره وكانت في عصر الناقد، وإما لأن المفسر غفل عن بعض ما لم يغفل عنه الناقد، أو لأنه أحسن الظن في من روى عنه خبراً أو رأياً ليس بالمستقيم. وما ذلك لقصور في التنقيب أو التقييم، بل لأن المروي عنه حاذق

١. راجع: في تقسيمات التفسير ومعانيه مايلي: التفسير والمفسرون للذهبي، ج ١، ص ١٩، ط مصر ١٩٦١، تفسير البحر المحيط

لأبي حيان الأندلسي، ج ١، ص ١٣ - ١٤، والبيان للسيد الخوئي، ص ٣٩٧.

وتمتّرس في الدسّ والحبك أو غير ذلك.

كلّ ذلك لا يعني أنّ العلماء قصّروا في هذا الميدان. كلاً، بل إنّ جهودهم أقلّ ما توصف به أنّها جبّارة، ولكن لقدرة البشر حدود والكمال لله تعالى.

ثانياً: أنّنا ننحو باللائمة على كثير من المفسّرين، لأنّه صبغ التفسير بمزاجه الذهني وما مال إليه طبعه من فلسفة أو لغة، أو بديع أو غير ذلك. وقد تكون هذه الظاهرة أحياناً تقرب من اللاإرادية ولها بجانب كونها فرض ثوب خاص على روض متنوّع، لها مزيته التي هي كونها مقطّعة من مقاطع أخرى تؤلف كلاً هو عبارة عن دائرة معارف لعلوم مختلفة.

ثالثاً: لاننسى أنّ التفسير منذ وجد إلى يومنا هذا قام على ممارسة فردية - وإن كانت على مستويات علمية عالية أحياناً - ولكنّها على كلّ حل أشدّ نقصاً وأقلّ كمالاً ممّا لو كانت ممارسة جماعية في حدود التخصص بكل فرع من فروع علوم القرآن، فانها آنذاك تكون إلى الكمال أقرب بالنظر إلى أنّه يكاد يكون من المستحيل على الفرد أن يستوعب كلّ فروع المعرفة على نحو كامل. والقرآن الكريم تنوّعت معارفه وتعدّدت حقوله في أبعاد المعرفة، فكيف يتسنّى لفرد أن يقوم ولو ببعض ما يطلب في هذا الميدان؟ ذلك أمر ليس بالمستطاع، لذلك كانت المحاولات كلها نسبية.

رابعاً: يجب أن نشير إلى أنّ أجلّ عمل يخدم القرآن الكريم، هو توفر التفسير الموضوعي الذي نتصوره بأنّه يتكوّن من حقلين:

(أ) الجانب السلبي، ويتلخّص بإقصاء وإبعاد العوامل التي تؤثر على الموضوعية من شبه، أو عصبية أو هوى أو ما شاكلها من أمور ذاتية تفسد الموضوعية، ذلك قدر المستطاع طبعاً، فإنّ الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^١ وأمر كهذا ليس من السهولة بحيث يسهل التغلّب عليه.

(ب) الجانب الإيجابي، ويتلخّص بتقسيم المادة القرآنية إلى مضامينها العلمية، وتوزيعها على الاختصاصيين، كلّ في مجاله؛ للتوفر على تفسيرها وشرحها، شريطة أن يكون المفسّر على مواصفات معيّنة سنعرض لها في الفصل التالي.

وذلك كما يصنع بدوائر المعارف العلمية في عصرنا هذا، حيث تُجزّأ إلى علومها ويبحث كلّ علم من قبل ذوي الاختصاص به، وبهذا تتمّ الموضوعية المطلوبة، وبذلك نخدم القرآن ونسمو

به عن الخبط والهلوسة أو التطفل العلمي، مما يؤدي مكان القداسة في شعور المسلم، وهو يرى صنوفاً من اللاعلمية واللاموضوعية تأخذ طريقها إلى أقدس أثر بدوافع دعائية رخيصة.

خامساً: ومن أسلم السبل هنا أن نلجأ إلى أهل البيت عليهم السلام ونعرف تفسيرهم لأنهم الثقل الأصغر وعدل القرآن كما يؤكد حديث (الثقلين) المتواتر.

وإذا ما تمّ ذلك فستقع العين على أروع الكنوز وأصفى المنابع التي ظلت مطمورة ومظلومة تصدى لها أعداؤها وبعض أبنائها بالقول بأنها وصفة محدودة جاء بها محمد صلى الله عليه وآله لمجتمع بدوي ذهبت بذهابه، فهي إفراز لوضع وقت معين انتهى حيث انتهى سببه.

وحيث إننا نؤمن أولاً وقبل كل شيء، بأن القرآن الكريم جاء وسيظل نوراً يهدي الإنسانية في مسيرتها حتى لحظاتها الأخيرة، إلى ما فيه خيرها في الدنيا ونعيمها في عالمها الثاني، فإن كل غال يهون بذله في أي خدمة تتصل بهذا المضمار الذي يوصلنا للأخذ من القرآن، ويؤهل الدنيا لترى المجتمع القرآني الذي من القرآن يأخذ وبنوره يهتدي ومن نميره ينهل، كما وصفه تعالى بقوله:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾﴾^١.

العناصر والاتجاهات الشاذة في التفسير والأخطاء المنهجية فيه

أجملتُ في مقدّمة البحث أقساماً ثلاثة، ذكرتُ أنّها تتوزّع على أبعاد التفاسير الموجودة فعلاً، فقد ينال بعض التفاسير قسمٌ منها أو أكثر أو أقل، ولكن القدر المتيقن هو أنّه لا يخلو تفسير من بعضها. وقد آن الأوان لبيان ما أجهلناه في المقدّمة، بشرح يستوعب الأقسام المذكورة وفق تسلسلها الوارد في المقدّمة مراعين الاختصار في تقديم بعض النماذج للتدليل.

القسم الأول: تفسير غير القرآن على أنّه القرآن.

وهو التفسير الذي تفترض فيه إيديولوجية خاصة سبقاً وسلفاً، وتُكيّف الآية بمضامينها وفق تلك الصفة المطلوبة.

نماذج من تفسير غير القرآن على أنه قرآن

أ) افترض بعض الرواة والمفسرين سلفاً كفر أبي طالب عليه السلام إما لجهل أو لعناد أو لحسن ظن بمن روى ذلك، وفي ضوء هذا الافتراض صار يفسر بعض الآيات ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^١. فذكر عن عطاء ومقاتل أنها نزلت في أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن إيذاء النبي ثم يتباعد عنه.

وهذا تفسير أملتة صفة معينة ولم تفسر فيه الآية، بل فسّر ما في نفس المفسر. وسبب بطلان هذا التفسير وجوه:

أولاً: أن الآية مرتبطة بما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا أَنْ يَقُولُوا هِيَ مَا كَرِهَتْ أَعْيُنُنَا وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ نَسْئَلُ اللَّهَ تَعَالَى لِنُقَاتِلَ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّ نُنَاجِىَهُمْ﴾. وهذا يدل على أن الآية تتحدث عن جماعة ولم تتحدث عن واحد، وقد يُعبر عن الفرد بصيغة الجمع في مقام التعظيم، وليس المقام هنا مقام التعظيم، وهذا قرينة على تأييد القول السابق.

ثانياً: أن الآية تتحدث عن جماعة ولم تتحدث عن واحد، وقد يُعبر عن الفرد بصيغة الجمع في مقام التعظيم، وليس المقام هنا مقام التعظيم، وهذا قرينة على تأييد القول السابق.

وقد نصّ المفسرون على أنها نزلت في بعض مشركي قريش وهو أبو سفيان والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم.

ولا يخفى أن الوليد هو أبو القائد الإسلامي خالد، وأن أبا سفيان هو أبو معاوية خال المؤمنين، فلا بأس بنقلها إلى أبي علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثالثاً: أن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كَلِمًا أَنْ يَقُولُوا هِيَ مَا كَرِهَتْ أَعْيُنُنَا وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ نَسْئَلُ اللَّهَ تَعَالَى لِنُقَاتِلَ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّ نُنَاجِىَهُمْ﴾ راجع إلى جميع ما ذكر في صدر الآية، يعني أن كونهم ينهون عنه وينأون عنه سيؤذيهم إلى الهلاك، وقد افترضنا أن أبا طالب - كما يقول عطاء ومقاتل - كان يمنع قريشاً عن إيذاء النبي. وهذا العمل لا يستحق به هلاك النفس بل يستحق به الثواب، فكيف يحمل على الهلاك؟!^٣

١. سورة الأنعام: ٢٦.

٢. سورة الأنعام: ٢٥-٢٦.

٣. انظر تفسير الرازي ٤: ٢٧، طبع مصر ١٣٢٤؛ مجمع البيان ٢: ٢٨٧، طهران وصفوة البيان لمعاني القرآن ١: ٢١٩.

وقد ناقش بعض المفسرين هذه الدعوى وردّ القول بنزولها في أبي طالب، والبعض الآخر فسرها على أنها نازلة في المشركين^١.

ب) افترض جماعة من الناس لسبب من الأسباب، أن بعض أئمة المذاهب الإسلامية تأخر في بطن أمه مدة أكثر من مدة الحمل الاعتيادية، وقد اختلفوا في تقديرها بالنسبة للمورد خاصة ولبقاء الجنين في بطن أمه بصورة عامة، حتى جوّز بعضهم بقاء الجنين في بطن أمه ثمان سنين أو أكثر، وهي مأساة تترتب عليها مجموعة من المآسي والآثار؛ لأن معنى ذلك أنه لو توفّي زوج امرأة وجاءت من بعد ذلك بثمان سنين بطفل فستأخذ ميراثه، كذلك لو ادّعت الحمل أو شك في أنها حامل من بعد وفاته كأن ينقطع عنها الدم لسبب من الأسباب فلا بدّ من أن تعتدّ هذه المدة مادام الاحتمال موجوداً بحملها؛ لأنّ إجماع المذاهب الأربعة على أنّ عدّة الحامل المتوفّي عنها بالوضع^٢.

وعلى كلّ حال، بعد أن افترض جماعة هذا الافتراض اضطرروا لتفسير قوله تعالى ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لَكُمْ وَتُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾^٣، بما ينسجم مع هذا المعنى. وقالوا: إنّه قد يبقيه أقلّ مدة الحمل، وقد يقرّه أي يبقيه في الرحم مدة تصل إلى أربع سنين أو أكثر^٤. وهو قول لا يؤيّد العلم ولا العادة، ولم يقع بهذه المدة ولو مرة واحدة على سبيل الشذوذ.

ج) افترض بعضهم سلفاً أنّ بعض كلمات القرآن لا تؤدّي المعنى الذي وضعت له، أو تؤدّي المعنى الموضوع له ظاهراً ولها معنى آخر، وذلك أنّها تقطّع إلى مقاطع يستقلّ كلّ مقطع بما يؤدّيه من معنى، سواء كان المعنى خبراً أو معنى عرفانياً.

وفي ضوء ذلك شرع يفسّر بعض الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^٥، فقطّعها كما يأتي، قال: «من» اسم موصول بمعنى الذي وحذف الالف من «ذا» وجمع الذال مع لام «الذي» بعد حذف الألف

١. راجع الميزان في تفسير القرآن ٧: ٥٧ - ٥٨، راجع في ظلال القرآن ٢: ١٠٦٧.

٢. انظر: رحمة الأمة في اختلاف الأئمة المطبوع بهامش الميزان الكبرى، ج ٢، ص ٨٤ فما بعدها، الكافي (ابن عبد البر): ٢٣٩، الانصاف (المرداوي) ٩: ٧٤.

٣. سورة الحج: ٥.

٤. انظر الكشاف، ج ٢، ص ٥٠.

٥. سورة البقرة: ٢٥٥.

من «الذي» أيضاً، فصارت «من ذلّ» و «ذي»، ثم قطع «يشفع» إلى «يشف» وقال: معنى ذلك من ذلّ ذي يعني إشارة للنفس فمن ذلّها يشف من كلّ داءٍ نفسي «ع» أي فعل أمر من الوعي، فكأنّه قال: يا أيها القاري انتبه: أنّ من ذل نفسه شفي من الأمراض النفسية^١.

ولست أدري لماذا ترك باقي المقاطع؟! وأغلب الظنّ أنّه قطعها ولكن لم يجد لها معنى بعد التقطيع فسكت. وإلا فلا موجب للاقتصار على جزءٍ من الآية وترك باقي الأجزاء؛ لأنّه ترجيح بلا مرجح. اللهم، إلا أن يكون المرجح هو أنّه وجد لهذا الجزء فقط معنى بعد التقطيع ولم يجد لغيره معنى.

ومن ذلك تفسير قوله تعالى ﴿كهيعص﴾ مطلع مريم فقد فسرها بعضهم برواية مرسلّة لا يعرف قائلها وأسندها إلى الإمام الثاني عشر، وهي أنّ الكاف كربلا والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، والعين عطش الحسين، والصاد صبره، وذكر أنّ زكريّا سأل الله أن يعلمه أسماء أهل البيت عليهم السلام الخمسة الطيبين، فعلمه إياهم، فكان إذا ذكر الحسين يستعبر فأنبأه عن قصّته بما مرّ من ذكره من تفسير ﴿كهيعص﴾^٢. مع أنّ رأي أهل البيت عليهم السلام في الحروف المقطّعة في أوائل السور معروف، وهي أنّ قريشاً لما كذبوا القرآن وقالوا إنّّه من محمد صلى الله عليه وآله، أراد الله تعالى أن يبيّن لهم بأنّ القرآن مؤلّف من نفس حروف الهجاء التي تتكوّن منها لغتكم، ومحمد صلى الله عليه وآله بشر وأنتم بشر، فهاتوا مثل هذا القرآن إذا كان من بشر مثلكم ومن نفس حروف لغتكم. وهذا الرأي مروى عن الإمام العسكري في تفسيره.

ويذهب فريق آخر من المفسّرين إلى أنّ هذه الحروف هي أرقام في صورة الحروف، أو بتعبير آخر هي مدّة بقاء هذه الأُمَّة في الحروف الأبجدية، ولذلك يقول مقاتل ابن سليمان: حسبنا هذه الحروف التي في أوائل السور بإسقاط المكرّر فبلغت سبعائة وأربعين سنة، وهي بقية مدة هذه الأُمَّة^٣.

والأُمَّة باقية بحمد الله تعالى بعد ذلك التحديد الذي حدّده مقاتل.

وهذه الأقوال لو صحّت روايتها عن معصوم لأمكن التعبّد بها إذا لم نجد لها وجهاً،

١. انظر مجمع البيان ١: ٣، المقدمة.

٢. انظر تفسير مقتنيات الدرر للحائري ٧: ٢، طبع طهران ١٣٣٨.

٣. انظر مجمع البيان ١: ٣٣.

ولكنّها والحالة هذه ترسل إرسالاً أو يرويها مجاهيل، فلا يمكن الركون إليها؛ لأنّه تفسير للألفاظ بما لا تدل عليه حقيقة أو مجازاً، وهو يفضي إلى فتح باب لا يغلق من التحكّم. ولماذا لا يكون الكاف كلام، الهاء هراء، الياء يروي، العين عي، الصاد صفصطائي... وهكذا؟! أفيرضي إنسان مسلم أن تفتح أمثال هذه الأبواب على دستور الذي يرتبط به ديناً ودينياً وينهل منه المعارف، ويعتقد فيه أنّه أقدس رسالة هبطت من السماء؟ أجل، يجب أن يصاب كتاب الله تعالى عن مثل هذا العبث. وأعتقد أنّه قد اتّضح فيما قدّمت من نماذج ما أسميته بالتفسير غير القرآني على أنّه القرآن، أو قل بتفسير ما في نفس المفسّر بزعم أنّه تفسير للقرآن. والمتتبع للتفسير يجد أنّ هذا اللون من التفسير شائع في كثير من سور القرآن الكريم وفي مجالات مختلفة.

القسم الثاني: الزائد على القرآن الذي يحمل على القرآن.

ونظرت له بثلاثة أقسام:

الأول: إقحام بعض المدلولات العلميّة في الفيزياء والكيمياء والطبيعيات والأحياء أو غيرها من الفروع العلميّة، وذلك بادّعاء أنّها داخلية في مضامين بعض الآيات. ومن ذلك:

١ - ما ذهب إليه حفني أحمد في تفسيره للآية السادسة والأربعين من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً^١، فذهب إلى أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ القرآن من الله تعالى وليس من محمّد ﷺ كما تقول قريش وغيرهم، وذلك بتقريب أنّنا تتبعنا استعمالات القرآن الكريم للضوء والنور فرأيناه يستعمل لفظ الضوء لما يصدر عنه الضوء من ذاته كالشمس، ويستعمل لفظ النور لما ينعكس عليه الضياء كالقمر، فالقمر له نور لا ضوء، والشمس لها ضوء لا نور، وبناء على ذلك فالقرآن عندما يقول للنبي ﷺ بآنا جعلناك سراجاً منيراً يعني أنّ رسالتك ليست من عندك، بل هي من الله تعالى؛ لأنّ صفة منير تعني أنّك تكتسب النور من غيرك، هذا ما ذكره وقد ذكرته بالمعنى^٢.

١. سورة الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.

٢. انظر التفسير العلمي للآيات الكونية بالقرآن لحفني أحمد: ١٤٨.

مع أنّ المفسّرين في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة يذهبون إلى أنّه تعالى أراد تشبيه نور النبي ﷺ ونور رسالته المعنوي بالنور الحسي في السراج، وجهة الشبه أنّ نور الرسالة يكشف ظلمات الجهل كما يكشف نور السراج الظلام الحسي، وبعد ذلك فالآية غير ناظرة إلى كون الرسالة من النبي ﷺ أو من الله تعالى، مع أنّه قد يكون ما ذكره حفني من استعمالات القرآن للضوء وللنور صحيحاً في الجملة، ولكن النتيجة التي انتهى إليها حفني غير واردة، إما لأنّ الآية قد تكون ليست في صدد بيان هذا المعنى كما ذكر المفسّرون، أو لأنّ ما ذكره لا يطرّد دائماً، وذلك أنّنا القرآن الكريم يقول واصفاً رسالة موسى وهارون في الآية الثامنة والأربعين من سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فجعل رسالتها شبيهة بالضوء الذي يصدر من ذات الجسم كما يقول حفني مع أنّ رسالتها أو كتابها ليس منها بل من الله تعالى. فينبغي على قوله أن يرد الإشكال لمكان جهة الشبه بين المشبه به والمشبه، وهي صدور الضوء من الذات. وبالعكس فقد رأينا القرآن يستعمل النور فيما يصدر عن الذات، كما في قوله تعالى في الآية السابعة عشرة من سورة المائدة واصفاً وحيه إلى أنبيائه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾^١، والمراد به القرآن، والآية صريحة في أنّه صادر من الله تعالى، مع أنّ حفني افترض أنّ القرآن يستعمل لفظ النور فيما ينعكس لا فيما يصدر عن الذات.

٢- ومن ذلك ما فسّر به بعضهم قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾^٢ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّائِثَاتِ نَيْثًا فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾^٢.

فقال: هذا وصف علمي دقيق للطائرات الحربية الحديثة بمختلف حركاتها وبجميع أفعالها، فهي تعصف بقنابلها كالحميم، وتترك الناس كالعصف المأكول، وفي أثناء قيامها بذلك تنشر المنشورات وتلقيها على الجنود وعلى غيرهم في ميادين الحرب وعلى الأهالي والسكّان والمدنيّين للإخبار بما تريده الدولة المحاربة، وتمزّق بصولتها الجبّارة بين الكتابات

١. سورة المائدة: ١٥.

٢. سورة المرسلات: ١-٧.

والفصائل والتجمّعات مزقا، حيث إنّه لا يستقرّ تحتها ولا يثبت أيّ جمع، بل لمجرّد رؤيتها يتفرّق الناس ويختفون في الكهوف والملاجئ والمخابئ، «فالمليقات ذكرا» يعني ما تذكره وما تقصد منشوراتها وما تريد ذكره، «عذراً أو نذراً» تعتذر عن إلقاء الدماء والتخريب على الأماكن البريئة كالمساجد والمستشفيات والأطفال...^١.

٣ - ومن ذلك ما ذهب إليه الشيخ طنطاوي جوهرى عند تفسير قوله تعالى في آخر آية من سورة ص: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَ بَعْدِ حِينٍ﴾^٢.

فقد قال: وهذه الآية شرحها طويل، فمن نبأ القرآن هذه الأمة الإسلامية المترامية الأكناف التي تبلغ الآن - في أيامه طبعاً - نحو ٣٥٠ مليوناً من المسلمين أفليس هذا من أعظم أنبيائها، ومن نبأ القرآن العلوم التي اكتشفها الناس حديثاً، وكيف جاء علم الأرواح الحديث مطابقاً لهذا القرآن، وأنّ هذه الأرواح بعد الموت أحياء وأن من الأرواح من هم مغرمون بالمادّة والحياة والصيت والذكر في هذه الدنيا، وهؤلاء يتباعدون عن المادّة ويقترّبون من ربهم. إلى أنّ قال: أفلا ترى أنّ هذه الأمور المذكورة في هذه السورة قد أصبحت تقال في المجامع النفسية علناً؟ وهذا هو نفس القرآن، وبعبارة أخرى هو ما في هذه السورة، من كان يظن أنّ نبأ بقاء الأرواح بعد الموت وحالتها يظهر في الدنيا قبل يوم القيامة؟!^٣.

الثاني: ومن الزائد على القرآن ما أسميته بالتوسع فيما له منشأ انتزاع مع عدم وجود مبرر لذلك التوسع؛ لأنه يصطدم بروح الشريعة وخطوطها العامة، وبما هو من ضرورياتها أحياناً. وإنّما يتمسك به البعض لوجود موهم من اللفظ أو المعنى، ولأنّه يوافق غرضاً للمفسّر فيتمسك بذلك. ونحن نعرف بالضرورة من استقراء أحكام الإسلام ذات العلاقة بالجوانب المختلفة أنه يمنع الاستغلال منعاً باتاً ويشنّ عليه حرباً لا هوادة فيها، وأقصد هنا بالاستغلال معناه التعيني، أي الاستثمار بدون مبرر شرعي.

ومع وضوح هذا المعنى في الأحكام الإسلامية نجد بعضهم يميل إلى شبه تؤدي إلى أنّ

١. انظر الجانب العلمي في القرآن للدكتور صلاح الدين الخطاب: ١٧.

٢. سورة ص: ٨٨.

٣. انظر تفسير الجواهر للطنطاوي ١٨: ٨٥.

الإسلام يميز الاستغلال، كالموارد الآتية:

١ - ما ذهب إليه بعض مفكري المسلمين في موضوع حرمة الربا، فأرادوا حلا وسطا بين تعطيل المعاملات وإيقاف الحركة التجارية، وبين صراحة حرمة الربا. فالتمسوا دليلاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١. فقالوا: إنَّ القرآن لم يحرم من الربا إلا ما كان أضعافاً مضاعفة، أي إلا ما يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه. مع أنَّ استنتاجهم من الآية لا يمكن أن يستقيم وما قال أحد به؛ ذلك أنَّ أضعافاً وصف للربا لا لرأس المال، وإذا كان كذلك فينبغي أن لا يحرم من الربا إلا ما يبلغ ستمائة بالمائة ٦٠٠٪. وذلك لأنَّ كلمة أضعاف جمع، والضعف يكون بقدر الأصل مرتين، ومرتين في ثلاثة يساوي ستة، ولا قائل بذلك قط^٢.

وبتعبير علمي نقول: إنَّ هؤلاء استدلُّوا بمفهوم الوصف، إذ اعتبروا أنَّ الوصف - وهو «أضعافاً» - قيد للحكم وهو المنع، بينما هو قيد للموضوع وهو الربا، وبناء على ذلك فلا مفهوم للوصف. وحتى لو سلمنا بوجود مفهوم للوصف فهو إنَّما يكون إذا لم توجد قرينة على خلافه، والقرينة هنا موجودة، وهي أنَّه أُورد مورد الغالب، أي أنَّ الربا ليس دائماً يكون أضعافاً مضاعفة، ولذلك ذهب الطبرسي في مجمع البيان، حيث اعتبر الوجه هو تضاعف الزيادة بالتأجيل أجلاً بعد أجل^٣.

٢ - ما ذهب إليه بعضهم في تفسير الآية الرابعة من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فَادَّعُوا عَلَيْهَا سُدَّةً وَأَنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾، حيث ذهب إلى جواز أن يتزوج الإنسان تسع نساء؛ لأنَّ القرآن على قوله قد أجاز ذلك بعطف هذه الأعداد بعضها على بعض بالواو، بالمشئى والثلاث والرباع، ومجموعها تسعة^٤.

مع أنَّ القرآن الكريم لو أراد ذلك لعبر بالرقم الموضوع لهذا العدد وهو التسعة، ولكنه

١ . سورة آل عمران: ١٣٠.

٢ . انظر الربا في القانون الإسلامي للدكتور محمّد عبدالله دراز، مجلة الإسلام السنة ١٣، ص ٦٨ - ٧٣.

٣ . انظر مجمع البيان ١: ٥٠٢.

٤ . انظر مجمع البيان ٢: ٦.

تعالى أراد: انكحوا الطيبات معدودات هذا العدد اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وذلك أنه خاطب الجميع كما تقول للجمع اقتسموا هذه الأموال بينكم درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة للدلالة على جواز كل هذه الوجوه. وإنما لم يعطف بـ «أو» لأنه حينئذ لا يفيد جواز الاقتسام إلا على أحد هذه الوجوه.

الثالث: ومن أقسام الزائد على القرآن هو ما أسميته بترجمة ألفاظ القرآن بمضامين غريبة وليست مما يستهدفه ظاهر القرآن، ولا مما يفهمه العرب وليس فيه نص أو رواية، إنما هو مجرد انقداح معنى أو ومضة في ذهن المفسر تصوّر أنّها تتصل بالآية، فبنى تفسيره على هذا التصور.

ومن ذلك ما فسّر به بعضهم الآية الثامنة والسبعين من سورة بني إسرائيل وهي قوله تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

حيث فسّر ذلك بأنه يجب نصب الإمام عند زوال شمس النبوة^١. وقد اتضح فيما مرّ من النماذج التي قدمتها في القسم الثاني الذي أسميته الزائد على القرآن كيف أنّها ليست من طبيعة القرآن وغريبة عن مادته وأسلوبه. وقد تقول: إنّ هذا القسم لا يختلف عن سابقه في كونه ليس من القرآن، فلماذا هذا التقسيم إلى غير القرآن؟ كما أسميت القسم الأول، وإلى الزائد على القرآن؟ كما أسميت القسم الثاني.

وللإجابة على ذلك أقول: إنّي لم أرد أن أجعل من كلّ من العنوانين حدّاً جامعاً مانعاً، وإنّما أردت من كلّ عنوان منهما النظر إلى ناحية في المعنويين، فالأول كان المفسّر فيه يفترض مسبقاً معنى من المعاني ويجرّ الآية، وإن كان في الآية محطّ قدم له، ولكن الملحوظ أنّه يفسر ما في ذهنه ويحمل الآية على ذلك، أمّا القسم الثاني فبالعكس، حيث يتبع منشأ الانتزاع في الآية ولكنّه يتوسّع فيه بما لا مبرر معه.

القسم الثالث: التفسير الناقص عن استيعاب محتويات القرآن الكريم وعن استيعاب خواصّه.

وقد قسّمته إلى ثلاث شعب:

الشعبة الأولى: ما يغفل عن عنصر الأبدية في القرآن الكريم، ومعنى ذلك أنّنا نرى بعض المفسّرين إذا فسّر آية وذكر لها وجهاً أو وجوهاً يترك الباب مفتوحاً ولا يوصده، فيقول: الله أعلم

١. مجلة المرشد للشهرستاني، السنة الثالثة، ص ١١٦.

بمراده، ولا يبت فيها ذهب إليه، وهذا في بعض الآيات مما لا يصل إلى حدّ المحكم أو النص أو ما يقرب منها في الظهور. وهذا هو الذي أردته عندما صدرت لهذا القسم بالمقدمة فقلت: إن مرونة القرآن الكريم واحتمال آياته لكثير من المعاني أو صلاحيته للتطور - على حد تعبير بعضهم - المراد منه أن ذلك على نحو الإيجاب الجزئي، ولبعض الآيات التي يكون فيها الموضوع متطوراً كما سنمثل له قريباً. أما الآيات الصريحة والقاطعة الدلالة فلا سبيل إلى وصفها بغير ذلك.

والحقيقة أن هذا المعنى من الأمور المهمة في القرآن الكريم والتي تستأهل أن يكتب فيها الكثير ولكن لا بأس من الإشارة إليها بما يتسع له البحث فنقول: إن القرآن أولاً وقبل كل شيء هو كتاب تربية وتقويم؛ لأن الله تعالى رب العالمين المربي لهم والمقوم، ووسيلته الأولى في التربية التعاليم المنزلة، وأهمها القرآن الكريم.

فهو يربي ويسعد وينظم العلاقات لتؤهل الفرد والمجتمع للسعادة في الدارين، وهو هدف واضح في كل الأحكام التي هي روح القرآن. ومن هنا يحمل المفسرون كل إطلاق يوهم خلاف هذا على هذا المقيد. يتساءل الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^١ كيف يكون كذلك مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب والحساب والهندسة...؟ ثم يجب على هذا التساؤل قائلاً: إن من آيات القرآن دالة بإحدى الدلالات الثلاث على أن القرآن المراد منه معرفة أمور الدين ومعرفة الله تعالى وأحكامه، فإذا كان هذا التقييد معلوماً لكل المسلمين فيجب أن يحمل ذلك الإطلاق على هذا التقييد^٢.

وحيث كان القرآن الكريم كتاب تربية بالدرجة، الأولى فالتربية بكل أقسامها - الروحية والبدنية والاجتماعية وغيرها - تعتمد على نوعين من الحقائق: ثابت ومتطور. فمثلاً أن وحدانية الله تعالى من الحقائق الثابتة في الكتاب الصريحة، يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^٣، وصراحتها هنا في الضمان لعدم انشطار الشخصية من تعدد الآلهة وما يترتب عليه من تهافت، ومن الوسائل التي تحقق تربية نفسية وجسدية صوم شهر في السنة، وقد جاء به

١. سورة الأنعام: ٣٨.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٢١٥.

٣. الآية الأولى من سورة الإخلاص.

القرآن هكذا لأنه موضوع بإزاء حقيقة ثابتة، وهي الإنسانية بخصائصها الجسدية والروحية، فالجسد هو الجسد مهما تطوّرت الدنيا ونوازعه نوازعه مهما لبست من أثواب، لذلك كان العلاج ثابتاً وهو ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^١، في حين هناك وسائل للتربية في حقول أخرى تقتضي التطوّر، فوضع الحكم المتطوّر بإزائها. ومن ذلك قوله تعالى في الآية: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^٢. فإن الحكم بالعدل من أفعال الوسائل في التربية، ولكن لما كان مفهوم العدل متطوّراً؛ لأنه وضع الشيء في موضعه، وضعه الله عزّ وجلّ علاجاً لكثير من المشاكل التي تحتاج إلى مرونة وقابلية للتكيف مع جوّ المشكلة، وليس لذلك إلاّ العدل، هذا المفهوم المتطوّر.

وأعود من بعد هذا الاستطراد إلى صلب البحث حيث قلت: إنّ بعض المفسّرين يترك الباب مفتوحاً لمعنى آخر محتمل في الآية، والبعض الآخر يوصد الباب ويذكر للآية وجهاً لا يتعداه إلى غيره، وذلك فيما اعتقد لأمرين:

الأول: غفلته من كون القرآن زاد الإنسانية، فلكلّ جيل منه حظّ ولكلّ زمن نصيب.

والثاني: قصور العلم في قوته عن إلقاء الضوء على المفهوم القرآني، ومثال ذلك:

ما ذكره بعض المفسّرين عند قوله تعالى في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾^٣ حيث قصر المماثلة على ما يأتي فقال: ﴿أمم أمثالكم﴾ طوائف مختلفة أمثالكم في الخلق والموت والحاجة إلينا في الرزق والتدبير في جميع أمورها والدلالة على كمال القدرة وبديع الصنعة في تسخيرها وتصريفها بقدرتنا، هذا كل ما ذكره في المماثلة.

ويقول آخر عن هذه المماثلة ما يلي: أمم أمثالكم مكتوبة أرزاقها وأجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم وأجالكم وأعمالكم^٥.

١ . سورة البقرة: ١٨٥.

٢ . سورة النساء: ٥٧.

٣ . سورة الأنعام: ٣٨.

٤ . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمّد مخلوف ١: ٢٢٢.

٥ . انظر الكشف للزمخشري ٢: ٢١.

وإذا كان الزمخشري يقتصر من المماثلة على كتابة الأرزاق والآجال والأعمال فقد يعذر لخلوّ عصره عن كثير من المعارف التي جدّت في دنيا الحيوان بكل صنوفه، ولكن مثل الشيخ حسين لا يعذر؛ لأنّه في عصر كثرت فيه هذه العلوم وفي بلد سبق البلدان العربية الإسلامية الأخرى إلى العلوم الحديثة، ونراه مع ذلك يقتصر المماثلة على أمور لا يختص بها الحيوان، بل تعمّ النبات كذلك، وقد تعم ما نسميه بالجهد بنحو من الأنحاء؛ لأنّه بذلك يغفل عن الجانب المشرق من جوانب الآية الكريمة وكلّ جوانب الآيات مشرقة، وذلك الجانب هو المماثلة من حيث كثير من أنماط السلوك المشتركة، ومن حيث حاجة كثير منها إلى الرعاية والحنان، ومن حيث تحمّلها للمسؤولية أحياناً، كما هو مفاد حشرها يوم القيامة و... إلى غير ذلك من وجوه المماثلة التي كشف عنها العلم والتي سينكشف منها الكثير أيضاً.

ومن ذلك أيضاً ما ذهب إليه بعض المفسّرين في تفسير الآية الثانية والثلاثين من سورة الحج وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^١.

حيث قال: أي ذكر القلوب؛ لأنّها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في غير الأعضاء^٢. وهذا الجزم بأنّ القلب مركز التقوى يثير السخرية في نفوس الساخرين ممّن عرف بالبراهين والتشريح أنّ القلب ليس إلّا مضخّة للدم وأنّ مركز كلّ الفعاليات الذهنيّة هو المخ. إنّ القرآن الكريم إنّما يعبر بالقلب عن العقل؛ لأنّه يخاطب العرب بلغتهم وهم يعبرون عن العقل بالقلب، فإنّ شاعرهم زهير يقول:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلّا صورة اللحم والدم

وقد يعذر الزمخشري لما أسلفنا من خلوّ عصره من المعلومات، ولكن لماذا يذهب المتأخرون إلى نفس المفارقة؟! وعلى كلّ حال رأيت هذا الجزم والحصص من الزمخشري بقوله: إنّما ذكر القلوب؛ لأنّها مراكز التقوى، ولم يترك مجالاً لأيّ احتمال آخر قد يكون ذكر القلب لأجله.

ونظائر ذلك كثير عند المفسّرين حتى المتأخرين منهم الذين يعيشون وثبات التكنولوجيا وقفزاتها الجبّارة، وهم مع ذلك قد يقصرون في تفاسيرهم القرآن على حضارة عصرهم غير

١. انظر الكشّاف، تفسير الآية.

٢. الحج: ٣٢.

ملفتين إلى أنه معدّ لكل الأجيال، فلا بدّ أن يأخذ كلُّ جيل منه جديداً أو يكون أخذه حسب استعداده، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾^١.

الشعبة الثانية: ما أسميته إغفال ما يتصوره بعض المفسرين بأنه ليس محلّ ابتلاءٍ بذلك، فإنّ بعض الباحثين في القرآن درجوا على أن يبحثوا منه ما هو محلّ حاجة في عصرهم، ومن الملاحظ الآن أنّ الفقهاء عندما يبحثون مواضيع الفقه لا يبحثون بعض المواضيع التي هي ليست محلّ حاجة فعلية بغض النظر عمّا إذا كانت محلّ حاجة مطلقاً.

والحقيقة أنّ بعض المواضيع التي لم تبحث تركت ثغرة بارزة وتساؤلاً على شفاه الكثيرين من المعنيين بشؤون الإسلام، فهم يعلمون - مثلاً - أنّ الإسلام - فضلاً عن الجانب النظري - قد حكم فعلاً وكانت له تجربة فريدة في الحكم، وقد دللت التجربة ذاتها على كونها في منتهى النضوج والتكامل، فلماذا لم تدوّن الخطوط العامة لنظريته في الحكم والأسس التي تمتد إليها النظرية؟ ولماذا أهمل المفسرون وهم على تماس مباشر للقرآن وليس بينهم وبين النظرية من واسطة إلا القرآن؟ بخلاف الفقهاء إذ أنّهم يتصلون بمصادر التشريع الأخرى في استدلالهم على نظرية الحكم ولم يجلوها تجلية كاملة سوى إشارات لم تتصل حلقاتها ولم تملأ الفرج بينها ولم تصل إلى مستوى النظرية الكاملة.

وبتعبير آخر: إن نوع نظام الحكم في الإسلام لم يجلّ تجلية كاملة فيصل إلى صيغة مقبولة من كل الأطراف.

ولهذا نجد أنّ هذه المسألة بالذات لم تلتمس أصولها بنحو كامل من القرآن، بل حاول البعض أن يجد مصادرها في السنّة وفي حكم العقل، مع أنّ مسألة كهذه ليست بهذه الدرجة من البساطة حتى يُهملها القرآن، وهي من أكبر أهدافه إن لم تكن أكبرها من بعد مباحث الوجود والتوحيد؛ لأنّ النبوة والإمامة صنوان وملاكهما واحد.

والنظرية بعد ذلك توجد مقوماتها كاملة - وإن أُجملت - في القرآن، ولكن لم تتوفر العناية الكاملة على بلورتها وشرحها.

ولعل ذلك من الأسباب التي أدت إلى هذا الاختلاف في نوع نظام الحكم عند مفكّري المسلمين. فالشيعة مثلاً يذهبون إلى أنّ الإمامة لا تكون إلّا بالنص والجعل من الله، ولهم أدلّتهم على ذلك، وبأنّ الإمام منصوب عليه ومعصوم ومسّوح بالمعجزة وأفضل أهل زمانه. وقد استدلووا لذلك بالنقل من القرآن الكريم^١، وبالعقل والأخبار^٢.

وقد نقل عنهم رأيهم في ذلك ابن خلدون في مقدّمته حيث قال: «إنّ الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة ويعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي ﷺ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأنّ عليّاً عليه السلام هو الذي عينه رسول الله ﷺ، فالإمام عندهم امتداد طبيعي للنبي، فشكل الحكم بالنسبة لنظريّتهم هو الإمام المعيّن من الله تعالى الذي يحكم في حدود ما رسم له الكتاب والسنة، فسّمه إن شئت ثيوقراطياً أو غير ذلك. هذا في حال وجود الإمام، وفي حالة الغيبة يذهبون إلى حكم الحاكم الفقيه العادل القائم على ضوء الكتاب والسنة، أما السنة فإنّ نظريّتهم في ذلك مرّت بأشكال وانتهت بعد ذلك إلى حكم الشورى بشكل ليس بواضح تماماً، فإنّ الشورى المذكورة تتأرجح بين نسب مختلفة في تعيين العدد الذي يمارس عملية الشورى ونوعيّتهم، ولكن يمكن القول إجمالاً بأنّ نظريّتهم هي نظرية الشورى»^٣.

وقد استندوا في ذلك إلى الآية الكريمة الثامنة والثلاثين من سورة الشورى ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَبَيِّنُهُمْ﴾، مع أنّ المفسّرين يذكرون أنّ هذه الآية جاءت في معرض الخبر عن صفة من صفات الأنصار مدحهم الله تعالى بها بحيث لا يستبدّ الفرد منهم برأيه في المشاكل، بل يستشير غيره، ولا يرون لها صلة بنوع الحكم^٤، ولا يرونها ناظرة لذلك من قريب أو بعيد^١.

١ . انظر تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، البقرة: ١٢٤، في مجمع البيان ١: ٢٠١ وانظر نفس المصدر ١:

٣٥٢، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ البقرة: ٢٤٧.

٢ . انظر علم اليقين ملا محسن الفيض الكاشاني، ج ١، ص ٣٧٥ - ٣٧٨؛ وأصول الكافي، باب الحجة.

٣ . انظر التفسير والمفسّرون لمحمّد حسن الذهبي ٢: ٤، والنظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح، ص ٢٤٩.

٤ . انظر الكشاف للزمخشري ٢: ٢٩٩؛ مجمع البيان ٥: ٣٣، وصفوة البيان لمعاني القرآن ٢: ٢٩١.

في حين يذهب جماعة آخرون من الكتّاب السنّة إلى أنّ الإسلام ليس له نظرية في أيّ شكل من أشكال الحكم، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى»، والشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وهناك نظريّات أخرى لست بصدد استقراءها، وإنّما كان الهدف من المرور بهذه الآراء الإشارة إلى أنّ عدم تجلية المفسّرين لهذه النظرية قد ساعد مع عوامل أخرى في عدم وضوح شكل الحكم في الإسلام، وهذه النقطة ممّا يجب أن يتوفر عليها الاختصاصيون للانتهاء فيها إلى رأي معيّن ضمن نطاق النصوص في ذلك.

ومن هذا القسم موضوع الاقتصاد الإسلامي الذي لم يجمع شتاته ولم تحص نظريّاته بشكل كامل حتى من المتأخرين الذين كتبوا في التفسير والفقه، اللّهم إلاّ محاولات لم تتكامل عند الكتّاب والمفكرين المسلمين في مختلف بقاع الدنيا، خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين حيث كتبت في ذلك بحوث في أجزاء من الاقتصاد الإسلامي كلّ على حده، والبعض منهم ضغطها بذكر مثال لكل فرع من فروع الاقتصاد مع لفت النظر للخطوط العامة، وأخصّ منهم الأستاذ محمود اللبايدي في السنة الثالثة من مجلة رسالة الإسلام. وتوجت هذه المحاولات بتأليف كتاب «اقتصادنا»^٢.

ومن هذا القسم أيضاً موضوع الرقّ في الإسلام، فإنّه بالرغم ممّا كتب فيه بشكل مجزأ لا يزال يحتاج إلى إشباع وبحث شامل لوجهة نظر الإسلام إلى الرقيق ومعالجة تحريرهم. وهذه النماذج الثلاثة التي ذكرتها قد يقول قائل: إنّها كتب فيها الكثير، وأنا لا أنكر ذلك وإنّما أقول: إنّ كثيراً ممّن عاجلها ليس من ذوي التخصص في ذلك. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنّها عولجت خارج نطاق التفسير والذي نحن بصدده أن يكون مكان هذه المعالجات في كتب التفسير ومن ذوي الاختصاص وبشكل مشبع تتضح معه جوانب النظرية. فأنت تعلم أنّ الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ

١. تقريب الاستدلال بآية الشورى هو بما أن النبي لم ينص على أحد وبما أن القرآن مدح المسلمين بأنهم يتشاورون في الأمور، والخلافة من الأمور الهامة فهي تعيّن عن طريق الشورى.

٢. للمفكر الإسلامي الشهير آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (قدس سره).

لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿١﴾.

ثم يقرأ تفسيرها بأن الإنسان يجوز له أن يوطأ بملك اليمين ما يشاء، تتضخم عنده المشكلة المزوجة من جواز أن يسترق الإنسان أخاه الإنسان، ومن إهدار الكرامة البشرية وتشجيع ضراوة الجنس بإباحة هذا العدد.

أما لو عالج التفسير المشكلة بأنها لون من ألوان تحرير العبيد وطريقة مهمة في ذلك، وهي استغلال الغريزة لتعتق الأم والولد، ومدى صلة ذلك بنظرية الإسلام في المعالجة الهادئة، لكان ذلك مهماً في إزالة الشبه المتولدة عند قارئ القرآن الذي لم يدر في أي كتاب خارجي يبحث عن حل المشكلة، ولعله لا يدري أنها بُحثت في مكان آخر.

الشعبة الثالثة: ما أسميته في المقدمة بما يُهمل بدعوى أنه مما استأثر الله بعلمه. وهذا

القسم يقع الكلام فيه من جهتين:

أولاً: وجوده في القرآن. وقد ذهب جماعة إلى وجوده في القرآن الكريم وقالوا: هو ما عبّر عنه بالمتشابه، ومثلوا له بالروح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^٢، ومثلوا له بالساعة وبالحروف المقطعة في أوائل السور. وقد ذهب لذلك الأحناف وبعض المفسرين من غيرهم، وخالفهم في ذلك جمهور المسلمين من الشيعة والشافعية وغيرهم كما سيمر علينا.

وقد استدلوا لذلك بقوله تعالى في الآية السابقة من آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٣ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣﴾.

ووجه استدلالهم بالآية الكريمة هو أنهم يقفون على لفظ الجلالة في المقطع الآتي من الآية

١. سورة النساء: ٣.

٢. سورة الأنبياء: ٩١.

٣. سورة آل عمران: ٦ - ٧.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ويعتبرون الواو استثنائية في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾، بينما يخالفهم الجمهور فيقفون على كلمة العلم ويعتبرون الواو عاطفة. وأكتفي بنموذج واحد من الذاهين لهذا الرأي وأشار إلى من يشاركهم فيه.

فمن مفسري الشيعة ذهب لذلك الطبرسي في مجمع البيان، فاعتبر الوقوف على كلمة العلم والواو عاطفة، وفسر المحكم بالذي لا يحتمل إلا وجهاً من التأويل، والمتشابه الذي يحتمل أكثر من وجه، وقال: ولذلك كان الصحابة لا يتوقفون في تفسير شيء من آي القرآن، وكان عبد الله بن عباس إذا قرأ هذه الآية يقول: «أنا من الراسخين في العلم»، وكان الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل، وما كان الله تعالى لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وهو وأوصياؤه من بعد يعلمونه كله»^١.

وقد فسر الشافعية المحكم والمتشابه بهذا المعنى أيضاً، كما حكاه عنهم الشيخ حسين محمد مخلوف في تفسيره، كما ذهبوا إلى أن المتشابه يتضح معناه بالنظر الدقيق، وهو يشمل المجمل ونحوه. وعلى هذا فالراسخون عندهم معطوفون على لفظ الجلالة، وقد مال لذلك هو أيضاً.^٢ كما ذكر نفس المضمون السابق المراعي في تفسيره^٣ ولم يمل إلى ترجيح قول على قول كما هو ظاهر بحثه.

أما الفخر الرازي فقد قال في تقسيمه للمحكم والمتشابه بما مؤداه: أن اللفظ الموضوع لمعنى إما أن يحتمل غير ذلك المعنى أولاً، فإذا لم يحتمل إلا معنى واحداً فهو النص، وإن احتمل معنيين، فإما أن يكون احتمالاً لأحدهما راجحاً على احتمال الآخر أو لا، والراجح هو الظاهر، والمرجوح هو المؤول، وأما إذا احتملها على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركاً، وبالنسبة لكل واحد منهما مجملاً، فاللفظ يكون إما نصاً أو ظاهراً أو مؤولاً أو مشتركاً أو مهملاً، والمحكم هو النص والظاهر، والمجمل والمؤول هو المتشابه. هذا حاصل كلامه.

١. انظر: مجمع البيان ١: ٤٠٩.

٢. انظر: صفوة البيان لمعاني القرآن ١: ٩٦.

٣. انظر: تفسير المراعي ٣: ٩٧.

وهو يميل إلى أن المجمل مما استأثر الله بعلمه لأنه يرجح الوقوف على لفظ الجلالة^١.
ثانياً: بعد أن ظهر أن هذا الرأي موجود بالنسبة إلى بعض آي القرآن الكريم، يرد التساؤل: لماذا وضع المتشابه في القرآن الكريم إذا كان مما يستأثر الله تعالى بعلمه، وبناء على هذا ألا يستوي وضعه وعدم وضعه؟ فما جدوى سطر حروف لا يفهمها الناس وإنما يتلوها مجرد تلاوة؟!

أما القائلون بأن المتشابه يعلمه العلماء - وهم الفرقة الثانية الذين يقفون على كلمة العلم - فالحكمة عندهم واضحة وملخصها أمور، منها: أن يشتغل أهل النظر والفقهاء برد المتشابه إلى المحكم، فتشخذ قرائحهم ويطول نظرهم ويتصل فكرهم بالبحث عن معاني فيثابون على اجتهادهم ويتميز العالم من غيره، ولو كان كله محكماً لا ستوى في معرفته العالم والجاهل ولماتت الخواطر وجمدت القرائح، إلى غير ذلك مما يذكر فالطائفة الثانية هذه حججها. وأما الطائفة الأولى فحججتهم الوحيدة هي أن الله تعالى أراد أن يتعبّد العباد بذلك^٢.
 وواضح أن هذا الرأي قائم على أن المتشابه هو مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو يعني ما لا سبيل للعلماء إلى معرفته.

والحقيقة أن حجة الطائفة الأولى الذاهبة إلى أن المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه غير ناهضة، والموارد التي مثلوا بها من أول الكلام، كلها غير معلومة، فقد مثلوا بالصفات، صفات الخالق تعالى وقد حددها العلماء واختلفوا فيها. ومن المجموع يعلم كنهها برد المتشابه منها إلى المحكم، وكذلك الحروف المقطّعة في أوائل السور، وكذلك معرفة الساعة وأنها القيامة وهو المطلوب من فهم الآية، أمّا وقت الساعة فهو ما استأثر الله تعالى بعلمه. ولكن وقت الساعة والروح لا يشكّل نوعاً كبيراً يستحق هذا الاهتمام الذي يصل إلى حدّ تصنيف القرآن الكريم إلى ما يفهم وما لا يفهم؛ لأنه تعالى أراد أن لا يفهم ليتعبّد بذلك الناس، وهو بمجموعه لا يتعدّى بضع كلمات حتى لو استقام القول بأن هناك في القرآن

١. انظر تفسير الرازي ٢: ٣٩٥، ط مصر الحسينية ١٣٢٧.

٢. انظر المصادر الأربعة التي سبقت هذا المقطع، وهي تفسير الرازي وصفوة البيان وتفسير المراغي والمصحف المفسّر.

الكريم قسماً قد تعبد الله تعالى الناس به بأن استأثر بعلم مضامينه وأنزله مجرد لفظ ليسطر بالكتاب؛ فإن هذه العملية فعل، وأفعال الله تعالى كلها موسومة بالعدل والحكمة، منزّهة عن العبث، فينبغي شرح هذا الإجمال الوارد بكلمة التعبد، وتبيين مزايا التعبد في بعض الحالات والأهداف والآثار التي تترتب على ذلك وبشيء من التفصيل حتى يفهم القارئ أنّ هناك نظائر لهذا في الأمور التكوينية والتدوينية تعبد الله تعالى بها عباده.

وهذه حلقة من تلك السلسلة، وبذلك تضيء إيجابية على هذا المفهوم تخرجه عن حدّ السلبية التي لا يطمئن إليها الخاطر ولا يكاد يؤمن الإنسان بأنّها مبرر لهذا الغموض المدعى في بعض آي القرآن الكريم الذي جاء معجزة يتحدّى به الله تعالى الناس في أن يأتوا بمثله، وواضح أنّ التحدي يكون بالشكل والمضمون، وهذا المعنى منسحب على كلّ كلمة وحرف في القرآن الكريم، ولا يمكن أن يتحدّى بما لا يفهم معناه، مع وجود أمكنة أخرى للتعبد هي به أليق.

في المفسّر

انتهيت فيما سبق في جولة مختصرة بالتفسير إلى ما يشترط في التفسير الموضوعي^١، وسأعرض هنا بإيجاز شروط المفسّر الموضوعي.

المفسّر في الواقع هو الروح التي تمثي في التفسير، بما لهذه الكلمة من خصائص وآثار، فهو المفسّر الواعي العالم الورع البعيد الآفاق، وهو المفسّر المتعصب الضيق الأفق غير الورع، وهو المفسّر المهتدي بأضواء القرآن، كما هو المفسّر الخابط في ظلام الحقد والعصبية، وهو الغواص الذي يجتني اللؤلؤ، كما هو السطحي الذي يلتم الصدف، وهكذا.

ومن هنا رأينا أنّ الشروط التي تشترط فيه تكشف عن مدى أهميته في حقل هذا الفرع من العلوم، ذلك أنّ حضارة المسلمين من عطاء القرآن وآثاره، ولا يؤتمن على مثل هذا التراث إلا القوي الأمين.

وسأعرض الآن لأهم ما يشترط في المفسّر، ومنه نرى ماله من مكانة في نظر المعنيين بشؤون التفسير.

١. يراد من الموضوعي هنا الذي يعتمد أساساً علمية وموضوعية في قبال الذي يعتمد التعصب والشذوذ والهوى وعدم العلمية عموماً، ولا يراد من هذا الاصطلاح ما يقابل التفسير الترتيبي أو التجزيئي.

١- أن يكون متقناً للعلوم التالية: اللغة، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان والبديع ومعرفة القراءات، ومعرفة علم الكلام بما يحتاج إليه من مقدمات، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، وتاريخ قصص القرآن والأحداث الواردة فيه. وهذه هي عين شروط المجتهد زائداً بعض العلوم الأخرى. وهذه العلوم تمكنه من فهم القرآن الكريم وما فيه من أحكام وإرشاد وقوانين كونية على الإجمال وبمستوى المعلومات العامة، أما إذا أراد التعمق في بعض العلوم والإمام الكامل بها فلا بد أن يكون كذلك - بالإضافة إلى ما مر - من أهل التخصص بذلك الفرع من فروع المعرفة.

٢- وذكروا له شرطاً آخر عبّر عنه بعضهم بعلم الموهبة، والعبارة تحتل معنيين: المعنى الأول أن تحصل عنده جرّاء معرفة العلوم السابقة ملكة الاجتهاد في التفسير، فإنّه ليس كل من ألمّ بتلك العلوم تحصل عنده تلك الملكة، كما هو المشاهد عند من درسوا العلوم الإسلامية المخصصة لطالب الاجتهاد في الشريعة، ممّا يدلّ على أنّها ليست إفراساً حتمياً لمن عرف تلك العلوم بل هي هبة أخرى.

أما المعنى الثاني المحتمل فهو أن يكون حاذقاً فطناً يلتفت إلى دقائق النكات في التعبير القرآني. وبتعبير آخر: يجب أن يكون - بالإضافة إلى ما حصل عليه بالجهد من معرفة تلك العلوم - ذكياً وموهوباً يقرأ ما وراء السطور ويضع يده على الخصائص الخفية في محتوى القرآن. وفي عقيدتي أنّ هذين الشرطين هما الحد الأدنى الذي لا يعتبر المفسّر بدونهما مفسّراً، فهما أشبه شيء بصفة الأجزاء بالنسبة للعبادة، وهناك شروط أخرى هي أشبه بصفة القبول بالنسبة للعبادة في نسبتها للتفسير، وهي:

٣- أن يكون ممن رزق قابليّة على المعاناة الشديدة وجسراً على تحمّل الصعاب؛ لأنّ عطاء القرآن الكريم يتضاعف كلّما تضاعفت المعاناة والصبر، وكلّما أعطيت أخذت أضعاف ذلك.

٤- أن يكون على ورع وتقوى تمنعه من التسرّع والحكم دون تثبّت، ونسبة أشياء لجهات هي بريئة ممّا نسب إليها، وما أكثر ذلك على ألسنة بعض المفسّرين.

٥- أن يكون سليماً معافى في جسده ونفسه، فقد ثبت أنّ المصابين في هذين الجانبين تترك

إصابتهم بصماتها على نتاجهم الفكري شاءوا أم أبوا، بل وحتى من أصيب بعاهة اجتماعية ظهرت آثار إصابته في كثير مما عمل وكتب وقال.

هذه هي أهم ما يشترط في المفسر. وقد تكون هناك شروط أخرى يشار إليها أحياناً، وكل ذلك يكشف عن أن المفسر يقدم للأجيال زاداً سوف تعيش عليه دنيا الإسلام في حضارتها، وكل نقص في صفة من صفات هذا الزاد هو سيئة على المفسر، وكل كمال فيه هو نور له ورحمة وذخيرة عند الله تعالى وعند الإنسان^١.

وهنا يحسن بنا أن نقل نصاً عن الشهيد الصدر في هذا الموضوع إذ يقول فيه^٢:
والتفسير بوصفه علماً تتوقف ممارسته على شروط كثيرة لا يمكن بدونها أن ينجح البحث في القرآن ويوفق المفسر في مهمته.

ويمكن أن نلخص تلك الشروط في الأمور الأربعة التالية:

أولاً: يجب على المفسر أن يدرس القرآن ويفسره بذهنية إسلامية، أي ضمن الإطار الإسلامي للتفكير فيقيم بحوثه دائماً على أساس أن القرآن كتاب إلهي أنزل للهداية وبناء الإنسانية بأفضل طريقة ممكنة، ولا يخضع للعوامل والظروف والمؤثرات التي يخضع لها نتاج البشري في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، فإن هذا الأساس هو الأساس الوحيد لإمكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بطريقة صحيحة.

وأما حين يستعمل المفسر في دراسة القرآن نفس المقاييس التي يدرس على ضوءها أي كتاب دعوة أخرى أو أي نتاج بشري، فهو يقع نتيجة لذلك في أخطاء كبيرة واستنتاجات خاطئة، كما يتفق ذلك لبحوث المستشرقين الذين يدرسون القرآن على ضوء نفس المقاييس التي يدرسون بها أي ظاهرة من ظواهر المجتمع التي نشأ في داخله وترتبط بمؤثراته وعوامله وتتكيف بموجبه.

وهذا الشرط تفرضه طبيعة الموقف العلمي؛ لأن المفهوم الذي يكونه المفسر عن القرآن

١. انظر في شروط المفسر مجمع البيان، طبع صيدا: ١-٦. لاحظ الشروط الأساسية والشروط الباقية مقترحة.

٢. وقد نقله الشهيد آية الله الحكيم في كتابه (علوم القرآن): ٢٤٢.

ككلّ يشكّل القاعدة الإسلامية لفهم تفصيلاته، ودرس مختلف جوانبه، فلا بدّ أن يبني التفسير على قاعدة سليمة ومفهوم صحيح عن القرآن، يتفق مع الإطار الإسلامي للتفكير، لكي يتجه اتّجاهاً صحيحاً في الشرح والتحليل. وأمّا إذا أُقيم التفسير على أساس تقييم خاطيء للقرآن ومفهوم غير صحيح عنه فسوف ينعكس انحراف القاعدة على التفصيلات ويفرض على اتّجاه البحث انحرافاً في التحليل والاستنتاج.

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة التي يتجلّى فيها مدى الفرق في الاتّجاه بين دراسة القرآن بوصفه كتاباً إلهياً للهداية والدراسة بوصفه ظاهرة في مجتمع تتأثر به وتتفاعل مع عوامله ومؤثراته، وكيف تنعكس القاعدة التي يقيم على أساسها التفسير في التفصيلات وطريقة التحليل والاستنتاج.

أ) ففي إقرار القرآن لعدد من الأعراف وألوان من السلوك كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة قد يخيّل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة ويحاول أن يفسّر القرآن بمقاييس غيره من منتجات الأرض، أنّ ذلك الإقرار يعبر عن تأثر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه، ولكن هذا التفسير لا معنى له حين ننطلق من القاعدة الصحيحة ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً إلهياً للهداية وبناء الإنسانية، بالصورة التي تعيد إليها فطرتها النقية وتوجّهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى.

بل نستطيع على أساس هذه القاعدة الصحيحة أن نفهم ذلك الإقرار من القرآن فهماً صحيحاً؛ إذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كلّ الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله؛ لأنّ الإنسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة والأهداف الحقيقية الكبرى فهي لا تفسد كلّها بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الإنسانية تمثّل فطرة الإنسان أو تجاربه الخيرة، فمن الطبيعي للقرآن أن يقرّ بعض الجوانب ويشجب أكثر الجوانب في عملية التغيير العظيم التي مارسها. وحتى هذا الذي أقرّه وضعه في إطاره الخاص وربطه بأصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها.

ب) وفي تدرّج القرآن الكريم في التشريع قد يخيّل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن، أنّ التدرّج بتكامل شخصية الرسول ﷺ أو غير ذلك من الأسباب

التي تفترض أنه إجماع بشري، غير أن الواقع أن هذا التدرج يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون كتاباً علمياً يدرسه العلماء، وإنما نزل لتغيير الإنسانية وبنائها من جديد على أفضل الأسس، وعملية التغيير تتطلب التدرج.

(ج) وفي القرآن الكريم نجد كثيراً من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي كانت متبناة من قبل الشرائع السماوية الأخرى كاليهودية والنصرانية. وقد يجتنب لمن يدرس القرآن على أساس القاعدة الخاطئة بأن القرآن قد تأثر في ذلك بهذه الأديان فانعكس هذا الانفصال بالتالي على القرآن نفسه.

ولكن الواقع - وعلى أساس المفهوم الصحيح - أن القرآن يمثل الإسلام الذي هو امتداد لرسالات السماء وخاتمها. ومن الطبيعي أن تشتمل الرسالة الخاتمة على الكثير مما احتوته الرسالات السماوية السابقة، وتنسخ الجوانب التي لا تتلائم مع التطورات النفسية والفكرية والاجتماعية للمرحلة التي وصل إليها الفرد الإنساني بشكل عام؛ لأن مصدر الرسالات هذه كلها شيء واحد وهو الله سبحانه، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار إيمان الإسلام بهذه الوحدة في مصدر الرسالات وتأكيده عليها.

ثانياً: وبعد سلامة القاعدة الأساسية في فهم القرآن وتقييمها يجب أن يتوفر في المفسر مستوى رفيع من الاطلاع على اللغة العربية، ونظامها؛ لأن القرآن جاء وفق هذا النظام، فما لم تكن لدينا صورة عن النظام العام للغة العربية لا نستطيع أن نستوعب معاني القرآن، فيحتاج المفسر إلى الاطلاع على علم النحو والصرف والبيان وغيرها من العلوم العربية. والقدر اللازم توفره من هذا الشرط يختلف باختلاف الجوانب التي يريد المفسر معالجتها من القرآن الكريم. فحين يريد أن يدرس فقه القرآن مثلاً، لا يحتاج إلى التعمق في أسرار اللغة العربية بالدرجة التي يحتاجها المفسر إذا درس الفن القصصي في القرآن أو المجاز في القرآن مثلاً.

ثالثاً: ولا بد للمفسر أن يحاول إلى أكبر درجة ممكنة الاندماج كلياً في القرآن عند تفسيره. ونقصد بالاندماج في القرآن أن يدرس النص القرآني ويستوحي معناه دون تقييد سبق باتجاه معين غير مستوحي من القرآن نفسه، كما يصنع كثير من أصحاب المذاهب الذين يحاولون في تفسيرهم إخضاع النص القرآني لعقيدتهم المذهبية، فلا يدرسون النص ليكتشفوا اتجاهه، بل يفرضون عليه اتجاههم المذهبي ويحاولون فهمه دائماً ضمن اطارهم العقائدي الخاص. وهذا

ليس تفسيراً وإنما هو محاولة تبرير للمذهب وتوفيق بينه وبين النص القرآني، ولهذا كان من أهمّ الشروط في المفسّر أن يكون بدرجة من التحرّر الفكري تتيح له الاندماج بالقرآن، وجعله قاعدة لتكوين أي إطار مذهبيّ، بدلاً عن جعل الاتجاه المذهبي المحدود قاعدة لفهم القرآن.

رابعاً: وأخيراً لا بدّ للمفسّر من منهج عام للتفسير، يحدّد فيه عن اجتهاد علمي طريقته في التفسير، ووسائل الإثبات التي يستعملها، ومدى اعتماده على ظهور اللفظ وعلى السّنة وعلى أخبار الآحاد وعلى القرائن العقلية في تفسير النصّ القرآني؛ لأنّ في كلّ واحد من هذه الأمور خلافاً علمياً ووجهات نظر عديدة، فلا يمكن ممارسة التفسير دون درس تلك الخلافات درساً دقيقاً، والخروج من دراستها بوجهات نظر معينة تؤلّف المنهج العام للمفسّر، الذي يسير عليه في تفسيره. ولما كانت تلك الخلافات تتصل بجوانب من الأصول والكلام والرجال وغيرها كان لزاماً على المفسّر لدى وضعه للمنهج ودراسته لتلك الخلافات أن يكون ملماً إماماً كافياً بتلك العلوم.

نماذج من التفسير

وحيث رسمنا المفسّر المطلوب في سطور سنقدّم - بالاضافة لما قدّمنا في حقل التفسير من أقسام للتفسير اعتبرناها غير موضوعية - نماذج أخرى من التفسير. ومهمّة هذه النماذج أن تعكس لنا المفسّر في ضوء ما مرّ من الشروط؛ لنرى ما إذا كان موضوعياً أم لا؟ طویل الباع أم لا وهكذا، وسأترك للقارئ تبيّن ملامح المفسّر والحكم عليه.

النموذج الأول

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾^١ فقد دلّت هذه الآية الكريمة على أنّ ما نبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أنّ كلّ نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصّة على وزن مخصوص بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك مركباً آخر، وأنّ نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدقّة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدقّ الموازين المعروفة للبشر^٢.

١. سورة الحجر: ١٥.

٢. انظر البيان للحجة الخوئي: ٥٤، ط النجف.

النموذج الثاني

قال محي الدين بن العربي عند تفسير سورة القدر: ليلة القدر هي البنية المحمدية حال احتجابه في مقام القلب بعد الشهود الذاتي؛ لأنّ الإنزال لا يمكن إلا في هذه البنية في هذه الحالة، والقدر، هو خطره وشرفه؛ إذ لا يظهر قدره ولا يعرفه هو إلا فيها ثمّ عظمها بقوله: ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾^١.

النموذج الثالث

ما ذكره الشيخ محمود الألوسي في تفسيره حيث قال في تفسير الآية ٥٥ من سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

فبعد استعراض فقرات الآية وصل إلى ذكر روايات تنص على نزولها في عليّ أمير المؤمنين؛ لانه تصدق بخاتمة حال الصلاة. ولما انتهى من ذكر أسباب النزول قال: العبرة لعموم اللفظ لا خصوص السبب، فمفاد الآية حصر الولاية لجماعة متعددين يدخل فيهم الأمير - يعني أمير المؤمنين علياً عليه السلام - وحمل العام على الخاص خلاف الأصل لا يصح ارتكابه بغير ضرورة.

فإن قالوا: الضرورة متحققة هاهنا؛ إذ التصدق على السائل في حال الركوع لم يقع من أحد غير الأمير كرم الله وجهه.

قلنا: ليست الآية نصّاً في كون التصدق واقعاً في حال ركوع الصلاة، لجواز أن يكون الركوع بمعنى التذلل والتخشع لا بالمعنى المعروف في عرف أهل الشرع كما في قوله:

لاتهن الفقير - علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه^٢

ثم استشهد بموارد لمجيء الركوع بمعنى الخضوع من نمط بيت الشعر الذي استشهد به^١.

١ . انظر تفسير القرآن لابن العربي محي الدين ٢: ٨٣١.

٢ . شرح ابن عقيل: شاهد ٣١٩.

أرأيت المغالطات؟! إنه يقول: الآية ليست نصّاً في أنّ الركوع بالمعنى الشرعي بل بمعنى الخشوع وعليه فهي لجماعة تصدقوا خاشعين، وإذا كان كذلك فمن هم هؤلاء الجماعة، أهم كل من تصدّق خاشعاً بقصد القرية؟ وهؤلاء عددهم كبير جداً. أم هم جماعة خاصّة نصّت الروايات عليهم، فلم يذكرهم؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لو تتبعنا موارد لفظة (الركوع) التي خوطب بها المسلمون، فهل نجد معنى للركوع غير الشرعي؟ كلا، والموارد الثلاثة التي استشهد بها حكاية حال عن غير المسلمين.

ومن ناحية أخرى لم يدع مدّع أنّ أحداً تصدّق وهو راع غيرهِ ﷺ، بل كل الروايات نصّت على أنّه هو المقصود بذلك^٢.

والأعجب من ذلك أنّ بعض المفسّرين عندما مرّ بهذه الآية والتي قبلها وهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وهي أيضاً نازلة في عليّ ﷺ لم يفسّرهما بل عبّرهما إلى آيات أخرى^٣.

النموذج الرابع

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾^٤.

يذهب أغلب المفسّرين إلى أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هو استحالة دخولهم الجنة كما يستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة (الذي هو سم الخياط) أو كما يعبر عنه بعضهم: دخول ما يضرب به المثل في الكبر فيما يضرب به المثل في الصغر.

وبناء على ذلك فالجمل - على معناه المتبادر إلى الأذهان - هو الفحل من الإبل كما ذهب لذلك

١. انظر روح المعاني: ١٦٨ ح ٦.

٢. الكشف ١: ٢١٩؛ تفسير الميزان للطباطبائي ٦: ١٥ - ٢٥، والدر المنثور للسيوطي ٢: ٢٩٣ أوفست طبع مصر ١٣٧٧.

٣. صفوة البيان لمعاني القرآن ١: ١٩٨.

٤. سورة الأعراف: ٤٠.

الزخشي في الكشاف وحسنين مخلوف في (صفوة البيان) وفريد وجدي في المصحف المفسر والطبرسي في وجهه، والسيوطي في أحد الوجوه، وذلك عند تفسيرهم للآية في تفاسيرهم. وهناك رأي آخر ذكره الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس: أن المراد بالجملة الفيلس (أي الحبل الغليظ) وهو أنسب بثقب الإبرة من البعير، وفي التفسير بذلك ذوقية في المحافظة على جو التناسب في تشبيهات القرآن.

وعلى العموم فإن الآية - كما أسلفنا - جاءت بصدد بيان استحالة دخول الكافر الجنة. إلا أن الذين يذهبون إلى القول بالتناسخ، وهو انتقال الأرواح إلى أبدان متعددة سواء للتعذيب أو للنعيم، يذهبون إلى أن معناه كون الروح العاصية تبقى منتقلة من بدن إلى بدن ولا تزال معدّبة كذلك حتى تنتقل إلى بدن جمل ثم إلى بدن دودة صغيرة تدخل في سمّ الحياط. وعندئذ تطهر من الذنوب، وبعدها تدخل الجنة؛ لأن ما علّق عليه دخول الجنة قد حصل فيحصل الدخول^١.

وهو قول سخي لا يستحق الردّ، أولاً؛ إذ الكفر لا يغفر لصاحبه، وثانياً؛ لأن هذه الآراء لا سند لها، وثالثاً؛ لاستلزامها كثيراً من اللوازم الفاسدة التي لا يتسع المجال لشرحها.

النموذج الخامس

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^٢.

انقسم المفسرون في معناها إلى قسمين، قسم يذهب إلى أن الزوجية هنا المراد بها المتقابلات كالأرض والسماء والليل والنهار والموت والحياة...^٣.

وذهب الفريق الثاني إلى أن الزوجية المقصودة هنا المتكوّنة من الذكر والأنثى، أو قل هو قانون الزوجية العامة^٤.

١. انظر تفسير الرازي، ج ٤، ص ٢٠٩.

٢. سورة الذاريات: ٤٩.

٣. انظر صفوة البيان ٢: ٣٥٧؛ انظر السيوطي في الدر المنثور ٦: ١١٥ وهو وجه للطبرسي أيضاً.

٤. انظر فريد وجدي، المصحف المفسر: ٦٩٥، ومجمع البيان في الوجه الثاني ٥: ١٦٠ أوفست صيدا.

وقد قصر بعضهم الزوجية هنا على النبات، أي أنه فسّر الآية الكريمة هكذا: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النبات ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾.

في حين أن الآية مصدرّة بالعموم ولا موجب لتخصيص هذا العام بلا مخصص؛ لأنه لم يذكر أي مخصص سوى أنه استبعد تصوّر معنى الزوجية في الجوامد.

وقد يعذر؛ لأن معنى الزوجية بمعناها الحديث بعيد عن ذهنه، ولا يعذر؛ لأن غيره تصور ذلك وعده وجهاً. وعلى العموم فالآية الكريمة صريحة في الكشف عن قانون الزوجية العامة الذي لم يكشف إلا حديثاً.

النموذج السادس

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^٢.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ففسره الأكثر بأنه إشارة إلى ما يفتحه الله تعالى على المسلمين من ديار الكافرين، فالآية تخاطب الكافرين بناء على هذا الوجه، وتلفت أنظارهم إلى منن الله تعالى على المسلمين بالفتوحات^٣.

وذهب بعض آخر من المفسرين إلى أن معناه موت الناس وخراب ديارهم^٤.

ويذهب فريق ثالث إلى وجوه عدة، منها:

أولاً: ما يفتح من الكافرين من أرض ويدخل في حوزة المسلمين.

وثانياً: موت العلماء والاخيار.

وثالثاً: موت سائر الناس وخراب ديارهم.

١ . انظر الكشاف ٢: ٣٥٦ .

٢ . سورة الرعد: ٤١ .

٣ . انظر المصحف المفسر لفريد وجدي: ٣٢٨؛ والكشاف للزمخشري ١: ٤١٠ ، وهو وجه من أربعة وجوه للطبرسي، وكذلك وجه من عدة وجوه للسيوطي في الدر المنثور.

٤ . الطباطبائي في الميزان ١٣: ٣١٧ ، ط طهران ١٣٨٤ هـ ، المراغي في تفسيره، ١٣: ١١٧ ، وصفوة البيان لحسين مخلوف ١: ٤٠٨ .

ورابعاً: الخراب بعد العمران والتقيصة في الأرض. وقد شبهها ابن عباس بالقرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها وتخرب باقي نواحيها^١. والذي يهمني هو هذا الوجه، وقد أشار إلى هذا المعنى - أعني خراب بعض جهات الأرض - بعض الباحثين المحدثين، واستدلّ بهذه الآية على قانون التعرية والتآكل الذي يحدث في الأرض باستمرار^٢.

هذه نماذج من التفسير قدّمته، وتركت للطالب وحده أن يستنبط منها ومما مرّ قبلها صفات المفسّرين من العلميّة واللاعلميّة، ومن الورع وغير الورع والتعصّب وعدم التعصّب، أو قل من الموضوعيّة واللاموضوعيّة.

١. انظر مجمع البيان ٣: ٣٠٠، ط طهران أوفست صيدا، الدر المنثور للسيوطي ٤: ٦٨.

٢. انظر التفسير العلمي للآيات لحفني أصمد: ٣٨٩.

القسم الرابع: ماذج من التفسير الموضوعي

ما هو التفسير الموضوعي

بعض نماذجه:

النموذج الأول: الفطرة فن الله وابداعه الخالد

النموذج الثاني: سيدنا ابراهيم نموذج الانسان الحضاري

النموذج الثالث: سيدنا موسى منقذ المستضعفين في وجه فرعون

النموذج الرابع: مستقبل المجتمع الانساني

النموذج الخامس: الحوار منطق الإنسان

النموذج السادس: حقوق الإنسان في القرآن

النموذج السابع: العلاقات الدولية

ما هو التفسير الموضوعي؟

يقسم سيدنا الشهيد الصدر التفسير إلى تجزيئي وموضوعي؛ ويلخص الفرق بينهما بما يلي:
١- إن المفسر التجزيئي دوره على الأغلب سلبي، فهو يتناول النص القرآني المحدد دون أي افتراضات مسبقة ويحاول تحديد المدلول القرآني على ضوء ما يسعفه به اللفظ وقرائنه المتصلة والمنفصلة.

أما المفسر الموضوعي فانه يبدأ عمله من واقع الحياة ويركز على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستعرض تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وحلول وما طرح من أسئلة لي طرحها على النص القرآني، ويقوم بعملية حوار يستمع فيها لإجابات القرآن على تساؤلاته وموقف القرآن من طروحاته.

ومن هنا ترتبط نتائج التفسير الموضوعي بالمسيرة الحياتية وتحدد النظرية القرآنية بشأن الموضوع. ويمثل لذلك بقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء داءكم، ونظم ما بينكم»^١.

٢- إن التفسير التجزيئي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة بينما يطمح التفسير الموضوعي إلى استحصال أوجه الارتباط بين هذه المدلولات التفصيلية لمعرفة المركب النظري القرآني.

بعد هذا يلخص الفرق بأن التفسير الموضوعي يبدأ من الموضوع الخارجي ويعود إلى القرآن الكريم.

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.

ويوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم من خلال إخضاع هذه التجربة للمدلول القرآني كما يوحد بين الآيات التي تشترك في موضوع واحد ضمن مركب نظري واحد. وأجاب بعد هذا على سؤال عن ضرورة معرفة نظريات القرآن العامة؟ وهو سؤال هام وركز أن معرفة النظريات ضرورية لمعرفة الرؤية القرآنية في جو مشحون بالنظريات الأخرى المتضاربة. ونبه في النهاية إلى أن المقصود ليس الاستغناء عن التفسير التجزيئي وإنما إضافة اتجاه إلى اتجاه لأن الاتجاه الموضوعي هو خطوة إلى الأمام وليس خطوةً بديلة^١.

هذا وقد حاول الآخرون الاقتراب من هذا المستوى في شروحه للتفسير الموضوعي^٢. وهنا يجب ملاحظة أمور قد ينزلق إليها الباحث مما يؤدي بالنتيجة إلى خلاف المقصود وهي باختصار:

١- الانتباه التام إلى أن التفسير الموضوعي - كما قال استاذنا الشهيد - ليس بديلاً عن التفسير التجزيئي المتعارف، بل هو خطوة تالية له، فمن الضروري أن تتم أولاً ثم تتبعها الخطوة الثانية وإلا ابتلي المفسر بعواقب القفز على المراحل، وبالتالي فقدان التركيز المطلوب.

٢- الانتباه إلى أن الأصل الأصيل هو ما يعطيه النص من مفهوم ولا مجال لتحميل رؤية غريبة على النص وإنما يطرح السؤال على ضوء المشاكل الحياتية والحلول الإنسانية ليطم الاستماع إلى الخطاب القرآني تماماً وبالتالي استيعاب كل مدلولاته دونما أية إضافة غريبة.

٣- التوجه لكل ما يثري الموضوع المطروح من مرادفات الألفاظ الموضوع ومن قرائن فعلية وسياقية وكذلك من أحكام عقلية قطعية فهي في الواقع من أقوى القرائن المرتكزة في نفوس السامعين، وكذلك من فهم عرفية اكتنفت النص عند ضرورة بل وربما أوكل الإسلام إليها على الدوام تحديد المراد على ضوء الواقع من قبيل: (النفقة، المثلية، الفقر، الإسراف، المسكنة، الاستطاعة، الإفساد) وغيرها من المفاهيم التي أوكل أمرها إلى العرف مما يعبر عن مرونة الشريعة.

٤- ولما كان المعصومون والعلماء هم الأمناء على تفسير كتاب الله، وهم المستخلفون عليه على مستويات ثلاثة وفق ما يوحيه النص القرآني الشريف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا

١. المدرسة القرآنية ص ١٩ - ٤٢.

٢. يراجع كتاب (قواعد التفسير للشيخ محمد فاكراً المبيدي) ص ٣٩١ - ٤٢٠.

هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴿١﴾ وهي:

أ- مستوى الأنبياء فتفسيرهم قطعي.

ب- مستوى الأوصياء وهو قطعي أيضاً هو ومما يؤكد حديث الثقلين.

ج- مستوى العلماء وتفسيرهم ولا يعد قطعياً ولكنه يجب أن يراعى مهما أمكن.

فعلية يجب أن ينظر إلى المأثور بكل عناية كما ينبغي مراجعة أقوال العلماء والاستضاءة بها مهما أمكن.

وها نحن نقدم بعض النماذج لمثل هذا التفسير في ما يلي:

تمهيد

المسيرة الحضارية في الماضي والمستقبل

من المسائل التي ركّز القرآن عليها مسألة انطلاق المسيرة الإنسانية حاملة الخلافة الإلهية معطية العهد لله بفطرتها وما أودعه الله فيها من إمكانات، على أن تقوم بحق العبودية لله فتسعى نحو بناء المجتمع العابد المنزه عن الشرك بكل درجاته، فيقول تعالى في أوائل سورة البقرة الآية (٢٨ - ٢٩) وهو يعرض بدء المسيرة البشرية على الأرض: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾ وهكذا يتجلى الخطان خط الهدى وخط الكفر؛ خط الخلافة وخط الإنسانية الباقية على عهدنا الذي أعطته الله بفطرتها حين قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١﴾﴾

وراحت تطبق شريعة يشرف عليها الشهداء، وهم الأنبياء وأوصياؤهم والعلماء الذين يحملون الأمانة من بعدهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ

وَإِخْشَاؤُنَ وَلَا كَثْرَتُهُمْ بِآيَاتِي تَمَنَّاءَ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ .
ويقف في قبال هذا الخط خط الكفر والضلالة والتجبر والطغيان وهو خط الشيطان.
والتاريخ يحدثنا عن صراع الخطين المرير؛ فهذا عهد الناردة الطغاة في بلاد ما بين النهرين
يتجبر ويتكبر ليسقط بالنهاية على يد إبراهيم عليه السلام شيخ الأنبياء والموحدين، ويقوم بعده عهد
الفراعنة ليسقط على يد موسى كليم الله عليه السلام وبعده يأتي عهد اليونانيين لينتهي على يد
عيسى عليه السلام روح الله، ويقوم بعده عهد الرومان ليسقط على يدي حبيب الله محمد عليه السلام
وأتباعه، وليبدأ عهد جديد من الصراع بين الحق والباطل إلا أنه عصر ممتد لخلود الرسالة
وسينتهي بغلبة الحق وهو وعد الهي لا يتخلف ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ٢ .
وتملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً جوراً بظهور الإمام المهدي المنتظر عليه السلام .
ونحن فيما يلي سنتعرض لبعض المقاطع القرآنية المرتبطة بهذا الأمر باعتبارها نماذج
للتفسير الموضوعي وهي:

١ - الفطرة فن الله وابداعه الخالد.

٢ - سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذج الإنسان الحضاري في وجه نمروذ.

٣ - سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين في وجه فرعون.

٤ - مستقبل المجتمع الإنساني.

٥ - الحوار منطلق الإنسان.

٦ - حقوق الإنسان في القرآن.

٧ - العلاقات الدولية

١ . سورة المائدة: ٤٤ .

٢ . سورة النور: ٥٥ .

النموذج الأول: الفطرة فن الله وإبداعه الخالد

أصل الفطرة في الثقافة القرآنية

رغم التباين الموجود بين مفاهيم «الفن في القرآن» و «الفن في ظل القرآن» و «الفن القرآني» أو «القرآن والفن» إلا أنّها تلتقي في نقطة واحدة هي أنّ جميعها ارتباطاً وثيقاً بأصل الفطرة التي هي أساس «الإيمان الديني».

إنّ «مبدأ الفطرة» الذي أشير إليه مراراً في القرآن الكريم وروايات المعصومين: يمثل أحد المواضيع الرئيسة والمعمقة لعلم الاجتماع حسب وجهة نظر الإسلام؛ إذ يبقى تعلم الدين ومعارفه السامية والمتجذرة بدءاً من التوحيد والمعاد وانتهاءً بالأحكام والشرائع، وكذلك الوقوف على معارف كتاب الوحي وعجائبه وجمالياتها ناقصاً دون الغوص في مكونات الفطرة.

الفن الديني، أو بعبارة أفضل: البعد الفني وعلم جمال الروح الإنسانية له ارتباط وثيق مع «الفطرة» ويتم تعريفه في ظل الفطرة.

وفي علم الاجتماع الإسلامي لا يعتبر الإنسان، هذا الموجود المعقد، صفحة بيضاء لا كتابة فيها بحيث لا يرى فيها أبداً أي أثر من تجسيم وتصوير ليد الخلقة الإلهية وأنّ ماهيته بشكل عام تتبلور بعد إيجاده.

إنّ الإنسان في الإسلام هو وجود حقيقي يمتلك مؤهلات وقدرات خاصة تمارس العوامل الطبيعية والاجتماعية والتربوية الخارجية ولعامل الإرادة دور أساسي في تجسيد ذاته، وإنّ العوامل الدخيلة في هذا الوجود تناور في مساحة بين أعلى عليين وأسفل سافلين ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿۱﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿۱﴾﴾.

على أن نمو وتكامل وازدهار المؤهلات والمواهب الإنسانية رهن بالسير في ركاب الدين الإلهي؛ الحد الفاصل بين الإنسانية والحيوانية وعامل تسامي الإنسان وتسلقه مراتب الكمال والتسامي الوجودي.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^١.

وتعد معرفة الفطرة والجوانب المتعلقة بها أمراً مفصلياً وضرورياً جداً في طي هذا المسير ومواكبته.

وعلى نحو الإجمال والعموم، فإن الجوانب المتعلقة بالفطرة يمكن تقسيمها إلى:

١- الإدراكات الفطرية.

٢- الميول الفطرية.

٣- الارادة الحرة.

فالإدراكات الفطرية التي هي أساس العلم والفلسفة وكل أنواع المعرفة للعلوم هي عبارة عن البديهيات الأولى كمبدأ عدم التناقض وما شابهه، وهو ما يتم بحثه في محله.

أما الميول الفطرية التي لها صلة أكبر ببحثنا، فهي تشمل الأمور التالية:

١ - الميل نحو المعنوية وعبادة الله.

٢ - الميل نحو العلم وطلب الحقيقة.

٣ - الميل نحو الإحسان والفضائل الخلقية والعدالة وتحسينها مطلقاً.

٤ - الميل نحو الكمال والجمال والظرافة التي هي أساس «الفن» في الحياة والتاريخ البشري. من خلال الميول أعلاه، تتألف الحياة المعنوية للإنسان... فالعلم والأدب والعدالة والدين والحقوق الإنسانية والفضيلة والأخلاق والفن قد سجلت حضورها الفطري. وعلى أساسها بني صرح الحضارة الإنسانية وبدون الإيمان بالفطرة لا يبقى لهذه الأمور أي معنى. أما الإرادة الإنسانية الحرة فهي الميزة الإنسانية والهبة الإلهية التي شاء الله أن تكون حرة تسير نحو التكامل المنشود وهو هدف خلقة الإنسان.

١. سورة الروم: ٣٠.

رسالة الأنبياء

من الجدير الإشارة إلى أن أنبياء الله تعالى، وهم رواد الحياة المعنوية للناس، لم يبعثوا من أجل إيجاد هذه الخصال في نفس الإنسان، بل إن رسالتهم تمثلت في تربية وتعزيز وتحقيق مظاهر البعد السامي للوجود الإنساني والحؤول دون انزلاقه في هاوية الماديات والشهوات. لقد جسد القرآن الكريم، وهو معجزة الرسول الخاتم محمد المصطفى ﷺ، بأكمل صورة ممكنة، عناصر الفطرة الأربعة وكان نقطة التقاء «المعرفة والعبودية» و«العلم والحكمة» و«الأخلاق والفضيلة» و«الجمال والظرافة».

إن تعاليم هذا الكتاب تنسجم تماماً مع فطرة الإنسان وتلبي كافة احتياجاته الفطرية، ومنها تعطش الروح الإنسانية للفن والأبعاد الجميلة.

وفضلاً عن أن القرآن الكريم تبلورت في ظله كثير من الفنون وكان الأصل في ظهور أو تكامل التلاوة والتجويد، والخط، والتجليد، والتذهيب، والتصوير، وخط الرسومات، والمعرقات، وأنه ترك بصماته وتأثيره على فروع فنية أخرى كفن العمارة، وعمل الكنائس المزخرفة بالكاشي، والرسم و... فإنه بحد ذاته مخلوق فني إعجازي مدهش تجلى في صيغة (الكلام) و(البيان) وعرض المعاني السامية والمتكاملة من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ومن الله الرحمن إلى الناس.

إن بيان القرآن الكريم بيان فني وجميل ذو بناء هندسي خاص... من مختلف أنواع الصيغ الأدبية من الحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة، والكنائية، والإيهام... وكذلك الأمثال والحكم، والقصص الجميلة، والموعظة والحكمة، والتاريخ، والفلسفة، والبحث والمناظرة والاستدلالات العقلية والفطرية التي جعلت الإنسان يندفع إلى التدبُّر والتفكُّر، وحرَّكت فيه قدرة التخيل، وصوّرت له الحقائق العلمية والعرفانية بشكل فني حتى وكأن الحقائق المعنوية السامية باتت مجسدة أمام عين القارئ والسامع فأخذت منه مأخذها وصار متحيراً في مقابل تلك المناظر.

إن تركيب الآيات والكلمات، وكون الحروف والحركات تخضع لقاعدة التفخيم والترقيق، وتناسب الجمل والسياق النغمي إلى جانب التحليق المدهش في الآفاق والغور في مكونات الآفاق الإنسانية يعدُّ من أوجه جمالية هندسة الآيات والسور.

إنَّ استخدام الأوزان الشعرية في جمل منثورة، وموسيقية الآيات والبيان النغمي في صياغة الجمل القرآنية، التي تهتُّ لصوتها أوتار قلب كلِّ إنسان صاحب ذوق وناشد للحقيقة وتفتح قريحته بإطلاق كلمات الإشادة والإطراء، تفصح عن استخدام مختلف أنواع الفنون بأجمل صورها في حلقة هذا الكتاب السماوي.

إنَّ هذه الموسيقى والنغمة المرتبطة والمتناسقة تماماً مع مضمون وفحوى الآيات الشريفة، لها تأثير سحري على روح ونفس الإنسان. حتى أنَّها تروِّض أحياناً القلوب القاسية وتجذبها للكتاب العزيز، وهذا يعدُّ بحد ذاته أحد أسس تحدي القرآن الكريم.

الوليد بن المغيرة والجادبية السحرية للقرآن الكريم

يتم الكشف عن هذه الحقيقة في سورة المدثر ببيان إلهي جميل وشاعري من على لسان الوليد بن المغيرة.. هذا المدعو ابن المغيرة وهو أحد أعداء الإسلام والرسول الأكرم ﷺ، حينما سمع شيئاً من القرآن الكريم في أيام الوحي الأولى تأثر جداً بجادبية القرآن الكريم إلى الحد الذي اضطر رغم أنفه إلى الاعتراف بعظمته.

لكن الكبر والعناد جعله يسمي تلك الآيات الجذابة بالسحر. ولذا فالله تعالى فضحه قائلاً:
﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢﴾ ثُمَّ قَاتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٣﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٤﴾ ثُمَّ عَبَسَ ﴿٥﴾ وَبَسَرَ ﴿٦﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٧﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٩﴾ ١.

إن عظم الآيات أعلاه يتجلى ببيانها السهل والشاعري والموزون والموسيقي، وفي قصر جملها وحزمها وتماسكها يميظ اللثام عن الحالات النفسية للعدو المعاند والحاقد.

وبعد أن يمهد للسامع الأمور من الناحية النفسية، ينقل له كلام المنكر للقرآن الكريم ومن ثم يجيب بقاطعية وحزم:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٣﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٤﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٥﴾ ٢.

١. سورة المدثر: ١٨ - ٢٥.

٢. سورة المدثر: ٢٦ - ٣٠.

لا شك أنّ من الأهمية بمكان الوقوف على حالات التصوير القرآنية الجميلة في تجسيد ظواهر الخلق الرائعة من أرض وسماء، وكواكب وسيارات، وصحار وبحار، وجبال، وطيور، وحيوانات أخرى وباقي مظاهر الخلق وكذلك المشاهد المهيبة ليوم القيامة من حوادث النفخ بالصور وما يحصل للأرض والسماء وحتى الجنة والنار وجماليات الأولى وبلايا الثانية، والحوار بين أهل الجنة والنار... وكذلك القصص القرآنية وأسلوبها الفني في رسم الشخصيات الإيجابية والسلبية وأبطال القصص وإعداد القارئ نفسياً، وتحريض وإثارة العواطف والأحاسيس واصطحاب القارئ إلى استنتاجاتها الإنسانية والإلهية؛ لا شك أنّ مطالعة كل ذلك يحظى بأهمية بالغة.

التناسق الرائع بين الإطار والمضمون وفحوى المواضيع القرآنية لا يقتصر على القصص وظواهر الدنيا والآخرة، بل إن القرآن الكريم اختار إطاراً خاصاً فيها يتعلق بالعقائد والمعارف والأحكام والشرائع وبما يتناسب مع مضمون الآيات وفحوى المواضيع، مستخدماً مناهج وأساليب مختلفة بغية المزيد من التأثير.

نماذج من البيان الفني في القرآن الكريم

إنّ حالات استخدام فن البلاغة والصياغات الأدبية المختلفة وتناسب أشكال الكلمات ومرامي مفاهيم القرآن المجيد أكثر من أن تعدّ وتحصى، ولا يسع هذا المقال البحث في التفاصيل إلّا أنّنا مضطرون إلى أن نشير بصورة عابرة ومقتضبة إلى نماذج مختلفة في هذا المجال بغية المزيد من الفائدة للباحثين والراغبين بالمطالعة.

١- بيان فني في رسم الظواهر الطبيعية وجماليات الخلق:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِعَمْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الْجِبَالِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا ثُنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَلُ بَعْضُهَا عَلَى

بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾
 ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿٣﴾

٢- البيان القرآني الفني في رسم وتصوير أحداث يوم القيامة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أُحْضِرْتِ ﴿١٤﴾

وكذلك كافة آيات سورة الحاقة المباركة ومنها:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ﴿١﴾ وَلَمْ أَذْرَ مَا حَسَابِيهِ ﴿٢﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٣﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ ﴿٤﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴿٥﴾ خُدُوهُ فَعُلُوهُ ﴿٦﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ ﴿٧﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٨﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٩﴾

٣- حوار أهل الجنة والنار:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿١﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٥﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٦﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٧﴾ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٨﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٩﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿١٠﴾

١ . سورة الرعد: ٢- ٤ .

٢ . سورة الرعد: ١٢- ١٣ .

٣ . سورة التكوير: ١- ١٤ .

٤ . سورة الحاقة: ٢٥- ٣٣ .

٥ . سورة المدثر: ٣٨- ٤٧ .

٤- وصف الجنة ونعمها:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٤٠﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٤١﴾. ١.

٥- وصف جهنم وعذابها:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٤٢﴾ لِلظَّالِمِينَ مَابًا ﴿٤٣﴾ لَا يَبِينُ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٤٤﴾ لَا يَدْوِقُونَ فِيهَا بُرْدًا ﴿٤٥﴾ وَلَا شَرَابًا ﴿٤٦﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٤٧﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٤٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٤٩﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٥٠﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٥١﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٥٢﴾. ٢.

٦- البيان القرآني الفني في ذكر القسم:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿٥٣﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿٥٤﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿٥٥﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٥٦﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٥٧﴾. ٣.

٧- البيان القرآني الفني في ذكر الوقائع التاريخية والقصص القرآنية:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴿٥٨﴾ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٩﴾. ٤.

وفي سورة نوح يسرد القرآن الكريم الحوار بين النبي نوح عليه السلام ورب العزة على النحو التالي:
 ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٦٠﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦١﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٦٢﴾ فَسُئِلْتُمْ لِيُتُوبُوا فَمَنْ حَتَمْتُ يَوْمَهُمْ لِيَتُوبُوا قَالُوا لَنْ نَبْرَأَ لَكَ شَيْئًا إِنَّا كُنَّا فِي سُبْحَانَ ﴿٦٣﴾ فَأَنْزَلْنَاهُ فَمَا اسْتَسْقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٦٦﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٦٧﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٦٨﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْجِبُوا عَلَيْهِمْ إِذْ يُؤْتُونَهَا لَكُمْ تُوْبًا وَأَنْتُمْ لَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾. ٥.

١. سورة النبا: ٣١-٣٦.

٢. سورة النبا: ٢١-٣٠.

٣. سورة التكويز: ١٥-١٩.

٤. سورة القصص: ٧.

وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٢﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٣﴾.

وكذلك:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْدُرُنَّ إِلَهِتَكُمْ وَلَا تَنْدُرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٨﴾.

٨- سائر الأمثال والحكم

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم دخلت الأدب العربي وفرضت لنفسها مكاناً في الحوار بين الناس بسبب قصرها وجماليتها ومعناها الوافي وتعلقها بقضاياهم الاجتماعية وخلقياتهم وحياتهم اليومية وبصفتها حكماً وأمثالاً، منها:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣﴾﴾
 ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٢٩﴾﴾.
 ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.
 ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾
 ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴿٧﴾﴾.

١. سورة نوح: ٥ - ١٤.

٢. سورة نوح: ٢١ - ٢٨.

٣. سورة البقرة: ١٧٩.

٤. سورة الزلزلة: ٧ - ٨.

٥. سورة آل عمران: ٥٤.

٦. سورة الانشراح: ٦.

٧. سورة الإسراء: ٧.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^١.

٩- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^٢.

١٠- البيان الرائع في تشريع الأحكام

لا يقتصر التناسق بين الإطار وكوامن المواضيع القرآنية على قصص وأيهان وأمثال وحكم القرآن الكريم، بل إنه اختار إطاراً خاصاً عند تطرّفه للعقائد والمعارف والأحكام والشرائع وذلك بما يتناسب مع مضامين الآيات الشريفة، واستخدم أساليب مختلفة بهدف المزيد من التأثير... من بين تلك المواضيع تشريع الصيام؛ فهذا الحكم الإلهي الداعي إلى تجنّب الأكل والشرب وابتعاد الإنسان عن اللذائذ الأخرى كان يعدّ عملاً شاقاً وغير مألوف بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يعيشون في أرض الحجاز الملتهبة بحرارة الشمس وأيام الصيف الطويلة، ولذلك عمد إلى استخدام أسلوب مغاير في التشريع حيث راعى الجوانب العاطفية والنفسية أثناء تبينه للحكم ومن ثم تطرّق إلى التسهيلات وحالات التخفيف التي من شأنها أن تخفّض من شدّته وحدّته وبما يجعل النفوس تركز إلى الحكم وتقتنع بالعمل به. هذا فضلاً عن الفوائد المادية والمعنوية التي ترتبت على الحكم. إن صيغته شجّعت المسلمين ورغبتهم بقبول الصيام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٣.

١. سورة الرحمن: ٦٠.

٢. سورة الحديد: ٢٠.

٣. سورة البقرة: ١٨٣ - ١٨٤.

- إنَّ النقاط التالية تكشف عن جانب من البيان الرائع الذي استخدمه القرآن الكريم في الآيتين أعلاه من أجل تحفيز المسلمين على الصيام.
- ١- التركيز على إيمان الناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبالتالي تمسكهم بمقوماته.
 - ٢- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ أي لا مجال للجدال بل هو أمر من قبل الله تعالى.
 - ٣- ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أي لا تقلقوا، فلستم وحيدين والأمم التي من قبلكم كانت تصوم أيضاً.
 - ٤- ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ إن فائدة الصيام تتمثل في التقوى والورع عن المحارم.
 - ٥- ﴿أَيَّامًا﴾؛ جاءت بصيغة النكرة؛ أي عدداً من الأيام.
 - ٦- ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾؛ تأكيد على قلة عدد أيام الصيام.
 - ٧- ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ تسهيل وتخفيف عن المرضى والمسافرين.
- ٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ تخفيف عن مجموعة آخرين من الشيوخ والعجزة ومن يشق عليه الصيام.
- ٩- ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ تبين لفوائد الصيام وأن هذا الحكم إنما هو لمصلحة الناس.
 - ١٠- وفي آخر هذه الآيات يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.
- إنَّ هذه الآيات وعبر بيانها الرائع، والمتسم بالمعالجة النفسية، عرضت فلسفة وفوائد الصيام، وأوضحت حالات التخفيف والتسهيل، ولفتت الأنظار للأهمية المعنوية لشهر رمضان المبارك ونزول القرآن الكريم فيه، استخدمت أفضل أسلوب للنفوذ إلى ضمير ووجدان المخاطب مشرعة بذلك حكم الصيام الإلهي.
- إنَّ الآيتين الأفتي الذكر ما هما إلا نموذجين من استثمار العلم والحكمة والفن والإبداع في البيان القرآني الذي يؤلف بمجموعه الخلق الفنية للقرآن المجيد. وإنه لمن نافلة القول أن يستلهم كافة المسلمين من الكتاب العزيز أدوات الفن بفروعه المختلفة نحو المزيد من إشاعة الثقافة القرآنية ونشرها بين الأجيال وفي مختلف العصور وخاصة بين الجيل الواعد، ولا يغلقوا الطريق أمام التحديث والتجديد والإبداع.
- علينا أيضاً أن لا ننسى أن شهر رمضان المبارك الذي هو شهر ضيافة الله تعالى وأنَّ

الحضور حول مائدة رحمته الواسعة هو انطلاقة للتحرك في مسير التكامل الإنساني الإلهي والمعنوي نحو التقرب لله تعالى والوصول إلى (فطرة الله).

إنَّ الخروج بنجاح من امتحان محاربة هوى النفس وتسويلات إبليس وكذلك بلوغ الذروة في التقوى والزهد حيث الغاية النهائية للصيام في عيد الفطر السعيد وفيه العودة المتصرة للصائمين إلى الفطرة الإنسانية - الإلهية الطاهرة والأصيلة. هذا الفوز العظيم يتكامل بإقامة صلاة العيد التي هي تجسيد لوحدة صف المسلمين وأخوتهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^١ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى

إذن: يؤصل القرآن في خلد الإنسان العودة إلى فطرته وما تقتضيه من النظر في الكون وتناسقه الكاشف بكل وضوح عن خالقه العظيم، فإذا غفل عن ذلك غفل وفسق عن فطرته نفسها. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^٢. كما يؤصل أيضاً فيه حس الفن والإبداع الفني باعتبارهما ميلين فطريين لينطلق الإنسان متكاملًا مجددًا - وهي خاصية لا يتمتع بها غيره من الحيوانات - عاملاً على إعمار الأرض وتحقيق مقتضيات خلافته لله سائراً تحت ظل الله يقوده الأنبياء مرحلة مرحلة شاهدين عليه في سفينة الحياة. وكان الآيه التي تتحدث عن سفينة نوح تتحدث عن سفينة التاريخ كله إذ تقول: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^٣.

١. سورة الأعلى: ١٤ - ١٥.

٢. سورة الحشر: ١٩.

٣. سورة هود: ٤١.

النموذج الثاني: سيدنا إبراهيم عليه السلام

نموذج الإنسان الحضاري الكامل^١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٢﴾.

يكاد يكون سيدنا إبراهيم ^{١٧} لشخصية الوحيدة التي تجمع البشرية المتألهة على اعتبارها الأسوة الحسنة، وما نسعى إليه في هذا المقال هو دراسة نقاط الالتقاء الإنساني التي تنسجم مع أصولنا العقائدية جميعاً لنجعلها منطلقاً حياً لمسيرة إنسانية واحدة، ومن ثم لنعمل على تقريب الفرد المساهم في الحضارة الإنسانية من هذا النموذج الفريد.

وقبل استعراض ما يقرره القرآن الكريم حول هذه الشخصية العظيمة يجب أن نلاحظ بعض النقاط كمقدمات تمهيدية توّضح توجه النظرية الإسلامية للحياة أولاً بأبعادها العامة، ثم نستعرض الدور الذي يلعبه الفرد في هذا التوجه الحضاري الإنساني.

١ . بحث ألقى في مؤتمر الأديان الإبراهيمية المنعقد في قرطبة بإسبانيا، بتاريخ ١١/٢/١٩٨٧ من قبل المفكر المسلم رجاء غارودي.

٢ . سورة الحج، ٧٧ - ٧٨.

كما نركّز على العقبات التي تنطرح أمام مسيرة هذا التوجُّه نحو أهدافه الكبرى مشيرين إلى العلاج المتصوّر. كل ذلك يؤكّد أنّ الصورة القرآنية عن هذا الرجل الموحد يمكنها أن تشبع تماماً كل الحاجات التي تفترضها تلك النظرية في الرجل الذي يصنع التقدّم الحضاري ويترك بصماته على التطور الحقيقي - من وجهة نظر الإسلام - أي التطور المنسجم مع خط الفطرة الصاعد إلى الله تعالى.

أهم المبادئ للنظرية الإسلامية حول الحياة الحضارية الإنسانية

الأول: أنّ الحياة الإنسانية نعمة هامة منّ بها الله - الرحمن الرحيم - تعالى على هذا الموجود وكرّمه بها ليوصله إلى كماله الوجودي المناسب له.

الثاني: أنّ هذا الموجود الإنساني لا يصل إلى كماله إلاّ من خلال عمل اجتماعي حضاري تاريخي ومتدرج ومتكامل، تقوده إلى تكامله هدايتان تشكّل إحداهما نبيّه الداخلي، وهي الفطرة بكل ما فيها من طاقات للمعرفة النظرية والعملية، ودوافع نحو استكناه المجهول، والاتّجاه للكمال والتدبّن للإله المطلق، وقدرات للتعلّق والتجريد والاستدلال، وتجاوز الحدود المادية، وهذه هي الهداية الفطرية. في حين تشكل الأخرى عقله الخارجي الذي نسميه (بالوحي) وهي الهداية التشريعية التي تكمل عنصر الإرشاد لديه وتهيئه للوصول إلى الهدف.

الثالث: أنّ المسيرة الإنسانية تصادفها مشكلات جمّة يمكن تلخيصها بما يلي:

١- مشكلة عدم الإيمان بأي وجود أعلى، وبالتالي عدم التسليم لأي قيمة أو قانون، وهو ما نسميه أحياناً بـ(الإلحاد).

٢- مشكلة الإيمان المفرط بالهة وهمية تأتي نتيجة عملية تصعيد ذهني لبعض الوجودات المؤثرة حقيقة أو حتى وهماً وبالوصول بها إلى مستويات مطلقة، وجعلها موجّهة تمام التوجيه للحياة.

٣- مشكلة التعارض بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية.

٤- مشكلة عدم وجود الدافع الذاتي للتسليم للحدود الاجتماعية وتطبيق النظام الأصلح حتى ولو كان يعارض المصالح الشخصية.

٥- مشكلة خمول الطاقات الفطرية نتيجة التخلف الاجتماعي. وغير ذلك من المشاكل التي تترك أعظم الآثار السلبية على المسيرة الحضارية الإنسانية.

فالمشكلة الأولى: إذا تحكّمت في المجتمع - وكذلك المشكلة الرابعة - فإنها تؤديان إلى تحلل عارم، وعدم انتماء مقيت فظيح لا تستقر معه حياة، ولا يسلم فيه قانون، وبالتالي لا تفترض معه مسيرة سالمة.

والمشكلة الثانية: إذا انتشرت مزّقت البشرية إلى جماعات متناحرة، وأوقفت عجلة التقدّم الإنساني؛ باعتبار أنّ هذه الآلهة الوهمية تتحوّل إلى قيود على الذهن الإنساني الحضاري؛ لأنّها وليدة وضع متخلّف، فلا تسمح - إذن - بوضع أكثر تطوراً.

والمشكلة الثالثة: تكاد تكون هي سرّ كل هذا الظلم والحيف والجور والتعدّي على حقوق الجماعة، وما إلى ذلك من الفسق والانحراف عن المسيرة الإنسانية السلمية.

أما المشكلة الرابعة: فهي قد تحوّل الإنسان إلى مجرد حيوان ودبع مسخر للطبيعة أو لمصالح الإنسان الآخر، وبالتالي تفقده القدرة على احتلال دوره الحضاري المنشود، وهنا نذكر بأنّ هذه المشاكل قد تكون أحياناً ناشئة من طبيعة الإنسان نفسه، كما قد تكون ناشئة من عوامل خارجية طارئة، إلا أنّ النظرية الإسلامية - والواقع يؤيدها - تؤكد أنّ الحلول الحقيقية لهذه المشاكل الحضارية تكمن في الدين، وهو ما تقود إليه الفطرة والطبيعة الإنسانية نفسها، وبالتالي فإذا تجسّد الدين في الرجل الحضاري استطاع أن يغيّر المسيرة.

أما كيف يتم الحل على يد الدين فهو ما يمكن تلخيصه بالأمر التالية:

أولاً: يعتمد الدين الإلهي مسألة الإيمان بالله العظيم، وهو المطلق الحقيقي الذي تنزع إليه الفطرة كل النزوع، ولا تستريح إلا بالوصول إليه والاطمئنان بذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^١. وهو الوجود الحقيقي الذي لم يصنعه الذهن القاصر بل هو خالق الوجود.

وثانياً: يعتمد مسألة الوحي وامتداد الرحمة الإلهية إلى البشرية لتستمدّ من (العلم الإلهي) و(الطف الرباني) ما يعطي الإنسان المخطط التفصيلي لحياته الصاعدة بعد ما أعطته فطرته المخطط الإجمالي لذلك.

وثالثاً: يعتمد مسألة الآخرة والحياة الإنسانية الممتدة إلى عوالم الخلود، وبالتالي تتحوّل الحياة من وجود محدود إلى حياة خالدة.

ورابعاً: ينظّم كل الشؤون الحياتية ويربّي النفس الإنسانية على حبّ يتعالى على الأمور الدنيا ليدوب في الله العظيم. ويتحوّل إلى تسليم حنيف خالص له جلّ وعلا لا يرى حقيقة في الوجود إلاّ هو، ولا مولى في الكون إلاّ هو، ولا محبوباً غيره، ولا مؤثراً سواه. جلّت قدرته وآلؤه. وعندما يتأصل الدين في وجود الإنسان ويملاً عليه وجوده وإحساساته فسوف لن تبقى أية مشكلة من المشاكل السابقة على الإطلاق، ولا معنى لتصور الإلحاد، أو التأليه الكاذب، أو التغليب الجشع للمصالح الفردية، أو العصيان، أو حالات الخمود الفطري، كلاً وإنما يعود السير طبيعياً نحو الكمال المطلق، وكادحاً نحو الله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^١.

الرابعة: أنّ الإنسان الفرد يستطيع أن يغيّر نفسه ومجتمعه ومسيرته الحضارية، لا بل إنّ الإسلام يطلب من الإنسان المؤمن أن يدعو ربّه دائماً ليجعله إمام المتقين. وبهذا الإحساس نقول: إنّ النظرية الإسلامية لا تذيب الفرد في دوامة المجتمع في نفس الوقت الذي تعترف فيه بالإطار الاجتماعي النظيف مجالاً خصباً للتحوّل التكاملي للفرد. وبهذا يمكن أن يكون الفرد في سلوكه (أمة) على سعتها إذا امتلك تأثيرها المطلوب، وتفجرت لديه طاقات الفطرة الكامنة، وطفحت على سطح سلوكه دفائن العقل والنفس اللامادية الفاعلة، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام^٢.

إبراهيم عليه السلام نموذج الرجل الحضاري القائد

إنّ القرآن الكريم ليركّز على شخصية إبراهيم عليه السلام تمام التركيز والتأكيد، بما لا نظير له من بين الشخصيات القيادية التي يطرحها اللّهمّ إلاّ شخصية الرسول العظيم محمد عليه السلام التي يعتبرها تجلياً لدعاء سيدنا إبراهيم، وأسوة للبشرية الصالحة. وقبل أن نستعرض بشكل إجمالي خصائص هذه الشخصية نشير إلى نقطتين مهمتين في البين هما:

١. الانشقاق: ٨٤.

٢. للتعلم في هذا المجال راجع ما كتبه الإمام الشهيد الصدر في نهاية كتابه «الفتاوى الواضحة» حول دور العبادات في حياة الإنسان.

أولاً: إنَّ ملاحظة دقيقة لهذه الخصائص توضح لنا أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يتمتع بكل الخصائص الحضارية للفرد القائد المغيّر، وأنَّه استطاع - أو أنَّ القرآن الكريم استطاع من خلال إبراز هذه الخصائص - أن يصوّر أروع كيفية للتغلب على كل نقاط الضعف التي أشرنا إليها من قبل.

ثانياً: إنَّ القرآن الكريم يؤكّد بكل دقة على علاقة الأمة الإسلامية بإبراهيم عليه السلام وذلك بأساليب كثيرة. فهو تارة يجعله والذين معه أسوة حسنة للمسلمين ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^١.

وأخرى يجعل الأمة الإسلامية مظهر إجابة لدعائه عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٢.
ويطلق عليه - تارة ثالثة - اسم (الأب) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^٣.

كما أنه يأمر هذه الأمة باتباع هذه الملة الخفيفة ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٤.

وهكذا جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^٥. حيث يتم الربط بين إبراهيم والدور الحضاري للأمة وبالتالي فإنَّ أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه وهذا النبي والمؤمنون ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٦.

١ . سورة الممتحنة: ٤.

٢ . سورة البقرة: ١٢٩.

٣ . سورة الحج: ٧٨.

٤ . سورة النحل: ١٢٢.

٥ . سورة الحج: ٧٨.

٦ . سورة آل عمران: ٦٨.

ويتجلى هذا الربط أروع تجلٍ بعملية الحج حيث تبدأ العملية تاريخياً برفع قواعد هذا البيت.
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١﴾.

ثم بذلك النداء التاريخي يطلقه ﷺ منادياً كل فصائل التوحيد لتطوف حول البيت الحرام: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿٢﴾. وبذلك يتم الربط العظيم بين إبراهيم وهذه الأمة وكل ما تقوم به من عمل حضاري (تردد نفس النشيد وتعمل نفس العمل وترفع نفس الشعار).

من الخصائص التي يذكرها القرآن لإبراهيم ﷺ

لعل أهم الصفات التي يتحدث عنها القرآن الكريم، وأجمعها؛ هي صفة (الحنيفية) والتي تعني باختصار (صفاء الإيمان، وعمقه في النفس، وتحوله إلى تسليم مطلق لله تعالى).
يقول تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣﴾.
﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٤﴾.
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿٥﴾.
﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٦﴾.
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧﴾.

١ . سورة البقرة: ١٢٧ و ١٢٨.

٢ . سورة الحج: ٢٧.

٣ . سورة البقرة: ١٣٥.

٤ . سورة آل عمران: ٩٥.

٥ . سورة النساء: ١٢٥.

٦ . سورة الأنعام: ١٦١.

٧ . سورة النحل: ١٢٠.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^١.

وهذه الصفة هي مقتضى المسير الفطري السليم وهو ما أكد عليه الأنبياء جميعاً، فبعد ذكر قصة إبراهيم والتركيز على خطه يأتي هذا المقطع القرآني: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^٢. ولذلك يعتبر القرآن ملة إبراهيم هي الطريق السليم، وما عداها لا يعدو السفه ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^٣. ويؤكد سلامة خطه عن كل لون آخر ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٤.

ويعتبر شريعته الصراط المستقيم ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٥.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٦ شَاكِرًا لَأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٦.

وخلاصة الأمر أن (الحنيفية) والإخلاص لله هي سر الوجود الحضاري الفاعل. بعد هذا نستعرض بإجمال أهم الصفات التي يذكرها القرآن لهذه الشخصية وهي:

أولاً: الإيمان البالغ حد اليقين النافذ للقلب والوجود كله، وهو ما نلاحظه في مجموع الآيات.

ثانياً: التأمل والتفكير والتعقل الدائب:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^٧ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^٧ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^٧ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٧.

ثالثاً: الدعوة إلى التوحيد بشتى الوسائل ومنها إقامة بيت التوحيد.

١ . سورة النحل: ١٢٣.

٢ . سورة النحل: ١٢٣.

٣ . سورة البقرة: ١٣٠.

٤ . سورة آل عمران: ٦٧.

٥ . سورة الأنعام: ١٦١.

٦ . سورة النحل: ١٢٠ و ١٢١.

٧ . سورة الأنعام: ٧٦ - ٧٩.

رابعاً: الحجاج الفطري السليم في مجال الدعوة إلى الله:

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَيْفَكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ﴾ ﴿قَالَ أَنْعِبُدُونَ مَا تَنْجُتُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^١.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ﴾ ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾^٢.

﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^٣.

﴿وَإِثْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ﴾

١. سورة الصافات: ٨٣-٩٦.

٢. سورة الأنبياء: ٥١-٦٤.

٣. سورة مريم: ٤١-٤٥.

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١﴾ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿١٢﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾.

﴿١٠﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾.

خامساً: التسليم المطلق لله تعالى يقول القرآن المجيد:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٢٥﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٦﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ
إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾ إِذْ
قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ
اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ
يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾.

﴿١٣١﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٣٢﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٣﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ
هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣٥﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ

١. سورة الشعراء: ٦٩ - ٧٧.

٢. سورة العنكبوت: ١٦ و ١٧.

٣. سورة البقرة: ١٢٦ - ١٣٣.

تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا
بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴿١٠٣﴾.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ
نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ
اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿١٠٩﴾.

سادساً: الاهتمام بالمسيرة الإنسانية كلها والبدء بالذرية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿١١٠﴾ رَبِّ
إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا
إِنِّي اسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ
أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا
نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١١٣﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١١٤﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ

١ . سورة التوبة: ١١٣ - ١٢٠.

٢ . سورة آل عمران: ٦٠ - ٦٤.

٣ . سورة النساء: ١٢٥.

وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿١﴾
سابعاً: الصراع الفكري والعملي ضد الأصنام وإعلان البراءة الدائمة من خطها العملي:
 ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءٌ مِنْكُمْ
 وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى
 تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ...﴾^٢.

ثامناً: عدم التخوف من الشرك وآلهته المزيفة وتهديداته:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي
 شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
 أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
تاسعاً: التضحية التامة في سبيل الهدف، وكل حياة إبراهيم عليه السلام تضحية بالنفس والأهل
 والولد في سبيل الهدف....

عاشراً: توفير البيئة الصالحة لتلقي الرحمة والبركة الإلهية:

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٤﴾

حادي عشر: امتلاك الصفات الإنسانية العليا:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
 يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿٥﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿٥﴾
 ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٦﴾

﴿أُمُّ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٦﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

١. سورة إبراهيم: ٣٥-٤١.

٢. سورة الممتحنة: ٤.

٣. سورة الأنعام: ٨٠ و ٨١.

٤. سورة هود: ٧٣.

٥. سورة النساء: ١٢٤ و ١٢٥.

٦. سورة هود: ٧٥.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٢﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٣﴾
 ﴿٤﴾ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ
 بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٧﴾ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ
 وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَا بِ﴿٩﴾

ثاني عشر: الدعاء واللجوء الدائم إلى الله:

﴿١﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
 فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ
 تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣﴾

ثالث عشر: الجهاد المتواصل:

﴿١﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ
 مِّثْلَ مَا أَبْيَضَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا
 عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ
 مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٢﴾

وبعد كل هذا ألا يحق لنا أن نعبر عن إبراهيم عليه السلام بأنه النموذج الإنساني الحضاري الكامل،
 وأنه (الأمة) القائمة لوحدها، وأنه المحور الذي يجب أن تجتمع حوله الأديان جميعاً وتسير في
 ظلّه محققة هدفه وهدف الأنبياء جميعاً، وهو تعبيد الإنسانية لله، والصراع ضد الطاغوت
 والاستكبار ﴿١﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ... ﴿٢﴾

ولذا فإننا ندعو البشرية جمعاء إلى هذا المستوى الرفيع، وإلى نبذ كل الأطروحات المادية
 التي سلبتها وجودها الإنساني الأصيل ومقامها المكرم، وذلك رغم ما طرحته من شعارات

١ . سورة النجم: ٣٦ - ٤١ .

٢ . سورة ص: ٤٥ - ٤٩ .

٣ . سورة إبراهيم: ٣٧ و ٣٨ .

٤ . سورة الحج: ٧٨ .

٥ . سورة النحل: ٣٦ .

برّاقة كالحرية والديمقراطية، والضمان والاشتراكية، والعلاقات الاقتصادية المتوازنة، وما إلى ذلك، وما هي في الواقع إلاّ جسور لتحقيق المطامع الجشعة لأرباب الكارتلات النفطية، وشركات الاحتكار العالمية، ومؤسسات النقد الدولية الجاثمة على صدور الشعوب الضعيفة. وإننا بعد هذا لندعو البشرية إلى أن توطّر كل نظمها الحياتية (التربوية، والاقتصادية، والحقوقية وغيرها) بإطار أخلاقي إنساني رفيع، يعتمد عناصر الثبات الفطرية، ويتّجه نحو الكمال المطلق بفلسفة شاملة تركّز على خصائص الإنسان الأصيلة (التعقل، الاندفاع المتحرك دائماً نحو الكمال، الإرادة الواعية) والحضارة إذا فقدت هذه العناصر فقدت روحها وسارت بالبشرية إلى وديان العذاب والدموع، فإلى حياة القرآن الكريم ندعو كل الشعوب.

النموذج الثالث: سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين

في وجه فرعون رمز الطغيان

ذكر سيدنا موسى عليه السلام في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وكلها تركّز عليه مثلاً للإنسان المؤمن الصابر القائد المتحرّق لأتمته المتألّم لاستضعافها العامل على إنقاذها من ظلم فرعون وملأه.

ويمكن أن نلخص هذا النموذج الإنساني النبوي بالأمر التالية:

١ - القائد الحريص على هداية قومه ونجاتهم والمذكّر لهم دائماً بنعم الله والمحرّض على الجهاد والمرّبّي لهم عقائدياً وخلقياً ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿١٤﴾﴾

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَنِي حَمِيدٌ ﴿٥٩﴾.

٢ - الإنسان الحريص على خدمة المستضعفين كما في قصة نصرته للإسرائيلي^٢، والسقاية لا بتي شعيب^٣، الحريص على التعلم كما في قضيته مع العبد الصالح^٤، والمخلص المقرب العابد الساجد الباكي عند سماع آيات الله^٥.

٣ - الإنسان الصابر المجاهد المتحمل للمشاق في سبيل دعوته، الذاكر لله كثيراً، الغاضب لله من انحراف قومه^٦.

كما تكرر أيضاً ذكر فرعون باعتباره رمزاً للطغيان وان سلوكه يعبر عن سلوك نوع الطغاة والمستكبرين فهو يسوم قومه سوء العذاب^٧، ويكذب بآيات الله^٨، ويظلم بها^٩، ويتهم الرسول بالسحر^{١٠}، وهو يمتلك مغالقة الإيوان فلا يمكن لأحد أن يؤمن بشيء إلا بعد استئذانه^{١١}، وهو يفتن قومه بالأساليب الخداعة ويقودهم إلى الضلال^{١٢}، وهو يستعلي ويسرف في الأرض^{١٣}، وهو من الطاغين المتجاوزين للحدود الطبيعية^{١٤}، وهو من المتأمرين الكائدين^{١٥}، الفاسقين الخارجين

١ . سورة إبراهيم: ٥ - ٨.

٢ . القصص: ١٨ - ١٩.

٣ . القصص: ٢٣ - ٢٦.

٤ . الكهف: ٦٠ - ٨٢.

٥ . سورة مريم: ٥١ - ٥٢.

٦ . سورة طه: ٩ فما بعدها.

٧ . سورة البقرة: ٤٩.

٨ . سورة آل عمران: ١١.

٩ . سورة الأعراف: ١٠٣.

١٠ . سورة الأعراف: ١٠٩.

١١ . سورة الأعراف: ١٢٣.

١٢ . سورة يونس: ٨٩، طه: ٧٩، الزخرف: ٥١.

١٣ . سورة يونس: ٨٨، القصص: ٤، النازعات: ١٧.

١٤ . سورة طه: ٢٤.

عن الفطرة^٢، الممزقين لشعوبهم^٣، وهو من المدعين للإلوهية المتفردة^٤، ومن المستكبرين^٥، الذين يعذبون شعوبهم بأقسى أنواع العذاب^٦، ويعملون على أن تفقد الشعوب وزنها أمامهم^٧، إلى غير ذلك من الأوصاف التي يطلقها القرآن عليه ليكشف حقيقة الخط الذي يقف أمام خط المسيرة الإنسانية الصاعدة التي يقودها الأنبياء: مرحلة مرحلة، ويشهدون عليها وهي تطبق شرع الله فننعم بشرف العبودية التي تعني، كلما تأصلت في الفرد، القرب من الكمال وتحقيق هدف الخلقة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٨.

ولاريب أن خط الإيمان سيبتصر، وأن خط الفراعنة والطغاة المستكبرين سيتهي إلى الضياع والهلاك. وإذا كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون تتكرر فإنها تعرض من جهة أخرى نماذج تاريخية متكررة تنبه المؤمنين في كل عصر إلى أساليب الطغاة ليحذروها وليصمدوا أمامها.

١. سورة طه: ٦٠.

٢. سورة النمل: ١٢.

٣. سورة القصص: ٤.

٤. سورة القصص: ٣٨.

٥. سورة العنكبوت: ٣٩.

٦. سورة الفجر: ١٠.

٧. سورة الزخرف: ٥٤.

٨. سورة الذاريات: ٥٦.

النموذج الرابع: مستقبل المجتمع الإنساني

للقرآن الكريم تصوّره الواضح عن مستقبل الوجود الإنساني، وله أساليبه المختلفة لتركيز هذا التصوّر في ذهن الإنسان المسلم، كما أنّ له تخطيطه الأصيل في دفع البشرية نحو تحقيق هذا التصوّر وتجسيده واقعاً حياً. ولكن قبل الدخول في صميم الموضوع لابدّ لنا من كلمتين تمهدان لنا السبيل:

الأولى: نقولها ردّاً على تساؤلات وجدت من يطرحها، وهي تقول: أليس البحث عن تصوّر كامل للمستقبل يعدّ من ترف القول ومن الانسياق الطوبائي نحو عالم مجهول؟ ولماذا نتوقّع من القرآن بالخصوص أن يعطينا هذا التصور ونحن نعلم أنّ القرآن كتاب هداية وإيديولوجية عملية للحياة... وليس كتاباً علمياً مدرسياً. محدّثنا عن قوانين الكون ويكشف لنا مغاليق الأسرار، تماماً كما تفعل الكتب العلمية في الفيزياء وعلم النفس والبيولوجيا؟ إنّ القرآن لا يصادر مجالات الإبداع الإنساني ويطرح نفسه بديلاً عن هذا الإبداع.

ويضيف هؤلاء بأنّ القرآن لو كان كتاباً علمياً لاختص بمجموعة من العلماء والفلاسفة ولم يعد كتاب هداية. إذاً فنحن لا نتوقع من القرآن حديثاً عن المستقبل الإنساني وما يتطلّبُهُ هذا الحديث من كشف لقوانين الحياة الاجتماعية وسنن التاريخ الجارية؟

ونقول في جواب هؤلاء المتسائلين: إنّنا لو لاحظنا الحقائق التالية لأدركنا أنّ هذه العملية الكاشفة لما كانت تتعلّق بالساحة التاريخية فإنّها تكاد تكون من أهمّ الخطوات المحقّقة للهدف الإيديولوجي العادي للبشرية، وأنّ الكشف عن هذه الحقيقة العلمية هنا له دوره

الأكبر في تحقيق الهدف الإنساني الأقصى بلا ريب. وهذه الحقائق باختصار هي:
أولاً: وجود الترابط المنطقي الطبيعي بين نظرة الفرد والأمة إلى الكون والحياة والإنسان،
 وبين نوع الايديولوجيا العملية التي تحكم سلوكه وسلوكها. أمّا محاولات إنكار هذا الترابط
 فما هي إلا شبهات لا غير.

ثانياً: أن القرآن الكريم إذ يصور مستقبل الإنسان، فإنه يعمل على أن يحققه الإنسان بإرادته وفكره
 لا عن كراهة وانغمار في موجة الجبر التاريخي، بل إننا باعتباره المصير الطبيعي للمسيرة الفطرية.
ثالثاً: أن تصور المستقبل الإنساني الأكمل والإنشاد إليه بفعل وجود الميول الطبيعية
 الفطرية للكمال والمعرفة لهما أثرهما المهم في إندفاع الإنسان نحو تحقيقه... إن الساحة
 التاريخية الإنسانية هي الساحة الوحيدة التي يؤثر فيها التنبؤ العلمي بالحادثة والظاهرة
 المستقبلية في تحقيق هذه الظاهرة نفسها. وأخيراً يجب أن نلاحظ أن قضية المستقبل الإنساني
 ليست مما يختص به إنسان أو يتخصّص له آخر، بل الحديث عنها حديث للجميع.

فالقرآن على هذا لا يصادر إبداع الإنسان بل يفجره في مجال صنع هذا المستقبل وعبر
 إعطائه النظرة الكونية الشاملة بما فيها صورته عن المستقبل، وعبر دفعه لصنعه بكل اختيار
 وإرادة مؤثراً بتنبؤه على سير الإنسان نحوه.

والكلمة الثانية: تدور حول بعض التصورات الإنسانية لمستقبل الإنسانية نفسها، ولكن
 قبل عرض هذا البعض نودّ أن نوّكد على أنّها لا تعدو كونها تنبؤات وأحلاماً لا كاشف علمياً
 لها، بل قد لا يستطيع الدليل العلمي بمعناه الدقيق المصطلح (أي الدليل التجريبي) أن يكشف
 لنا عن مثل هذا القانون والقوانين التي ترسم لنا المستقبل بوضوح. أمّا القرآن الكريم فباعتباره
 كلام خالق الكون والحاضر لديه كل المخلوقات والقوانين ﴿وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ
 ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^١.

القرآن يمتلك مطلق الحقّ في الحديث عن ذلك، ولك أن تتابع الأدلة التي تسوقها
 الرأسمالية والماركسية لتصورها المستقبلي ليتوضّح لديك ما قلناه بالفعل، وعلى أي فإنّ
 الرأسمالية عندما اشتدتّ صورتها تصورت اللجنة الإنسانية الموعودة في مجتمع تسوده الحريات

١. سورة يونس: ٦١.

الفردية الكاملة، سواء السياسية منها أو الاقتصادية أو الشخصية أو الفكرية، وبنيت ذلك على أساس من التصور الأوماني للمجتمع والأيدولوجية الليبرالية - وهي الأساس الفكري لكل الرأسمالية - مدعية أنها بذلك قد أشبعت طموحات الإنسان بهذا التصور، وأن الإنسانية لا بد سائرة نحو بناء مجتمع الجئة الرأسمالية.

ولكن الواقع كدّب هذا التصور أيما تكذيب، وكشف عن عقبات كثيرة أمامه، ونتائج فظيعة له، الأمر الذي دفع الكثير من المجتمعات للارتقاء في أحضان النظام المقابل للرأسمالية وهو النظام الاشتراكي الماركسي لاحقاً فيه - في كثير من الأحيان - بل تخلصاً من الرأسمالية وويلاتها. أما التصور الماركسي للمستقبل فهو أبعد خيالاً؛ إذ يصور القمة العليا للمجتمع الإنساني في شكل مجتمع تبنى فيه أكثر الغرائز الإنسانية أصالةً (وهي غريزة حب الذات). وحينئذ فلا داعي للدولة ولا داعي لتوابعها بل الناس يتحركون بشكل طبيعي نحو المصلحة الاجتماعية دون أن يفكروا بالمصلحة الشخصية أو يعرفوا لها معنى في قاموسهم النفسي. ولكن قبل الوصول إلى هذا المجتمع يجب أن تمر البشرية بمرحلة ستار حديدي تذوب فيه الحريات، وتقتلع فيه من النفوس كل الرواسب الرأسمالية. ويكفي في ردّ هذا التصور أنه يستبطن مخالفة لأعمق أصالة فطرية في الإنسان، وأن الواقع الإنساني الذي نعيشه أو ندرسه يوضح بطلان هذا التصور، وأنه لا يملك أي دليل علمي يثبتته. ذلك أن أساسه قائم على نظرية المادية التاريخية وهي نظرية أوهتها حتى مقاييسها هي، فالتجربة أثبتت البطلان، والتاريخ يكذب هذه القولية الاقتصادية، إضافة إلى الأدلة الفلسفية القاطعة على بطلان المذهب المادي نفسه عموماً.

القرآن والمستقبل

بعد هذا، فلنعرف تصور القرآن عن المستقبل الإنساني عبر قراءة الآيات الشريفة التي تشير إلى هذا المستقبل ومنها الآية الشريفة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^١.

والآية الشريفة: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ١. وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ١. فالآية وإن كانت تتحدث عن حادثة تاريخية لكنها بملاحظة قرينة لحنها والروايات الواردة فيها تعطي حقيقة عامة.

والآية الشريفة: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٢. وعبر الجمع بين الآية القرآنية الشريفة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ٣. وآيات انتصار الدين على غيره وهي توحى بشيء من الصورة المستقبلية للقرآن بالإضافة إلى تصديها لبيان هدف الرسالة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ٤. و﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ٥. ومنها الآية الشريفة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ٦.

ومن خلال آيات أخرى ترتبط بهذا المجال نعرف أن الصورة المستقبلية القرآنية يمكن تلخيصها بما يلي:

قيام الحكومة العالمية الواحدة التي يقودها المؤمنون الصالحون الذين مكن الله لهم دينهم في الأرض، وانتشرت راياته على ربوعها، والذين ينطلقون في بناء المجتمع العابد الموحد الذي لا يلوته شرك أو كفر أو طاغوت أو خوف ذلك المجتمع الذي يسوده عدل الإسلام، وتغمره بركات الله تعالى، المجتمع الفطري السائر في سبيله الطبيعي، الكادح إلى ربه كدحاً، وعبر قيمومة الدين وهداية الوحي.

١. سورة القصص: ٥-٦.

٢. سورة الأعراف: ١٣٨.

٣. سورة الأعراف: ١٥٨.

٤. سورة التوبة: ٣٣، والصف: ٩.

٥. سورة الفتح: ٢٨.

٦. سورة الروم: ٣٠.

فالأرض كلها حكم واحد يقوده الصالحون، والدين فيه هو القيم، والفطرة فيه هي المتجلية، والمعايير هي معايير دين الفطرة، والعبادة لله هي أجل مظاهر الفطرة، والتنافس في السير إلى الله تعالى يدفع الركب حثيثاً نحو مراقبي الكمال.

ومن الطبيعي بعد هذا أن يكون الرخاء المادي في أقصاه؛ لأنَّ سبب المشكلة الاقتصادية في تصور القرآن هو الظلم في التوزيع، وكفران النعمة في الإنتاج، وإذ ينتفيان تنهل نعم الله. يقول تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^١.

هذه هي خلاصة الصورة التي يقدمها القرآن عن المستقبل العام، ثم يعمل على تركيزها في التصور بأساليب مختلفة. ومن المناسب هنا أن نشير إلى الأحاديث الكثيرة الواردة في الإمام المهدي عليه السلام ودولته، وأنه سيحكم الأرض ويغمرها عدلاً ويظهرها من الظلم والجور والفتك، ويحقق مضمون الآيات الكريمة حيث يكون الدين كله لله، فيتحكَّم الإسلام في كل مرافق الحياة.

أساليب القرآن في تأكيد هذه الصورة المستقبلية

والواقع أنَّ هذه الأساليب كثيرة وينبغي أن ندرك مغزاها بعد أن نأخذ بعين الاعتبار ما قلناه من الجوانب الإجمالية للصورة المستقبلية ومنها الموارد التالية:

أولاً: التركيز القرآني على لزوم أن تؤدي المسيرة الإنسانية ثمارها، وأنها لم تخلق عبثاً وباطلاً، وأنَّ هدف الخلق لا بدَّ متحقق، وهو العبادة والعبودية الشاملة - وهي ناظرة إلى الدنيا قبل الآخرة - وأنَّ الأصلح هو الباقي في الأرض، يقول تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾^٢ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿٣﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٤﴾

١. سورة إبراهيم: ٣٤.

٢. سورة الأنبياء: ١٥-١٩.

والظاهر أنّها تتحدّث عن فناء الباطل في هذه الدنيا فتذكر احدى السنن التاريخية وكيف أنّ الإنحراف يؤول إلى الفناء في النهاية، وأنّ الهدف الإلهي، سيتحقق في الأرض. وهناك آيات أخر تؤكّد هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^١.

ثانياً: التأكيد القرآني على إعطاء المجتمع الإنساني والأمم حياة لها كل خصائص الحياة الإنسانية، فلها أجل وكتاب واضمحلال، ولها سنن تسلك بها إلى التكامل، على أنّ الفطرة هي العامل المشترك بين أفراد الإنسان.

وبالتالي فهي العامل الذي يترك أكبر الأثر في المسيرة والذي لا يحذف بتاتاً من حياة الإنسان - رغم محاولات تشويهه وإخفائه ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^٢. كل ذلك بشكل لا يفقد معه الإنسان إرادته كما يفقدها أمام القوانين الطبيعية، وإنّما تشكّل هذه السنن أرضية مساعدة لإتجاه الإرادة الإنسانية نحو صنع المستقبل الأفضل، أو فلنعبّر بأنّ الإرادة الإنسانية تحفّز نحو تحقيق موضوع القانون التاريخي الذي يصنع الأفضل (ذلك بأن الله لا يغيّر ما يقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) فيإرادة الناس يبدأ التغيير المطلوب.

ثالثاً: يؤكّد القرآن على وحدة المسيرة الإنسانية ووحدة المسؤولية التاريخية ووحدة الخلافة الإنسانية، ووحدة الشريعة الالهية، ووحدة المسيرة النبوية باعتبارها خطّ الشهادة على المسيرة الإنسانية.

والآيات التالية تركّز ما قلناه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^٣.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾^٤.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾

١. سورة الرعد: ١٧.

٢. سورة الروم: ٣٠.

٣. سورة البقرة: ٣٠.

٤. سورة الأنعام: ١٦٥.

وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١﴾ .
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ٢ .
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ ٣ .
وروى الترمذي أنه عليه السلام قال: إنما مثلي ومثل الأنبياء قبلي كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة؟
رابعا: يؤكد القرآن الكريم أن الكون بُني على الحق والعدل والهدفية الدقيقة، وأن أي حركة باتجاه الحق والعدل ستحظى بمعونة تكوينية - قد لا نعلم نحن تأثيرها - ولكنها على أي حال حقيقة قرآنية كاملة.

فالكون كله يسبح الله، وإذا سبَّح الإنسان والمجتمع وعبدا الله فقد انسجما مع الكون، والكون يقوم على ميزان عادل، فينبغي للإنسان أن لا يطغى في الميزان، بل ينسجم مع الكون. وهكذا يوالي القرآن في آيات متفرقة تأكيد حقيقة الإنسجام حتى يشعر المسلم بأنه إذ يكبر يسمع تكبير الكون معه، وهذا ما تؤكده بعض الروايات. ومن هذا الباب الآيات التي تربط بين الأمور المعنوية والظواهر المادية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ٥ .

وكذا القانون الذي ذكره الله تعالى للمسيرة الإنسانية عند بدئها ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ٦ . ومن الواضح أن هذا الربط يعني أن المنتصر في الأرض هو العدل والحق في النهاية.

١ . سورة الأحزاب: ٧٢ .

٢ . سورة الشورى: ١٣ .

٣ . سورة المائدة: ٤٥ .

٤ . سنن الترمذي ٥: ١٤٧ .

٥ . سورة الأعراف: ٩٦ .

٦ . سورة طه: ١٢٤ .

كما يمكننا أن نعدّ من ذلك الآيات التي تؤكد حبّ الله للمحسنين، والتوّابين والمتطهّرين والمتّقين والصّابرين، والمتوكّلين، والمقسطين، و﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾^١ وغيرهم، وذلك إذا لاحظنا أنّ الحبّ هنا لا يمتلك بعداً عاطفياً بقدر ما يعبر عن فيض إلهي ورحمة بهؤلاء، وهي تنعكس في الدنيا نصراً على أعدائهم وتحكياً لهم ولدعوتهم بلا ريب، وفي الآخرة جنة وحريراً.

كما أن القرآن الكريم يؤكد على عنصر الإمداد الغيبي للرعيل المؤمن العامل في سبيل الله، وهذا ما نلاحظه في كثير من الآيات الشريفة ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^٢.
و﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^٣.
و﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^٤.

خامساً: تأكيد القرآن الكريم على أنّ الأنظمة الوضعية البشرية صائرة إلى الفشل حتماً، وأنها مهما بدت عميقة الجذور، قوّيتها؛ فستنتهي إلى الفناء حتماً. ذلك أنها - في تصوّر القرآن - غير منسجمة مع المسيرة الكونية من جهة، وتحمل في وجودها عناصر فنائها؛ باعتبار أنّ التماسك الحقيقي داخل أي نظام لا يمكن أن يتمّ إلاّ عبر عقيدة واقعية حيّة لا غير. أمّا التماسك الوطني والقومي والمصلحي والجنسي والعقائدي المادي فما هو إلاّ عاملٌ وقتي - لا يمتلك إلاّ جذوراً عاطفيّة أو وهميّة - لبس لبوس الواقع وسرعان ما تكشف الفطرة خداعه وزيفه. ومن جهة ثالثة، فإنّ الولاء العقائدي الحقيقي هو الذي يضمن لوحده وحدة الهدف حقيقة، وينفي تعدّد الولاءات أو ما يعبر عنه بالشرك في الولاء فلا إله إلاّ الله، ولا مقياس إلاّ رضاه، وهذا ما تفقده الأنظمة الوضعية بكل وضوح.

١. سورة الصف: ٤.

٢. سورة العنكبوت: ٦٩.

٣. سورة غافر: ٥١.

٤. سورة آل عمران: ١٢٥.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^١.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٢.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^٣.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٤.

وفي سياق استعجال الناس أيام الرسول للعذاب الذي أصاب المكذبين من قبل تقول الآية الكريمة:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^٥.

كما يستفاد منها أنها ناظرة إلى عذاب الدنيا والهلاك الحضاري فيها.

وهنا أساليب أخرى يسلكها القرآن لتأكيد إيمان المسلم بالنصر النهائي وذلك بملاحظة الإخبار الإلهي الحق بأن النتيجة الحتمية لتطبيق الإسلام بكل عناصره في أي مجتمع هي دفعه إلى الامام، وجعله الأعلى في الأرض، وضمان انتصاره على باقي النظم، فإذا انضم إلى هذا إيمان المسلم بلزوم تحقيق الوعد الإلهي عبر علمه الحضوري بالمستقبل، وقدرته المطلقة على تحقيق مشيئته البالغة.

بعد هذا لا يبقى مجال للتشكيك في إيمان الفرد والمجتمع المسلم بضرورة حصول تلك

الصور القرآنية المستقبلية.

١ . سورة يونس: ٦٦.

٢ . سورة الزمر: ٢٩.

٣ . سورة النور: ٣٩.

٤ . سورة العنكبوت: ٤١.

٥ . سورة الحج: ٤٧.

ولكن يبقى في علمه حقيقة أن تحقق هذه الصورة يحتاج إلى تهيئة واستعداد ومقدمات، ولا يتم إلا عبر جهود مضمّنة تغيّر بها الأمة ما بأنفسها ليغيّر الله ما بها، ويتحقق الأمل الكبير واليوم الموعود.

وسائل تحقيق الصورة القرآنية عن المستقبل الإنساني

بعد أن عرفنا وسائل التركيز القرآني للصورة المستقبلية، ينبغي أن نستعرض بإجمال شديد - يناسب المقام - الوسائل التي يسلكها القرآن للتحريض والتحرك نحو تجسيد هذه الصورة وتحقيق مقدماتها الضرورية وذلك على النحو التالي:

أولاً: يعمل القرآن - كما رأينا قبل قليل - على تركيز هذه الصورة في الأذهان وتوضيحها، والتركيز أسلوب مقدّم للتحقيق، فالتاريخ هو الحقل الذي يؤثر فيه التنبؤ العلمي في تحقيق النتائج كما قلنا من قبل.

ثانياً: يطلب القرآن الكريم من الطليعة الإنسانية - ومن ثم الجميع - أن يعملوا على تحقيق التغيير الداخلي، وتنفيذ عملية الجهاد النفسي الأكبر؛ بالتأمل في أبعاد النفس ومعرفة عناصرها وميولها وكواشفها الفطرية، وتقوية جانبها المسيطر على مجمل التحرك، وهو جانب الفكر والإرادة، وإطلاق الصرخة الوجدانية، وبالتالي إيجاد الاستعداد لتقبّل المدد الإلهي، وتحقيق موضوع الوعود الإلهية بالنصر. ونعني به (الصبر والتقوى) وإنزال الإسلام إلى واقع التطبيق. وإذا كان تعبير الجهاد الأكبر ينصرف إلى تطهير الفرد نفسه؛ فإنه يمكن أن يأتي بنفس المستوى على صعيد الأمة نفسها، إذ عليها أن ترجع إلى نفسها لتعرف مكوناتها، وتدرك نقاط ضعفها وقوتها، ومن ثم تعمل على استرجاع خصائصها التي أرادها الإسلام لها بعد أن تنفي مظاهر الشرك والطاغوت من حياتها.

وخلاصة الأمر أن القرآن يؤكد أن الإسلام وحده هو سبيل تحقيق الصورة المستقبلية الأمثل، وأن البشرية إذا أرادت لنفسها أن تحيا بعد الموت فليس أمامها إلا سبيل الإسلام لا غير.

والحقيقة هي أن الإسلام والقرآن يعملان على إعادة الحياة إلى الحالة الطبيعية لتستكمل مسيرتها التكاملية، وهذه الحالة تتطلب عودة العقلانية والجوار المنطقي، وهو ما لا يريده

أعداء البشرية، ومن هنا نجد التأكيد القرآني على عنصر التعقُّل وضرورة الالتزام بشروط الحوار . كما نجد التأكيد القرآني الشديد على العدالة واعطاء كل ذي حقَّ حقه باعتبار ذلك من مقومات السير الاجتماعي الطبيعي المتكامل .
فإذا توفرت هذه الأمور ضمنا تحقّق المستقبل الإنساني المطلوب قرآنيًا، وتحقّق الوعد الإلهي للمؤمنين بوراثة الأرض وكون الدين كله لله .

النموذج الخامس: الحوار منطقي الانسان

إذا كان الإسلام قد سمح بالاجتهاد واعتمد العقل والبرهان سبيلاً منطقياً للإقناع، فمن الطبيعي أن يجذب الحوار ويدعو إليه على كل الأصعدة، وهي من قبيل:

- أ- الحوار بين المسلمين المختلفين في الشؤون الشخصية.
- ب- الحوار بين المختلفين في القضايا الاجتماعية.
- ج- الحوار بين الفقهاء.
- د- الحوار العقائدي.
- هـ- الحوار بين الأديان.
- و- الحوار بين الحضارات.

وفي كل هذه الأنماط نجد النصوص الإسلامية تركّز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدّث علماءنا القدامى عن آداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكره جميعاً في منطقة الشروط الضرورية، لأنّها جميعاً إن لم تتوفر عرّضت النتائج لخطر التمويه. وما نريد التحدّث عنه من الشروط المهمة هو ما يلي:

أولاً: تحرير محل الحوار أو امتلاك البصيرة في الحوار

وهو أول شرط وأهمه، فإن الحوار قد يكون مضيعة للوقت. إذ يتبين للمتحاورين بعد فترة طويلة أنّها كانا يركّزان حديثهما على محورين مختلفين، أو وجهتين متفاوتين، ولذا كان

ديدن علمائنا البدء بتحرير محل النزاع وتشخيص أبعاده ليكون الاستدلال منتجاً، وهذا شرط منطقي لا نحتاج للاستدلال عليه^١. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٢.

ثانياً: الموضوعية:

ونعني بها الدخول إلى مرحلة الحوار بعد التخلي مؤقتاً عن كل القناعات السابقة والسعي لطلب الحق أينما كان. وهذا هو القرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم، وهو القمة في الايمان واليقين، بان يدخل في الحوار بروح موضوعية هادفة ليقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٣. ويقول تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٤. وهو أمر أكده السابقون من علماء الأخلاق وغيرهم. يقول صاحب (المحجة البيضاء في إحياء الاحياء) عند التحدث عن شروط المناظرة:

«الأول: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فإن ذلك مرء منهى عنه بالنهي الأكيد. ويضيف «أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكراً متى وجدها ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو يد غيره فيرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق»^٥. ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^٦. ومما يذكر بهذا الصدد أن الخوارج احتجوا على الإمام علي عليه السلام بأنه شك في صلاحيته للخلافة بقوله للحكمين: «انظرا فإن كان معاوية أحق بها فاثبتاه وإن كنت أولى بها فاثبتاني

١. راجع الكافية للجويني: ٥٤٠، وقاموس الشريعة للسعدي ٣: ٦.

٢. سورة يونس: ١٠٨.

٣. سورة سبأ: ٢٤.

٤. سورة القصص: ٤٩.

٥. المحجة البيضاء في شرح الأحياء للغزالي: ١: ٩٩-١٠٠ والغزالي في احياء العلوم: ١: ٤٣.

فأجابهم بأن ذلك لم يكن شكاً منه ولكنه أنصف في القول وذكر هذه الآية ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ ...﴾ ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيّه على الحق^١.

ثالثاً: الانسجام بين مؤهلات أطراف الحوار والموضوع نفسه:

فلا معنى للحوار حول موضوع لا تعلمه الأطراف أو لا يعلمه احدهم أو لا يتخصّص فيه إن كان ممّا يحتاج للتخصص.

يقول تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^٢.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^٣. وهنا يقول أحد العلماء:

«الثامن: أن يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق»^٤.

ومن هنا فنحن نعتقد أنّ طرح الاستدلالات العلمية الدقيقة في المجامع العامة مع اختلاف مستويات الحاضرين أمر يجانب شروط الحوار.

رابعاً: الانطلاق من المبادئ المتفق عليها:

إنّ الحوار لن ينتج مطلقاً إذا لم تكن هناك مبادئ متفق عليها مسبقاً، وفرضيات مسلّمة يرجع إليها المتحاوران. ومن هنا ردّ الجميع عنصر المصادرة على المطلوب واعتبروه أسلوباً مخاتلاً... ولا سبيل هنا إلاّ التنبيه على بعض القضايا الوجدانية، ومن هنا نجد القرآن الكريم يردّ على أولئك المنكرين للبداهات بتنبههم لخطأ ما يعتقدون وإيقافهم أمام تساؤلات فطرية؛ إذ يقول تعالى لأولئك المقلدين لأبائهم (دوننا منطق):

١. الاحتجاج: ٤٤٤ - طبعة قم.

٢. سورة الأنعام: ٦٦.

٣. سورة غافر: ٥٦.

٤. المحجة البيضاء: ١: ١٠١.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^١.

ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾^٢ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^٣.

فإن هؤلاء قوم لا يؤمنون بشيء مشترك مع المحاور المسلم، وما عليه إلا أن ينبههم على بعض المشتركات الفكرية من قبيل:

«إن المجانين لا يتبعون فإذا افترضنا أن آباءهم مجانين فهم لا يتبعون؛ اذن عليهم التحقيق». أو «إن الأفضل والأهدى هو المتبع فيجب التأكد من الأهدى».

خامساً: المنطقية

بحيث يسير البحث بشكل منطقي وتؤدي المقدمات إلى النتائج بشكل طبيعي، وذلك دونما تحايل أو ماطلة أو جدال عقيم، والنصوص التي تنهى عن الجدل والمراء كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^٤. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^٥. في حين يدعو للبرهنة المنطقية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾^٥.

وقد رأينا العلماء يردون التحايل على الطرف الآخر ويذكرون لذلك أمثلة من قبيل:
أ - إبهام العبارة حتى لا يفهمها الطرف.
ب - الاحتيال عليه حتى يخرج من محل تساؤله.

١ . سورة البقرة: ١٧٠.

٢ . سورة الزخرف: ٥٨.

٣ . سورة الزخرف: ٥٨.

٤ . سورة الكهف: ٥٤.

٥ . سورة النمل: ٦٤.

ج - توجيه كلام السائل إلى وجوه محتملة^١.
بل تحدثوا عن الصفات التي قد يبتلى بها المتحاوران نتيجة عدم القدرة على امتلاك الموقف من قبيل الحقد والحسد والفرح بمساءة الآخرين، والاستكبار عن الحق، والرياء، ولزوم نفيها لكي تعود إلى المحاور شخصيته الطبيعية التي تحقق منطقيته في الحوار.

سادساً: الابتعاد عن جو التهويل أو ما يسمى بتأثير العقل الجمعي

ففي مثل هذا الجو يفقد الحوار جوّه المطلوب، ولا معنى فيه للاستدلال المنطقي الهادئ الحكيم. ومن خير الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من جو انفعالي واجه المشركون به النبي ﷺ، واتهموه بالجنون، ولذلك طلب من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل والعودة إلى الهدوء المطلوب ثم التفكير بما يتهمونه به، يقول تعالى:
﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾^٢.

سابعاً: أن يكون الحوار مما يترك أثراً عملياً أو فكرياً:

فلا معنى للحوار حول افتراضات تجانب الواقع. ولا معنى للسؤالات غير المفيدة أو التي لا يمكن الإجابة عليها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^٣.
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾﴾^٤.
فينبغي أن يتم الاهتمام بالقضايا العملية ﴿فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ﴾^٥.

يقول الغزالي: «الرابع: أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من الوقوع وأن يهتم بمثل ذلك»^٦.

١. راجع الجويني في الكافية: ٥٤٢ - ٥٤٩.

٢. سورة سبأ: ٤٦.

٣. سورة الإسراء: ٨٥.

٤. سورة النازعات: ٤٢.

٥. سورة الرعد: ١٧.

٦. المحجة البيضاء: ١: ١٠٠.

ثامناً: الاتجاه في الحوار للوصول إلى المساحات المشتركة وتوسيع هذه المساحات:

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^١.

تاسعاً: احترام الرأي والطرف الآخر والدقة حتى في التعبير:

يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٢.

عاشراً: إتباع أحسن أسلوب:

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^٣.
﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٤.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^٥.

١ . سورة آل عمران: ٦٤ .

٢ . سورة سبأ: ٢٥ .

٣ . سورة النحل: ١٢٥ .

٤ . سورة الإسراء: ٥٣ .

٥ . سورة العنكبوت: ٤٦ .

النموذج السادس: حقوق الإنسان في الاسلام

قد لا نجد من الضروري التحدُّث بالتفصيل عن مناشيء الحق في تصوّرات الإسلام، ولكن نودّ أن نشير إلى أنّ الحق في اللغة هو الثبوت؛ ولذا يطلق على الباري (جلّ و علا) فيقال: إنّه تعالى هو (الحق المطلق)، ويطلق كذلك على الخبر المطابق للواقع الخارجي. وعلى هذا الأساس نجد القرآن يؤكّد على أنّ الكون قائم على الحق ومخلوق بالحق.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾^١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾^٢.

وعلى هذا النسق يطرح مفهوم اعتباري، وثبوت ذهني لتنظيم العلاقات الاجتماعية ويمكن أن نقول هنا: إنّ الحق إنّما ينشأ من حالة واقعية ثم يضاف إليه اعتبار عرفي أو عقلائي. وهنا نشير إلى أنّ نظام الحقوق في الإسلام يقوم على أساس من واقعية الإسلام، أي رؤية الإسلام لواقع الإنسان وفطرته وأهداف خلقته، وعلاقاته بالآخرين والطبيعة. ومن هنا فإنّ الرؤية كلها تركّز على الإنسان نفسه ولا معنى لتصوّر هذه الحقوق خارج النطاق الإنساني، ولا نقصد من هذا أنّه لا حق لغير الإنسان وإنّما نقصد أنّ أحد الطرفين في الحق هو (الإنسان) فإذا حذفناه من المعادلة لم يعد هناك مجال للحديث عن الحقوق.

١ . سورة الأنعام: ٧٣.

٢ . سورة إبراهيم: ١٩.

نستنتج مما سبق: أن للحق لا زمين:

الأول: من له الحق، ولا يشترط أن يكون عاقلاً أو مريداً أو أن يكون قادراً على استيفاء الحق.
الثاني: من عليه الحق، وهنا يشترط الحرية في الإرادة والتعقل والذي نركّز عليه هو الثاني، وهو من نعبر عنه في ثقافتنا الإسلامية بـ (المكلف)؛ فإن المكلفين إذا قاموا بواجباتهم وتكاليهم فإنهم يوفرون للآخرين حقوقهم.

الحقوق المتشابهة:

إذا لا حظنا أنّ الحياة هي مجموعة علاقات متشابهة، واحتياجات متقابلة فمن الطبيعي أن نتصور التشابك في الحقوق، فإذا أضفنا إلى هذا الأمر حقيقة أنّ التخطيط الإسلامي لتنظيم الحياة هو تخطيط منسجم ومتربط بحيث لا يمكن لأي جانب أن يحقق هدفه إلا في إطار تطبيق الجوانب الأخرى، تأكّدنا من عملية التشابك في الحقوق... حتى ليكاد المرء لا يميز بين الحقوق الفردية والاجتماعية.

وهنا نذكر بالمقولة القرآنية التي تعلن أنّه: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^١. لتؤكد على أنّ القرآن الكريم ذكر كل هذه الحقوق وركّز عليها وطلب الالتزام بها إلى الحد الذي يعدّ معه من لا يقوم ببعضها مكذباً بأصل الدين ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿﴾ فذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿﴾^٢.
 ومن هنا فنحن لن نستطيع استقراء كل الحقوق الفردية والاجتماعية التي ذكرها القرآن فنقتصر على الإشارة لبعض الأنواع من هذه الحقوق مع ذكر بعض المقاطع القرآنية الشريفة التي تطرحها تاركين الدراسة الشاملة لمجالات أوسع.

وبمقتضى تحديدها السابق لمن عليهم الحق نجد هنا المحاور التالية:

الفرد؛ باعتباره جزءاً من المجتمع، وباعتباره حاكماً على المجتمع.

المجتمع؛ باعتباره يمتلك شخصية اجتماعية تختلف عن الشخصيات الفردية التي تكوّنه.

١. سورة الأنعام: ٣٨.

٢. سورة الماعون: ١-٣.

اما إذا لا حظنا جانب من لهم الحق أو الطرف الآخر في الحق، فإننا نجد المساحة تتسع جداً وتشعب كثيراً بدءاً من الحقيقة المطلقة والوجود الواجب أي الله تعالى فحقوقه هي الأصل، لأنه تعالى هو الحق وما عداه هي وجودات تعلقية تستمد وجودها منه تعالى، فهو المنعم المفضل ذو الجلال والإكرام.

ومروراً بكل المخلوقات (الملائكة، الرسل، القرآن، التاريخ، الزمان، المكان، الطبيعة...) ومنها المخلوقات الإنسانية أفراداً ومجتمعات.

وانتهاء بالنفس الإنسانية فحتى النفس لها حقوقها على الفرد نفسه، ومعنى هذا أن شعب الحقوق متكثرة ومن الصعب حصرها، فكلما تغير طرف الحق تغير الحق نفسه.

وعليه فأهم المجالات يمكن تصوورها على النحو التالي:

حق الله تعالى على الفرد - بكلا الاعتبارين.

حق الله تعالى على المجتمع وما يتبع ذلك من حقوق الرسل والرسول ﷺ والقرآن الكريم وغير ذلك.

حق الفرد على المجتمع.

حق المجتمع على الفرد.

حق المسلم على المسلم.

حق النفس على الفرد.

حق الطبيعة على الفرد، وحق الطبيعة على المجتمع.

وهناك حقوق تبعية أخرى من قبيل (حق التاريخ، حق الزمان، حق المكان...) وسنعمل

على الإشارة لبعض مواقعها في القرآن الكريم:

١ - حق الله تعالى على الفرد باعتباره إنساناً مكلفاً. والحقيقة هي أننا لا نستطيع أن نحدّد

إطار هذا الحق إلا إذا لاحظنا:

أ- العظمة الإلهية؛ باعتباره تعالى الوجود الحق المطلق المنان.

ب- الضعف الإنساني الذي لا يمكن أن يوصف لفرطه.

ج- النعمة الإلهية الغامرة على الإنسان.

من هنا فلا نملك إلا أن نعبر عنه بـ(حق العبودية). وأسمى صفه يمنحها القرآن الكريم لأفضل البشرية هي (العبودية).

- ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^١.
 ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^٢.
 ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^٣.
 ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^٤.
 ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^٥.
 ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^٦.
 ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾^٧.

وإن هذا الحق يستلزم الطاعة التامة لا في ما يطمئن إليه الإنسان من أوامر الله تعالى فحسب بل حتى فيما يحتمله احتمالاً.

ومن هنا رأى المرحوم الشهيد الصدر أن ما يسمى في علم الأصول (بالبراءة العقلية) أمر غير صحيح ولا يمكن التمسك بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان) العقلية لأن حق العبودية لله حق واسع جداً فمجرد احتمال إرادة الله لشيء تكفي للدفع نحو تنفيذه فإذا أردنا التمسك بالبراءة في مورد شك في إلزام المولى سبحانه به، كان علينا النظر في الأدلة الشرعية فقط وهذه الأدلة بدورها تثبت لنا (براءة شرعية) حين الشك ولا مجال هنا للتفصيل^٨.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾^٩.

١ . سورة مريم: ٩٣.

٢ . سورة الفرقان: ٦٣.

٣ . سورة فاطر: ٣٢.

٤ . سورة ص: ٤٥.

٥ . سورة فاطر: ٢٨.

٦ . سورة الأنبياء: ١٠٥.

٧ . سورة النساء: ١٧٢.

٨ . انظر: دروس في علم الاصول ١: ١٦٥-١٦٧ و٣٤٨-٣٦٢ و٣: ٢٨ فما بعدها.

٩ . سورة مريم: ٦٥.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^١.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^٢.

ويستتبع هذا الحق العميم جو عاطفي هو الحب الإلهي والذوبان في الله تعالى بشكل ينسي الإنسان كل ملاذه في قبال هذا الحب حتى لتعود كل الأمور الأخرى عذاباً للنفس الإنسانية وحجاباً مانعاً عن رؤيته تعالى بعين القلب والحقيقة.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٣.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^٤.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^٥.

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في رسالته إلى بعض أصحابه:

«اعلم أن لله عز وجل عليك حقوقاً محيطية بك في كل حركة تحرّكتها أو سكنة سكتتها أو حال حللتها أو منزلة نزلتها أو جارحة قلبتها أو آلة تصرّفت فيها، فأكبر حقوق الله تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقه الذي هو أصل الحقوق».

ويضيف بعد ذلك: «فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبدته لا تشرك به شيئاً فإذا فعلت

بالإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة»^٦.

وهكذا تنتج العبودية طاعته في أوامر دينه ويتكفل الدين التخطيط المناسب لسعادة

الدنيا والآخرة.

١ . سورة طه: ١٤.

٢ . سورة مريم: ٣٦.

٣ . سورة المائدة: ٥٤.

٤ . سورة البقرة: ١٦٥.

٥ . سورة التوبة: ٢٤.

٦ . رسالة الحقوق - من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤: ٥١٢.

وينبغي أن نشير هنا إلى مسألة مهمة وهي أن المذاهب قد اختلفت في أصل الحقوق هل هو إنسانية الإنسان أم هو القانون أم هو العرف، أم هو العقل؟! والذي نعتقده على ضوء تعاليم القرآن هو أن كل شيء اعتباري جعلي يجب أن يعود إلى الوجود الحقيقي الفطري الأصيل، والحقوق الاعتبارية يجب أن ترجع إلى مقياس ومعياري، ونحن لا نتصور أماننا طريقاً لمعرفة أساس الحقوق سوى الوجدان باعتباره الحقيقة الواضحة والمشاركة لدى افراد الإنسان جميعاً، وليس هناك غير الفطرة منطلقاً للمعرفة الإنسانية، وهذه الفطرة هي التي تقود إلى الله تعالى ووجوده المطلق وحقه الذي هو أصل الحقوق، فإذا أوصلت الإنسان إلى الله تعالى، وضع الإنسان يده على مفتاح الحقوق الإنسانية باعتباره سوف يؤمن بالوجود والوحدانية والطف الإلهي والقدرة الإلهية والعلم الإلهي وبالتالي سوف يؤمن بأن الدين الثابت عن هذا الوجود الرحيم العالم القادر هو الذي سيوضح له الحقوق بالتفصيل.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^١.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^٢.

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^٣.

ونعود فنؤكد على دور الفطرة ونضيف إلى ذلك القول بأن المذاهب التي تنكر الفطرة كالمذاهب المادية لا تستطيع أن تصل إلى أساس حقيقي للحقوق وبالتالي فلن تستطيع أن تحقق معياراً إنسانياً مقبولاً في هذا الصدد.

وينتهي الأمر بالإنسان أن يرضى بما يرضى الله وأن لا يجب إلا في الله، قال الله تعالى:

﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^٤.

١ . سورة الزخرف: ٩.

٢ . سورة الزخرف: ٨٧.

٣ . سورة الروم: ٣٠.

٤ . سورة المائدة: ١١٩.

- ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾^١.
- ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَثِيَ رَبُّهُ﴾^٢.
- ومن هذا الحق تنطلق باقي الحقوق، وتتفرع الواجبات.
- ﴿وَقَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^٣.

حق الدين

- فالدين الحق يجب أن يتبع لآفته مظهر الإرادة الإلهية، ومجمع الأوامر المقدسة التي انشأها الله تعالى لسعادة الإنسان وخيره.
- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾^٤.
- ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾^٥.

حق الأنبياء

- باعتبارهم حملة الأوامر الإلهية وأفضل المقربين إلى الله فيجب الإيمان بهم واحترامهم والعمل بما جاؤوا به (في إطاره المرسوم له) ومحبتهم.
- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^٦.
- ويصف بعض الأنبياء بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^٧.

١ . سورة المجادلة: ٢٢.

٢ . سورة البينة: ٨.

٣ . سورة النمل: ١٩.

٤ . سورة الزمر: ٣.

٥ . سورة الشورى: ١٣.

٦ . سورة البقرة: ٤.

٧ . سورة الأنعام: ٩٠.

حق الرسول ﷺ

باعتباره خاتم الرسل وسيد الأنبياء وأفضل البشرية جميعاً، وباعتباره المضحي في سبيل الإنسانية فله من الحقوق ما لا يحصى وله من المحبة ما لا يحده، والقرآن الكريم يؤكد على ذلك.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾^١.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^٣.

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^٤.

حق القرآن

وهنا لن نستطيع أن نتحدث عن فضله وعظمته وإنما نكتفي بمقولة لأمير المؤمنين عليه السلام عنه.

«ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ نُورًا لَا تَطْفَأُ مَصَابِيحُهُ وَسِرًا جَاءَ لَا يَجْبُو تَوَقُّدُهُ وَبِحَرًّا لَا يُدْرِكُ فَعْرُهُ وَمِنْهَا جَاءَ لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ وَسُعَاعًا لَا يُظْلِمُ صَوْرُهُ وَفُرْقَانًا لَا يُجْمَدُ بَرَهَانُهُ وَتَبَيَّنَا لَا يُهْدِمُ أَرْكَانُهُ وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ وَعِزًّا لَا تُهْرَمُ أَنْصَارُهُ وَحَقًّا لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ وَبِنَابِيعِ الْعِلْمِ وَبُحُورِهِ وَرِيَاضِ الْعَدْلِ وَغُدْرَانِهِ وَأَثَابِي الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ»^٥. ومن هنا فمن الحق أن ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^٦.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^٧.

١ . سورة الفتح: ٢٩.

٢ . سورة الحجرات: ٦.

٣ . سورة الحجرات: ١.

٤ . سورة النساء: ٥٩.

٥ . نهج البلاغة: ٣١٥.

٦ . سورة الواقعة: ٧٩.

٧ . سورة الاعراف: ٢٠٤.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^١.

حق الأئمة من أهل البيت عليهم السلام

باعتبارهم عصمة الأمة وأمانها وسفينتها ونجاتها، ومرجعها العلمي والمعنوي، وأحد الثقلين الذين أوصى النبي الأمة بهما.

فمودتهم هي أجر الرسالة ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^٢.

وطاعتهم مفروضة على الأمة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^٣.

حق الصحابة المخلصين

باعتبارهم الجيل الطليعي الأول الذي جاهد لحمل هذه الرسالة وضحي في سبيل علائها، وركز دعائمها، فلهم منا بطبيعة الحال الحب والتكريم.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^٤. وهكذا يمكننا أن نعتبر باقي الحقوق الفردية والاجتماعية مجموعة أوامر قرآنية يؤدي كل منها الدور المطلوب في إطار الحركة الإنسانية العامة نحو التكامل.

ويجب أن نذكر هنا بأن كلاً من الأفراد والمجتمع مكلفون بتطبيق شرع الله وصنع المجتمع العابد المستسلم لله، وتحقيق الشخصية الإسلامية المطلوبة.

الحقوق الفردية والاجتماعية كما يصورها القرآن

وكما أسلفنا فإن هذه الحقوق متشعبة كثيراً ولذلك فسنشير فقط إلى أهمها مع ذكر بعض النصوص الواردة بشأنها.

١ . سورة فصلت: ٣.

٢ . الكافي ٢: ٤١٥.

٣ . سورة النساء: ٥٩.

٤ . سورة الأعراف: ١٥٧.

حق الفرد على المجتمع

والقرآن الكريم يصوّر الفرد في المجتمع المسلم يحیی أفضل حياة، فالمجتمع يوفر له ما يلي:

أ- الاحترام الكامل لحياته وكرامته، وحرية.

ب- الجوّ الأخلاقي النظيف الذي يستطيع من خلاله أن يتربی التربية الصحيحة.

ج- المستوى المعيشي المطلوب.

د- إمكان المساهمة في عملية البناء الاجتماعي والاقتصادي والحقوقى والسياسي والعائلي.

هـ- عدم التفرقة العنصرية والجغرافية واللغوية واللونية وغيرها من ألوان التفرقة.

يقول الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^٣.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

وهناك بحوث تفصيلية هنا عن حقوق الأقليات في المجتمع الإسلامي سواء منها حقوق أهل الذمة أو حقوق أهل العهد، كما أنّ هناك حقوقاً للمجتمعات الأخرى غير المجتمع الإسلامي لا نجد مجالاً للدخول في تفاصيلها.

١. سورة النساء: ١.

٢. سورة الحجرات: ١٢.

٣. سورة الحجرات: ١٣.

٤. سورة الشورى: ٣٦-٣٨.

حق المجتمع على الفرد

وعلى ضوء التعاليم القرآنية فإن على الفرد تجاه المجتمع حقوقاً كثيراً:

- أ- أن يقدم مصالح المجتمع على مصالح نفسه.
- ب- أن يلتزم بعهوده الاجتماعية، وتطبيق قوانينه.
- ج- أن يسد حاجاته الأساسية والضرورية باعتبارها واجبات كفائية يعاقب جميع الأفراد لو تركت، وهذا المعنى يشمل الجوانب الاقتصادية والعلمية وغيرها.
- د- أن يساهم في الدفاع عنه وعن استقلاله، وطهارته، بل وأن يدعم نموه وتقدمه.
- ه- أن يساعده في تحقيق خصائصه القرآنية.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^٢ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾^٣ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^٤.

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^٥.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^٦.

حق المجتمع على الإمام

والإمام كفرد له واجباته الفردية والاجتماعية ولكنه كحاكم عليه أن يستشير وعليه أن يعدل وينصح، وعليه أن يطبق شريعة الله وعليه أن يحترم حقوق الشعب ولا يستخف به، وعليه أن يدافع عن استقلال البلد وحرية.

١. سورة الحشر: ٩.

٢. سورة الماعون: ٤-٧.

٣. سورة الأنفال: ٦٠.

٤. سورة المائدة: ٢.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^١.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^٢.

حق الإمام على المجتمع

وفي قبال ذلك للإمام حقه على المجتمع وفي طليعة هذه الحقوق النصيحة والمشاورة والمراقبة والطاعة وعدم شق عصاها.

يقول تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^٣.

وهنا يفصل الإمام علي عليه السلام وهو تلميذ القرآن هذه الحقوق المتقابلة فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالتَّصِيحَةُ لَكُمْ وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالتَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالتَّطَاعَةُ حِينَ أَمُرُكُمْ»^٤.

حق الفرد المسلم على الفرد المسلم

وهو ما يعبر عنه بحقوق المؤمنين، وهي كثيرة تعرّض لها القرآن الكريم والروايات الكثيرة، وهو مما لا نستطيع أن نتعرض له بالتفصيل في هذا المقال ولكننا سنشير إلى بعض هذه الحقوق التي تعرّض لها القرآن الكريم بالإضافة لما أشرنا إليه في مطاوي البحث سابقاً. فمنها: حق الاخوة بما يستتبعه هذا الحق من حقوق متفرّعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^٥.

ومنها: حق التحاب: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾^٦.

١ . سورة التوبة: ١٢٨.

٢ . سورة آل عمران: ١٥٩.

٣ . سورة النساء: ٥٩.

٤ . نهج البلاغة: ٧٩.

٥ . سورة الحجرات: ١٠.

٦ . سورة الحشر: ٩.

ومنها: حق التناصر والتعاون: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^١.

ومنها: حق التواصي: ﴿وَالْعَصْرَ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^٢.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾^٣.

ومنها: حق التبيين والتثبيت، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^٤.

ومنها: حق أداء الأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾^٥.

ومنها: الاحترام وحفظ الألقاب الحسنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾^٦.

ومنها: حق عدم الظن بالسوء، وإذا ما حصل ظن سوء فلا ينبغي التجسس، فإذا حصل علم بشيء يجب الامتناع عن الغيبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^٧.

ومنها: حق التناهي عن المنكر، وقد ذم القرآن قوماً ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾^٨.

ومنها: حق العفو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^٩.

١ . سورة المائدة: ٢.

٢ . سورة العصر: ١-٣.

٣ . سورة البلد: ١٧.

٤ . سورة الحجرات: ٦.

٥ . سورة النساء: ٥٨.

٦ . سورة الحجرات: ١١.

٧ . سورة الحجرات: ١٢.

٨ . سورة المائدة: ٧٩.

٩ . سورة الأعراف: ١٩٩.

- ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبٌ الدَّارِ﴾^١.
- ومنها:** حق السلام: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾^٢.
- ومنها:** حق الوفاء ومطابقة القول للعمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^٣.
- ومنها:** حق العدالة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^٤.
- ومنها:** عدم إشاعة الفاحشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^٥.
- ومنها:** سد الحاجات الضرورية بل الطبيعية: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^٦ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾^٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^٦.
- ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^٧.
- ومنها:** تعظيم حرمة، فإتيا من حرمة الله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾^٨.
- وهناك حقوق كثيرة أخرى تذكر لكل المؤمنين ولبعضهم كالجيران والضعفاء والشيوخ لا مجال للتفصيل فيها.

الحقوق العائلية

وهي حقوق فرد على فرد ومجتمع على فرد وفرد على مجتمع باعتبار أن العائلة تمثل لبنة

١ . سورة الرعد: ٢٢.

٢ . سورة النساء: ٨٦.

٣ . سورة الصف: ٢-٣.

٤ . سورة المائدة: ٨.

٥ . سورة التور: ١٩.

٦ . سورة الماعون: ٤-٧.

٧ . سورة الحشر: ٩.

٨ . سورة الحج: ٣٠.

تشكيل المجتمع في التصور الإسلامي، ويكاد الإنسان يلاحظ بشكل مطرد أن كل النظرية الاجتماعية والقوانين والاحكام المبتنية عليها تعتمد أصل العلاقات العائلية في التخطيط الاجتماعي السليم وهذه الحقوق متشعبة نشير منها إلى الحقوق التالية.

حقوق الأرحام:

يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^١.
﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^٢.

حقوق الوالدين

يقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٠﴾ وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾^٣.

حقوق الزوجين

والقرآن الكريم يتعرض لها بشكل تفصيلي ويعتبر عهد الزوجية ميثاقاً غليظاً ويعطي الجو العائلي معاني الرحمة والتكامل والسكون.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^٤.

حقوق الأولاد

وهي تشكل أيضاً مجموعة منسجمة تعمل على تربية الأولاد وفي الإطار العائلي النظيف، ويتم التركيز على الولد الصالح كعنصر اجتماعي ايجابي سوف يحمل أعباء المستقبل.

١ . سورة النساء: ١.

٢ . سورة الإسراء: ٢٦.

٣ . سورة الإسراء: ٢٣ - ٢٤.

٤ . سورة الروم: ٢١.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^١.

ويدعو إبراهيم ربه فيقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^٢.

حقوق الطبيعة

وربما يكون هذا غريباً على المذاهب الوضعية أما الإسلام، فيرى أن للطبيعة حقاً على الإنسان رغم كونها مما لا يعقل وأنها مسخرة للإنسان لكي يعيش فيها ويتكامل ويحقق الهدف من خلقته. إنَّ عليه أن لا يبدر فيها ولا يظلم، والظلم هنا يعبر عنه بكفران النعمة الإلهية وعدم استغلالها الاستغلال المطلوب وإهدار طاقاتها الخيرة. أما شكر النعمة فيعني استثمارها على أحسن وجه لخدمة الإنسانية كل الإنسانية.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿١٠٠﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٠١﴾ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^٣.

هذا بشكل عام وعندما ندخل في مرحلة التفاصيل فإنَّ كل العلاقات بين الإنسان والطبيعة يحكمها نظام تشريعي خاص يلاحظ الواقع بعلم الهي دقيق، فهناك العلاقة بين الإنسان والحيوانات من حيث إمكان الأكل، ومن حيث الطهارة والنجاسة، ومن حيث الملكية، ومن حيث نوع التعامل وأمثال ذلك، وهناك العلاقة مع الثروات الطبيعية: الأرض والمعادن والطاقات من جهات عديدة أيضاً، ونفس الشيء يقال بالنسبة للمحاصيل

١. سورة الاحقاف: ١٥.

٢. سورة الصافات: ١٠٠.

٣. سورة إبراهيم: ٣٢ - ٣٤.

الزراعية، وهكذا، ويعدُّ التخلُّف عن هذا النظام أسلوبياً من أساليب عدم الوفاء بالحق. ونحن نجد الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يعبرُ مثلاً عن العلاقة بالمال قائلاً: «وأما حق المال فإن لا تأخذه إلا من حله، ولا تنفقه إلا في وجهه، ولا تؤثر على نفسك من لا يحمذك، فاعمل به بطاعة ربك، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة مع السعة ولا قوة إلا بالله»^١. والحقيقة هي أن الإسلام يصوّر الكون كله منسجماً مع الإنسان ومسبحاً لله تعالى معه وذلك كما نراه في الآيات التالية:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٢.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾^٣.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾^٤.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْتَفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^٥.

فهي إذن طبيعة واعية تشعر بواجبها وتسبح ربها العظيم. وفي الخبر أن الرسول صلى الله عليه وآله عندما مرَّ على جبل أحد قال «هذا جبل يحبنا ونحبه»^٦.

حقوق الزمان والمكان والتاريخ

ويأتي في هذا الإطار حديث عن حقوق الزمان والمكان، والعمر، فكل هذه أمور يسأل عنها الإنسان وهل قضى حقها وقام بواجباته تجاهها، أم أهدر نعمها ولم يف بحقها؟

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^٧. وحتى التاريخ له حق على الإنسان أن يعتبر به ويستفيد منه للمستقبل.

١. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤: ٥١٢.

٢. سورة الحديد: ١.

٣. سورة الإسراء: ٤٤.

٤. سورة الرعد ١٣.

٥. سورة الإسراء ٤٤.

٦. بحار الأنوار ٢١: ٢٤٨.

٧. سورة الدخان: ٢٥-٢٩.

﴿قَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^١.
 ﴿... وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾^٢.

والحقيقة هي أن الإسلام ينظر لكل المسيرة الإنسانية كمسيرة واحدة، ويعتبر الفرد والمجتمع جزءاً من هذه المسيرة الممتدة الصاعدة نحو الحياة الإلهية الكاملة والمجتمع الذي يحكمه الإسلام كله حيث يكون الدين كله لله، وحيث يرث الأرض عباد الله الصالحون بقيادة الإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً. ومعنى هذا أن الإنسان مسؤول عن المستقبل، وأن للمستقبل الإنساني حقاً على الإنسان فيجب أن يخطط له ويمهّد ولا يستطيع أن ينظر إلى فترته هو ويتناسى التاريخ والمستقبل.

روي أن علياً لما أظفره الله في أحد الحروب، قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهداً يرى ما نصرك الله به على أعدائك.

فقال له عليه السلام: «أَهْوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ نَعَمْ، قَالَ فَقَدْ شَهِدْنَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ»^٣.
 حقوق النفس على الإنسان:

ومن الحقوق الرائعة في التصور الإسلامي حقوق النفس الإنسانية على الإنسان نفسه، فإن النفس هبة الله تعالى للإنسان كي يقوم بتحقيق هدفه فليس له أن يفرط في نفسه.
 ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^٤.

وليس له أن يذل نفسه ويستخفّ بها ويقلل من وزنها في قبال الطواغيت، فيقول عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^٥.

١ . سورة يوسف: ١١١.

٢ . سورة الحشر: ٢.

٣ . نهج البلاغة: ٥٥.

٤ . سورة البقرة: ١٩٥.

٥ . سورة الزخرف: ٥٤.

وليس له أن يقصر بحق أي هبة عضوية أعطاه الله تعالى إياه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^١.

والأحكام الإسلامية تنظم حقوق البدن والعين والإذن واللسان والفرج والقلب
والعقل بشكل دقيق باعتبارها حقوقاً يجب أن يفهم الإنسان بها.

يقول الإمام زين العابدين في رسالة الحقوق المنقولة عن أبي حمزة الثمالي: «فاكبر حقوق الله
تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقه الذي هو أصل الحقوق ثم ما أوجب الله
عزَّ وجلَّ عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك فجعل عزَّ وجلَّ لسانك
عليك حقاً ولسمعك عليك حقاً ولبصرك عليك حقاً وليدك عليك حقاً ولرجلك عليك حقاً
ولبطنك عليك حقاً ولفرجك عليك حقاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال، ثم
جعل عز وجل لأفعالك عليك حقاً، فجعل لصلواتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقاً،
ولصدقتك عليك حقاً، ولهديك عليك حقاً، ولأفعالك عليك حقاً»^٢.

وهكذا يعيش الإنسان في عالم من الحقوق والواجبات الأمر الذي لا يستطيع أي مذهب
وضعي مادي أن يدركه.

١. سورة الإسراء: ٣٦.

٢. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤: ٥١٢.

النموذج السابع: العلاقات الدولية

تمهيد

قبل الدخول في البحث، ينبغي أن نذكر بعض النقاط لعلاقتها الشديدة بتكوين الصورة الكاملة عن الموضوع، نطرحها بكل اختصار:

١ - ربّما تنطرح في الذهن شبهة قديمة تقول: ما معنى هذا البحث؟ الإسلام دين ينظّم الحياة الفردية، والجوانب الاجتماعية المتصلة بها مباشرة، اما المجموع الكلي للعلاقات داخل المجتمع فضلاً عن العلاقات الدولية فلا مجال للحديث عنه.

ولكن الجواب عنها عاد اليوم من نافلة القول بعد وضوح بطلانها، وإذعان الجميع - حتى من لم يطلعوا اطلاعاً كاملاً على الإسلام - بأنّ الشبهة قائمة على التصوّر الغربي أو الكنسي عن الدين كشأن من الشؤون الفردية وإذا كانوا يؤمنون بالحرية الدينية - وهم بها لا يؤمنون في الواقع - فإنّ ذلك قائم على أساس أنّها شأن فردي، وإذا كان جان جاك روسو يرفض أن تمتدّ قوانين الدين لتشمل الحياة، وعندئذ يحدث ما يسميه بالتعارض بين القوانين الدينية والمدنية، فذلك أيضاً ناشيء من هذا التصور الكنسي المرفوض.

أمّا التصور الإسلامي الأمثل: فهو يعتبر الدين موقفاً من الكون والحياة والإنسان، تقوم على أساسه عواطف الإنسان، ويتوجّه من خلالها سلوكه الحياتي في مختلف الشؤون.

بل إنّنا إذا تتبعنا التعاليم الإسلامية، لمسنا أنّ الجانب الاجتماعي يحتل القسط الأكبر منها،

وربّما أمكن القول بأنّ السلوك الفردي يقيم من خلال الذوبان الاجتماعي بهدف إلهي سام. ولسنا بصدد الحديث عن هذا الجانب بقدر الإشارة إلى بطلان الشبهة المطروحة.

٢ - باستعراضنا للعلاقات الاجتماعية المفضّلة لدى الإسلام، ومحاوله استنباط أهم أساس تقوم عليه، لا نجد أماناً إلاّ (القسط) و(العدل) كأساس أول، ثم تتطوّر العلاقة لتصل إلى حد(الرحمة والمحبة) وتواصل سيرها لتبلغ حد (الإيثار والتضحية).

وإذا أردنا أن نجد للعدل مضمونه الصحيح، فإننا لا نستطيع أن نستقي محتواه من مقاييس كمية - كالمساواة مثلاً - أو مادية أخرى، لأننا سنقع حينئذ في مفارقات لا مناص منها، وإنّما نستطيع أن نعرّف له مضموناً صحيحاً إذا أقمناه على أساس الإيمان بالحقيقة الإلهية الكاملة المطلقة، التي تملك كل شيء؛ لأنها خلقت كل شيء، والقائمة بالقسط والعدل في الكون، وكذلك الإيمان بالفطرة والمسيرة الطبيعية للإنسان، فكل شيء يحقق لها الجو الطبيعي المناسب، ويواكب مسيرتها الصاعدة يعدّ عدلاً، وكل سلوك يتنافى مع متطلباتها يعدّ ظلماً، هذا وقد أودعت في الفطرة نفسها، طاقة الاتجاه نحو العدل، والابتعاد عن الظلم، بل وأودعت فيها قدرة تشخيص بعض المصاديق العادلة أو الظالمة.

٣ - من الظواهر التي تتبع مسألة العدالة مسألة الجانب الإنساني في التشريع، فيكفي استعراض سريع لمجموعة من الأحكام الإسلامية، لتكوين نظرة تصديقية، بأنّ الشريعة الإسلامية تأخذ الجانب الإنساني العام بعين الاعتبار دائماً، لا بل نستطيع القول بأنّها بطبيعتها - إنسانية، وذلك من خلال تأكيدها على الفطرة وانسجامها معها، وما الفطرة إلاّ الجانب الإنساني الأصيل....

وها هو القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الإنسانية كانت تعيش الحالة الفطرية الواحدة قبل أن تطرأ عليها حالة التعقيد التي احتاجت إلى نظام أصلح يوفّق بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية، فبعث الله النبيين مبشرين بالنظام المنسجم مع الفطرة. وقد ركّز القرآن الكريم على حقيقة أخرى إلى جنب هذه الحقيقة، وهي: أنّ ما تصوّروه من فروق يمكنها أن تؤدي إلى نوع من التفاضل الكاذب، إنّما كانت في الأصل لكي تسهل اللقاء الحضاري ويتم التعارف، وهو أرضية ضرورية للتعامل الاجتماعي السليم، أما معيار التفاضل الطبيعي فهو - بنفسه - سرّ المسيرة الموحّدة المتناسقة، وهو معيار التقوى الإلهية الفاعلة، وسنعرف من خلال البحث شيئاً من إنسانية النظام الإسلامي.

٤ - انسجاماً مع فطرية الرسالة وتأكيدها على الجانب الإنساني، نجد التخطيط الإسلامي يلحظ عنصر الخلود الزمني ويتجاوز الاختلافات المكانية والعنصرية وأمثال ذلك، ولذا نجده في جانب كبير من تخطيطه مرناً مرونة حكيمة، بعيداً عن أية ميوعة، فبتركه لمنطقة المباحات بشكل أولي، ليملاًها ولي الأمر طبق مصلحة الأمة، وعبر نظام التشاور الذي يراه صالحاً للفترة الزمانية والظروف المكانية القائمة، حقّق مرونة لا نجد مثلها في أي نظام آخر^١. وعلى هذا فيجب أن يلحظ هذا الجانب تماماً عند ملاحظة موقف الإسلام من تنظيم العلاقات الدولية العامة.

٥ - من الطبيعي كون النصوص القرآنية رغم أنّها من أعمّ القوانين، فإنّ لظروف الآية وأسباب النزول دورها في توضيح الدلالة. كذلك نجد أن تطبيقات الرسول الأكرم ﷺ، والقادة الأوائل، وسيرة المسلمين التي تكشف عن تأييد المعصوم كل هذا يلقي أضواءً كاشفة رائعة على المدلول القرآني، وإنّ كان الظاهر القرآني يبقى هو الأصل الأساس في البين.

٦ - وفي خاتمة هذا التمهيد، نذكر بأننا هنا إنّما نحاول معرفة الأسس العامة التي تقوم عليها المواقف الإسلامية التفصيلية من العلاقات الدولية، أما تحديد تطبيقاتها، ومدى تفوق أي جانب على الجانب الآخر في المواقف المشخّصة، وأنّى يمكن اتّخاذ المواقف المواجهة، فهذه أمور تقدّرهما الخبرة الحاكمة في الدولة الإسلامية وتعيّنهما مفردات الواقع القائم.

الإسلام والدولة العالمية

ربّما كان الحديث عن دعوة الإسلام للدولة العالمية، حديثاً عن ضروري من ضروريات الإسلام، أو على الأقل حديثاً عن ضروري فقهي واضح لدى علماء الإسلام وفقهائه. فالإسلام جاء ليطبّق في الأرض كلها، وللناس كلهم، وعلى شؤون الحياة كلها، وذلك باعتباره السبيل الوحيد الذي يضمن السير الطبيعي للقافلة الإنسانية نحو كمالها، والحل

١. يشير بهذا إلى منطقة الفراغ التي ذهب إليها الشهيد الصدر، ولاحقاً الشيخ يوسف القرضاوي وأسامها منطقة العفوم مع بعض الاختلافات راجع كتاب: الحلال والحرام للشيخ يوسف القرضاوي. انظر: اقتصادنا للشهيد الصدر: ٦٨٦ - ٦٩٢، دورية رسالة

الأصلح الذي قام على أساس من علم إلهي غير محدود، وتخطيط حكيم لهذه المسيرة من قبل خالق الإنسان والكون.

إنه دين الحياة كلها، والحياة محورها الاجتماع، والمجتمع لا يتم بدون دولة. فهو إذن يدعو للدولة العالمية الموحدة، حيث يكون الدين كله لله. إنه رسالة جاءت ناسخة لجميع الشرائع، في نفس الوقت الذي جاءت فيه مصدقة لأصولها ونظراتها الثابتة، فكل الشرائع إذن وجدت صورتها الأكمل في الإسلام، وكل البشرية رأت سبيلها الصالح فيه.

والرسول الأكرم ﷺ رسول للناس جميعاً، لا لعشيرة، ولا لفتة، ولا لعنصر، ولا لمنطقة جغرافية معينة، إنه رسول خالق الإنسانية لكل الإنسانية.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^١.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^٢.

ولهذا نجده ﷺ دعا العالم جميعاً إلى الإسلام، وأرسل رسائله إلى زعماء الدول المعروفة آنذاك، داعياً إياهم إليه، لا بل أعلن عالمية رسالته وهي ما تزال مستضعفة في مكة، حيث جاءت الآيات القرآنية:

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^٣ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ

لتؤكد هذه الحقيقة في المراحل الأولى من الدعوة. وقد ذكر الرسول الأعظم ﷺ مضمون الآية السابقة، في إحدى رسائله وهي التي أرسلها إلى (خسرو پرويز) كسرى، حيث جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، ويشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان

١. سورة الأعراف: ١٥٨.

٢. سورة سبأ: ٢٨.

٣. سورة القلم: ٥١-٥٢.

حيًا، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس». ومن نفس هذا المنطلق بشّر الأنبياء باليوم الموعود، حيث يعمُّ العدل، ويكون الدين كله لله، وحيث يظهر المهدي المنتظر عليه السلام. إنَّ هذا التبشير بالدولة العالمية منطلق من طبيعته العالمية بلا ريب، على أن آية مراجعة لجوانب التشريعات الإسلامية توضّح للإنسان - بما لا مرأى فيه - أن الإسلام مصمم ليكون دين الإنسانية ككل، ذلك لأنّه لا ينطبع بطابع معين، ولا منطقة أو مساحة زمانية أو مكانية خاصة. كل هذا يكاد يكون من نافلة القول.

إلا أن الذي نريد أن نوّكده هنا: هو أن الإسلام بادّعائه العالمية يصدق مع ذاته، في حين تكذب كل النظم الأخرى مع أسسها، إذ أن السؤال التالي ينطرح بسرعة في الذهن، بعد ادّعاء أيّ منها العالمية والأهمية، وملخصه:

ما الذي يبرر للقائمين على النظام أن يوسعوا من أفقه وسلطته ليشمل العالم؟ ومن الذي خوّلهم ذلك؟

إننا حتى لو ركّزنا على أكبر المبادئ المدّعية لذلك وهي الماركسية، وجدناها لا تستطيع أن تثبت مبرراً ينسجم مع أسسها هي، على فرض قبولها وسلامتها من المناقشة، وهو فرض محال، فليس هناك قانون دياكتيكي واحد يفرض حكومة فئة أو شعب على العالم، بل إنَّ هذه القوانين تقضي باختلاف مسيرة الشعوب لاختلاف مستواها الاقتصادي، وتعدّد علاقاتها الاجتماعية.

وحيث فلن يصدق الماركسيون - مع ذاتهم الماركسية - عندما يعلنون الأهمية والدولة العالمية. أما الرأسمالية فهي أعجز من أن تثبت لها أسساً فلسفية، فضلاً عن أن تجد المبرر التاريخي الحضاري لأطروحة حكومة عالمية موحّدة. أما الإسلام فيستمد عالميته كما رأينا من الأمور التالية:

١ - كونه رسالة خالق الإنسان ووليه المطلق للإنسان، والأطروحة النهائية لمسيرة التكامل الإنساني.

٢ - وكونه دين الفطرة، والفطرة لا تختلف من إنسان إلى آخر، بل هي الحدّ الإنساني الفاصل.

٣ - وكون رسوله - رسول الله صلى الله عليه وآله - إلى البشرية جمعاء.

هذا ما أردنا الإشارة إليه، كما وددنا أن نبه على أن الانطلاقة الإسلامية لا يمكن أن

تقارن بأي حال إلى أية انطلاقة أخرى... إنها رسالة الله، وليست - كما يدعون - رسالة الرجل الأبيض، أو رسالة التاريخ، أو رسالة التحضير، أو ما إلى ذلك من آلهة وهمية، صاغتها العقلية الاستغلالية الاستعمارية، لتبرّر نهب الشعوب والثروات.

نعم، يمكن لأي إنسان أن يتساءل عن الدليل، أما إذا قبله فلا مناص له من التسليم بالحقيقة.

وعلى أي حال، فإن تحقق هذا الحلم الكبير، حلم الدولة الإسلامية العالمية الواحدة - وهو ما نعتقد بلزوم تحقّقه عاجلاً أو آجلاً - لم يعد هناك مجال للبحث عن العلاقات الدولية، وإنّما تعود المسألة علاقة بين القطاعات المختلفة في داخل جسم الأمة الموحدة، وهي الحالة الطبيعية للبشرية، أو فلنعبّر: هي الأصل في المسيرة.

إنّ الإسلام يريد للأرض كلها أن تطوف حول الكعبة محور التوحيد، كما يطوف الكون حول العرش محور الخلق الإلهي، ونستطيع أن نشهد هذه المقارنة في كلمات الإمام علي عليه السلام، التي تشبّه الطائفين بالبيت، بالطائفين بالعرش، حيث يقول:

«واختار من خلقه سمّاعاً، أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه»^١.

الانقسام هو الاستثناء

وما يتصوره الإسلام في مرحلة الاستثناء هو أن ينقسم العالم إلى دارين، إحداهما: دار الإسلام، والأخرى: دار الكفر. والحد الفاصل بين الدارين هو السلطة الإسلامية. يقول الأستاذ الشهيد عبد القادر عودة:

«الأصل في الشريعة الإسلامية أنّها شريعة عالمية لا مكانية... ولكن لما كان الناس جميعاً لا يؤمنون بها ولا يمكن فرضها عليهم فرضاً، فقد قضت ظروف الإمكان، أن لا تطبّق الشريعة إلّا على البلاد التي يدخلها سلطان المسلمين دون غيرها من البلاد.

١. نهج البلاغة: ٤٥.

... ولهذا نستطيع أن نقول: إنَّ الشريعة الإسلامية في أساسها شريعة عالمية، إذا نظرنا إليها من الوجهة العلمية، ولكنها في تطبيقها شريعة إقليمية إذا نظرنا إليها من الوجهة العملية^١. وعلى هذا الأساس فتشمل هذه الدار كل بلد سكانه - كلهم أو أغلبهم - مسلمون، وكل بلد يتسلط عليه المسلمون ويحكمونه.

أما دار الكفر فتشمل مساحتين: دار الحرب ودار العهد. والعلاقة مع دار العهد تحكمها - بالإضافة للقواعد العامة في التعامل مع غير المسلمين عموماً - مقتضيات العهد التي يلتزم بها الإسلام بشدة، ويأمر القرآن بكل وضوح بعدم نقض العهد إن كانت شروطه محققة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^٢. في حين تقوم العلاقة مع دار الحرب على مقتضيات لغة الحرب، دون أن تخرج - في منطلق الإسلام - عن الأطر الإنسانية العامة في التعامل.

عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين

وهنا نودُّ أن نجمل الأمر، فنذكر بعض العناصر التي تلعب دورها الكبير في تحديد نوعية العلاقات الدولية للسياسة الخارجية الإسلامية، إلا أننا قبل ذكر هذه العناصر، نشير إلى الأساسيين الرئيسيين، اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الإسلامية، وهما:
أولاً - المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.
وثانياً - الروابط والرحمة الإنسانية، والصلوات الخلقية.
 والواقع أنَّ كل التشريع الإسلامي يستقي من هذين المعنيين، بل يمكننا القول - عند التعمُّق - أنَّهما يعبران عن موقف واحد، فلم يكن الإسلام ليقصد إلا أن يضع الإنسان على طريق تكامله، ويفجّر طاقاته، وينفي عن حياته كل المعوقات التي تقف في وجه مسيرته المستمدَّة من هدي الرسولين، الداخلي والخارجي، أي الفطرة والتشريع.
 والواقع الذي لا شك فيه أنَّ الواقعية والروح المناقبيية، تعتبران من أهم سمات التشريع

١. التشريع الجنائي طبع طهران: ٤٤٠.

٢. سورة الإسراء: ٣٤.

الإسلامي في شتّى جوانبه، وما سنراه فيما يلي من أسس تنبثق عن هاتين الصفتين الرئيسيتين. أمّا العناصر التي وددنا التركيز عليها في نظرنا السريعة هذه، فهي كما يلي:

أولاً - العمل على إبقاء الأمة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية.

فالأمة الإسلامية التي يصفها القرآن: هي الأمة الوسط، والوسطية هنا بلا ريب يراد بها النموذج الأسمى^١، وما يمكن استفادته من تعبير واسطة العقد، حيث الجوهرة الثمينة التي تتبعها الجواهر الأخرى فيه، وهي الأمة الشاهدة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وعلى هذا فالسياسة الخارجية الإسلامية تسير بشكل منسجم مع مجموع السياسات الداخلية باتجاه تحقيق هذا الأمر بشتّى الوسائل والسبل، أي سواء على الأصعدة السياسية، أو الإعلامية، أو الاجتماعية، أو العسكرية، أو غيرها. إن هذا العنصر - كما ترون - يدفع الأمة إلى التعالي والتكامل في كل حقل، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، واستغلال كل تسابق في سبيل تحقيقه. إنّه يعني الانفتاح على كل مجالات الحياة، وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى. نقول هذا ونحن نعترف بأنّ أمتنا - نتيجة عوامل كثيرة - قد أقصيت عن هذا الدور الطليعي الذي أهلت له، ولكن هذا لا يعني أن لا نظلّ نلحّ على الوصول إليه، أو تنساه عندما نحاول أن تؤصّل أية علاقة دولية.

ثانياً - المبدئية في التعامل.

وهي سمة عامة في كل خط سياسي، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ذلك أنّ الدولة الإسلامية دولة عقائدية، تؤمن بمبادئ تصوّرية تقوم على أسس منها خطوط عملية تستوعب حياة الإنسان (الفرد والمجتمع).

ولهذا فهي تقرب من الآخرين بمقدار قربهم من المبدأ، وتبتعد عنهم بنفس المقياس، وهي لا تتعامل معهم إلاّ من خلال الامتدادات التي يسمح بها المبدأ... فعلى ضوء المبدأ يتحدّد نوع العلاقات الدولية: وكونها وديّة، أو حسنة، أو سيئة، في الأصل. اما العلاقات الأخوية: فلا تقوم إلاّ بين المؤمنين، وذلك لأنّها علاقات سامية، قد تعني

١ . يشير إلى الآية ١٤٣ من سورة البقرة، والتفسير الذي أورده هنا هو التفسير الدارج لكنّ العلامة الطباطبائي برغم اقراره بالمعنى المزبور في حدّ ذاته يذهب إلى تفسير آخر للآية، وهو كون الوسطية هنا التخلل بين البشرية، وأنّ بينها أناساً صالحين يتخللون المجتمعات البشرية يشهدون أعمالها وسلوكياتها.

وحدة الأفراد في مختلف الشؤون، وليس هناك إمكان أن يصلها أناس يختلفون على قضية الإيمان.
ثالثاً - نفي السبيل على المؤمنين.

وتعتبر هذه القاعدة من أروع قواعد السياسة الخارجية، وربما كانت في بعض جوانبها تطبيقاً للقاعدة الأولى، كما تعبر عن علو الإسلام على غيره من الأنظمة، وكرامة المسلمين التي يجب أن لا تمس مطلقاً.

وبموجب هذه القاعدة، فإن أي تصرف أو معاهدة أو عقد يؤدي إلى تفوق الكافرين على المسلمين، يعدُّ ملغياً من أساسه - وكما يعبر الفقهاء - فإن هذه القاعدة شأنها شأن قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، وقاعدة (نفي العسر والحرج) تعدُّ من القواعد الثانوية التي تستطيع أن تحكم على الأحكام الأولية بمجموعها، اللهم إلا تلك التي تتضمن بنفسها تحمل الضرر في سبيل تحقيق غاية أسمى كالجهاد. وتستند هذه القاعدة إلى أدلة، منها: الآية الشريفة: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^١.

ومنها: الأحاديث التي تطبقها في بعض الموارد، كالحديث الذي جاء فيه: (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، والكفار بمنزلة الموتى، لا يجبون ولا يورثون)^٢.

كما تستند إلى إجماع الفقهاء، وربما أمكن أن يقال: إن روح التوجهات الإسلامية، وملاحظة المناسبات بين الحكم والموضوع، تقرّر هذه الحقيقة بوضوح، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٣.

وينبغي أن ننبّه هنا إلى أن هذا التوجه لا يعبر عن نوع من التكبر - كما يقول البعض - وإنما هو تقرير حقيقة علو النظام الإسلامي على غيره، باعتباره النظام الأكمل، وبالتالي أفضلية تابعيه، فهو يعمل على أساس من معيار إنساني. نعم، يمكن أن يناقش أو يتساءل أحد عن أصل المعيار، ويتحول البحث حينئذ إلى الأدلة، إما أن يطلق القول على عواهنه، فيعتبر ذلك بشكل عام عملاً عنصرياً، فهو من أشدّ الظلم.

١. سورة النساء: ١٤١.

٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٣٤.

٣. سورة المنافقون: ٨.

إنها قاعدة تعاملية مهمة، لها تطبيقاتها في مختلف المجالات، ومنها: المجالات السياسية. وليس هنا بأروع من تطبيقها اليوم في تعاملنا مع القوى العظمى، التي تعمل على ابتلاع العالم ونهب ثرواته، وعبر بعض الأساليب الخداعة.

وما حادثة تحريم شراء التبغ عام ١٢٦٨ هجري من قبل الميرزا الشيرازي، نتيجة المعاهدة التجارية التي عقدها الطاغوت ناصر الدين شاه مع انكلترا، والتي منح فيها امتياز شراء وبيع التبغ الداخلي والخارجي لبريطانيا، من خلال تاجر انكليزي يدعى (رجي) إلا تطبيقاً لهذه القاعدة، حيث سلط الشاه الظالم، الكافرين على جانب اقتصادي إسلامي، فأصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة القائلة:

"إن استعمال التبغ ومشتقاته حرام اليوم، وإنه يعد بمثابة إعلان الحرب ضد الإمام المهدي عليه السلام". والتطبيق السياسي الثاني المعاصر: هو الموقف الحازم الذي وقفه إمام الأمة الخميني العظيم من معاهدة الكايتولا سيون (أي الحصانة) ويعني: اشتراط أن لا تطبق على الأتباع الأجانب في إيران إلا قوانين دولهم التابعين لها، حيث يقوم قنصل الدولة المذكورة بتطبيقها.

وما كانت تعني إلا نوعاً من المصونية القضائية للأجانب، وتسليطهم على رقاب المسلمين، وقد قام نظام الشاه المقبور، بعقد هذه المعاهدة في عام ١٩٦٣، فنهض العلماء الكبار - وفي طليعتهم الإمام القائد - ضد هذا العمل المنافي للإسلام والعدالة، مما أدى به أن نفاه الحكم الطاغوي إلى تركية. والواقع أن بذرة الثورة الإسلامية الكبرى غرست في ذلك اليوم. والرائع أن الإمام استهل بيانه الجريء وفتواه بالآية القرآنية الشريفة: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾^١.

ولو أن الأمة الإسلامية، أو هؤلاء القائمين عليها، راعوا هذه القاعدة في تعاملهم، لما أصيبت الأمة بالحالة التي هي عليها الآن قطعاً، حتى عدنا نشهد اليوم حكّام المسلمين يتنادون إلى مجلس، يعترفون فيه بالحدود الآمنة لإسرائيل، هذا العدو المتسلط على رقاب المسلمين، والمهين لشرفهم وكرامتهم. ومن الجدير بالذكر أن العناصر الثلاثة الماضية تشكل

١. سورة النساء: ١٤١.

أساساً لروح الاستقلال، والترفع على أي نفوذ أجنبي مذل.
رابعاً - التوعية قبل كل خطوة أخرى.

الإسلام دين التوعية والتربية... وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينظم إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... إنَّه يعرض جوهرته الثمينة؛ لأنَّه يعلم أنَّ قيمتها ستتكشف بكلِّ وضوح للجميع... ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو للبحث والبرهنة، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾^١، وهو يرفض أي عملية إكراه عقائدي ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^٢، كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها...

وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء. يقول القرآن الكريم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^٣.
﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾^٤.
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٥.
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٦.

وفي هذا المجال يقول المجاهد شهيد الثورة الإسلامية في العراق، آية الله السيد الصدر في كتابه (اقتصادنا):

والأمر الآخر: أن يبدأ الدعاة الإسلاميون - قبل كل شيء - بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وإيضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمت للإسلام

١. البقرة: ١١١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦٤.

٢. البقرة: ٢٥٦.

٣. سورة النحل: ١٢٥.

٤. سورة الشورى: ١٥.

٥. سورة فصلت: ٣٣.

٦. سورة يوسف: ١٠٨.

حجته، ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرين على رفض النور...، عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية - بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للإنسانية - إلا أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح^١.

وقد جاء في كتاب الكافي للمرحوم الكليني عن الصادق عليه السلام قوله:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعثني رسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي»^٢.

إنه أسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علمه الله لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٢﴾﴾^٣.

إنه الدعوة - حتى عند مواجهة الطواغيت - عسى أن يهتدوا إلى الحق. وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة (أدعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى كسرى انوشيروان، وقيصر إمبراطور الروم تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي.

وهكذا راح الدعاة يبثون الدعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة الأوائل الذين أرسلوا لتحقيق واجب الدعوة إلى الله، ومنهم:

عبد الله بن حذافة السهمي - مبعوث الرسول إلى إيران.

حاطب بن أبي بلتعة - مبعوث الرسول إلى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي - مبعوث الرسول إلى روما.

عمرو بن أمية - مبعوث الرسول إلى الحبشة.

سليط بن عمرو - مبعوث الرسول إلى اليبامة.

عمرو بن العاص - مبعوث الرسول إلى عمان.

حرملة بن يزيد - مع وفد معه إلى مدينة (أيلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

١. ص ٢٩٩.

٢. وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٠.

٣. سورة طه: ٤٣ - ٤٤.

المهاجر بن أبي أمية - مبعوث الرسول إلى ملوك حمير.
 خالد بن الوليد - مبعوث الرسول إلى همدان (مدينة قرب بحر عمان).
 علي بن أبي طالب (عليه السلام) - مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.
 حذيفة بن اليمان - مبعوث الإسلام إلى الهند.
 عبد الله بن عوسجة - مبعوث الرسول إلى قبيلة حارثة بن قريظ.
 جرير بن عبد الله البجلي - مبعوث الرسول إلى قبائل ذي الكلاع الحميري.
 وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب. وإذا أردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلاحظها في بعثات الإيضاح المرسله من هنا إلى هناك، وفي أساليب توضيح الحقيقة عبر الوسائل السمعية والبصرية، وفي مذكرات الإيضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة إلى المؤتمرات الدولية.
 وما تتميز به العلاقات الدولية الإسلامية: أنها تنظر لعملية التوعية والإيضاح - كرسالة إلهية ومبدأ ضروري - يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية أو سياسية أو غيرها تجاه الدول الأخرى. أما ما نجده من السياسة الماكرة القائمة - بالفعل - فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية - باعتبارها مناورة سياسية - فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق، وتغيرت الموازين.
خامساً - مراعاة العدالة في التعامل.

يشكل العدل أهم أصول التصور الإسلامي عن الواقع: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾^١.
 وأهم الأسس عند التعامل الاجتماعي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ...﴾^٢.

ومن الطبيعي أن يأتي التأكيد على العدالة حين تثور الإحن والشنآن، ويكاد العدل ينسى من اليبس، وحينئذ تقول الآية: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...﴾^٣.

١ . سورة آل عمران: ١٨.

٢ . سورة النساء: ١٣٥.

٣ . سورة المائدة: ٨.

وإذا لاحظنا أن العدل في التعامل مع الأجانب عن دار الإسلام يلحظ فيه واقعهم القائم، أدركنا البعد الإنساني في هذا الأصل، وهذا ما تؤكد أحكام الإسلام في الجهاد والعهد والإجارة وغيرها. وهو ما يفسر وقوف الدولة الإسلامية إلى جانب قضايا المستضعفين والمحرومين في الأرض، ومقارعة الظلم والطغيان في كل مكان - حتى لو لم يكن الأمر يمسه من قريب، وعملها على نفي العلاقات الظالمة بين الدول.

فليس وقوفنا إلى جانبهم وقوفاً مصلحياً دعائياً، حتى إذا ما تسنى لنا الأمر ومنحتنا المقادير أزمتها رحنا نسومها سوء العذاب، وهو ما نجده من القوى العظمى، شريكها وغريبها. وإننا هو موقف مبدئي أصيل قائم على أساس متين، متى ما خالفناه - وفي أية لحظة - خرجنا عن الخط الإسلامي القويم، ودخلنا في عداد المستكبرين، الذين يقول فيهم تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم^١.

إن القرآن على العكس من ذلك، يعطينا صورة الجماعة المسلمة المتمكنة، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^٢.

سادساً - مبدأ تأليف القلوب.

وهو مبدأ يمثل ايجابية الشريعة الإسلامية بكل وضوح، كما يعكس واقعيته في نفس الوقت. ففي الجو الذي يتم تأليف القلوب فيه، تنفتح النفوس للحقيقة، وتتقرب إلى الواقع، والأصل في هذا المبدأ، هو: سهم المؤلف قلوبهم في مصارف الزكاة، حيث فتح هذا مجالاً للعمل المنظم لتحقيق ذلك، عبر الوقوف إلى جانب كل المستضعفين، والدفاع عن قضاياهم، وجلب القلوب إلى الإسلام.

ورغم أن الفقهاء يختلفون في مساحة هذه القلوب المؤلفة وما إذا كانت تختص بغير

١. سورة محمد: ٢٢ - ٢٣.

٢. سورة الحج: ٤١.

المسلمين، أم تشمل المنافقين، وتعم بعض المسلمين ضعيفي الإيمان؟^١ إلا أن الذي يبدو من روح الإسلام واتجاهاته الاقتصادية، ومن أقوال فقهاء الشيعة والسنة - ومنهم الإمام الخميني القائد - أنه مبدأ عام، وأصل يتيح للدولة الإسلامية أن تلاحظ فيه المصلحة أينما تكون. ومن هنا فمن الطبيعي أن يشكّل عنصراً إسلامياً، له دوره في تحديد العلاقات الدولية، وتقديم المساعدات إلى مختلف الدول والشخصيات والجمعيات على شتى مذاهبها. ولئن كان هناك بعض البحث في لزوم العمل بهذا المبدأ في عصر معين، وبالنسبة لأشخاص معينين، بعد وفاته ﷺ، فإنه لا شك في إسلاميته أصلاً، ولزومه في العصور الأخرى. على اننا ننبه هنا إلى أن هذا السهم المعطى للمؤلفة قلوبهم، لا يختص مورده بباب الزكاة، وإنما نجد الإسلام يسمح للإمام أن يقوم بالإنفاق بما يحقق مصلحة الإسلام العليا من أموال الدولة، وتفصيل هذا يذكر في البحوث الاقتصادية الإسلامية. وبانفتاح هذا الباب، نجد المجال السياسي لتطبيقاته واسعاً جداً، يشمل كل المعونات الاقتصادية والسياسية، التي يمكن أن تقدّمها الدولة في سبيل تقريب القلوب إليها والى مبادئها.... إلا أن من الواضح فيه ملاحظة مدى ما يعود به من نفع على القضية الكبرى بغض النظر عن أية منافع سياسية ضيقة.

سابعاً - احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية.

وهذا الأصل هو من أهم الأصول التي تعتمدها السياسة الإسلامية الحقّة، فإنه يستمدُّ من الواقعية التي تتسم بها النظرة الإسلامية من جهة، واحترام مقتضيات الخلق من جهة أخرى. فالقائد الإسلامي يفكر ملياً في أي عهد أو عقد يعقده، ولكنه إذا عقد العقدة - مستوفية لكل شروطها - التزم بها تمام الالتزام. ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾^٢.

والعهود التي تعطى للدول الأجنبية أو الأجانب، تارة تدخل ضمن عقود صرّح بها

١ . بعض العلماء يعرّفهم بالكفار، وآخر بالمسلمين الذين لهم أتباع كفار، وآخر بالمسلمين في بداية دخولهم الإسلام، وآخر برؤساء العرب قبل الإسلام، انظر: المعتبر (الحلي) ٢: ٥٧٣، الحدائق الناضرة ١٢: ١٧٥ - ١٧٧، جواهر الكلام

١٥: ٣٣٨ - ٣٣٩.

٢ . سورة الإسراء: ٣٤.

الإسلام، وحدد لها قوانينها العامة، فيجب الالتزام بذلك، وأخرى تسيّر بمنحى مستقل، يرى ولي الأمر أن يعقدها؛ لأنّها تحقق المصلحة الإسلامية العليا. ومثال القسم الأول: عقد الذمة، وعقد الهدنة، وعقد الأمان. ومثال الثاني: كل العقود الأخرى والتي تعقد على الصعيد العسكري والاقتصادي، وأمثال ذلك.

وتستمد التعاليم الإسلامية - الخاصة بهذا العقد أو ذاك - من نصوص القرآن الشريفة، والأحاديث المباركة، وعمل الرسول ﷺ .

ففي مجال عقد الذمة: تستفاد بعض الأحكام من الآية الشريفة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^١.

وهناك عقود الذمة التي عقدها ﷺ مع نصارى (نجران) و(بني تغلب) ومجموعات من اليهود. ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه العقود، وإنما نريد التأكيد على أن مسألة العهود تحتل جانباً مهماً من الفقه الإسلامي، وتستمد خطوطها العريضة من القرآن الكريم. إلا أننا يجب أن نلاحظ في البين نقطتين متقابلتين:

الأولى: أن الحديث هو عن عهود يقدمها الحاكم الإسلامي الولي الشرعي، أمّا هذه العهود والمعاهدات التي يعقدها هؤلاء المتسلطون على الرقاب بالقوة والطغيان فهي في الأصل لا تلزم أي مسلم؛ لأن من عقدها ليسوا مخولين إسلامياً للقيام بتقديم هذه العهود من قبل المسلمين، اللهم إلا إذا كان ذلك التقديم بصفتهم الفردية، وكانت التعاليم تسمح بمثل هذه العهود والعقود كما في عقد الأمان في بعض صورته. على أنه يجب أن يلاحظ - في مثل هذه العقود والمعاهدات - مدى ما يعود على المسلمين من حصيلة.

الثانية: وكما لاحظنا جانب المسلمين، يجب أن نلاحظ الجانب الآخر في البين، ومدى إيمانه وعلمه بصلاحية المسؤول الإسلامي الذي يعقد معه هذه المعاهدة، فإذا لم يثبت لدينا وضوح الموقف لديه، كان علينا أن نحتاط في مجال نقض المعاهدات الدولية بلارباب.

وهذا المعنى يبدو وبكل وضوح عندما يطرح الفقهاء فكرة الالتزام باحترام حرية المحاربين - الذين دخلوا الأرض الإسلامية - بشبهة الأمان. نعم، في كثير من الحالات، يجد المسلمون أن الدولة الأجنبية، التي دخلت في معاهدة مع حكاهم، كانت تعلم علم اليقين، أن هؤلاء أناس متجبرون، لم تخولهم مبادئهم الإسلامية ولا أمتهم، حتى التحدث باسمها، وحينئذ لا يجدون ما يلزمهم بمثل هذه العقود الظالمة في الغالب.

ثامناً - التعامل بالمثل. يقول تعالى:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^١.

وإذا كان مبدأ القصاص من جهة، ومبدأ جزاء الإحسان بالإحسان من جهة أخرى، مبدئين واقعيين يرتضيها المنطق الإنساني في التعامل الفردي والاجتماعي الداخلي، فإنها كذلك في مجال التعامل الدولي، بل ربما عاد أحدهما من الضرورات، إما لردع الاعتداء أو لجلب القلوب. فإذا كان العدو في العصور السالفة - مثلاً - يسترق المسلمين، فمن الطبيعي أن يعامل العدو بمثله - طبعاً - مع ملاحظة كل الجوانب الأخرى.

ذلك أن حالة الاسترقاق يجب أن يحددها القائد، الذي بلغ درجة سامية من الورع والمحبة الإنسانية، ومستوى سامياً من وعي روح الشريعة المتنافية مع أصل الاسترقاق، فإذا رأى القائد أن الاسترقاق يشكّل أفضل ردّ على العدو من جهة، ومن جهة أخرى أسلوباً لدخول الأسير إلى المجتمع، والاحتكاك بالمسلمين، ومن ثمّ التعرف على الإسلام، وكذلك تخلّصاً من تعطيل هذه الطاقات الخلاقة الأسيرة، فإنه حينئذ يأمر به كموقف لا بديل له. هذا، في حين لا يقاس هذا بأساليب الاسترقاق الوحشية التي كانت جارية آنذاك.

يقول آية الله الشهيد الصدر: «وإذا عرفنا بهذا الصدد، أن ولي الأمر مسؤول عن تطبيق أفضل الحالات الثلاث (ويقصد بها: العفو، أو الإطلاق بفدية، أو الاسترقاق) على الأسير، وأوقفها بالمصلحة العامة، كما صرّح بذلك الفاضل، والشهيد الثاني، وغيرهما، من فقهاء

الإسلام، وأضافنا إلى ذلك حقيقة اسلامية أخرى، وهي: أن الحرب لم يسمح بها الإسلام سماحاً عاماً، وإنما سمح بها في ظرف وجود قائد معصوم، يتولى قيادة الغزو وتوجيه الزحف الإسلامي في معاركه الجهادية، إذا جمعنا بين هاتين الحقيقتين.

نتج عنها: أن الإسلام لم يأذن باسترقاق الأسير، إلا حين يكون أصلح من العفو والفداء معاً، ولم يسمح بذلك إلا لولي الأمر المعصوم، الذي لا يخطئ في معرفة الأصلح، وتمييزه عن غيره. وليس في هذا الحكم شيء يؤاخذ الإسلام عليه، بل هو حكم لا تختلف فيه المذاهب الاجتماعية، مهما كانت مفاهيمها؛ فإن الاسترقاق قد يكون أحياناً أصلح من العفو والفداء معاً، وذلك فيما إذا كان العدو يتبع مع أسراه طريقة الاسترقاق، ففي مثل هذه الحالة يصبح من الضروري أن يعامل العدو بالمثل، وتتبع معه نفس الطريقة»^١.

هذا من الجانب السلبي، والأمر كذلك، بل هو أولى في الجانب الإيجابي، حينما يحس الإسلام من العدو أو الطرف المقابل موقفاً حسناً، فإنه حينئذ يأمر بمجازاته بالإحسان ويرفض مطلقاً أن لا يأبه المسلمون لمثل هذه المواقف الايجابية ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهَا...﴾^٢.
﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^٣.
تاسعاً - نظام الجهاد بمختلف فروع.

وهو باب واسع الأبعاد والفروع، حاول الإسلام فيه تنظيم الأعمال الحربية، مستهدفاً من جهة تحقيق الأهداف الإسلامية العليا، من خلال رفع الموانع في سبيل الدعوة الإسلامية، والحفاظ على محورها المتحرك.

كل ذلك مع ضمان أكبر لالتزام الأساليب الإنسانية الممكنة، ولن نتحدث طويلاً عن هذا الباب لسعته.

كانت هذه بعض الأسس القرآنية للتعامل الدولي، أشرنا إليها في لمحات سريعة، تاركين

١. اقتصادنا: ٣٠٠.

٢. سورة الأنفال: ٦١.

٣. الممتحنة: ٨.

التفصيل فيها إلى مظانّه، وملاحظين أنّه قد يكون البعض منها داخلاً في إطار البعض الآخر، كما في مسألة المبدئية في التعامل مثلاً، أو نظام الجهاد، ولكن فصله تمّ على أساس من أهمية الدور الخاص الذي يلعبه في تحديد نوعية العلاقات الدولية.

وعلى أي حال، فإنّنا إذا استعرضنا بعض الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين الدارين (دار الإسلام ودار الكفر)، نبقى نتصوّر الحالة المفروضة، وهي قيام الدولة الواحدة في العالم، ويبقى هذا التصوّر الإسلامي هو الذي يحكّم العلاقات الدولية، ويتحكم في نوعيتها. هذا، ومن المناسب هنا أن نقول: إنّ سياسة الجمهورية الإسلامية في إيران كانت تسيّر بأطراد نحو تطبيق هذه المبادئ السامية في مجال تعاملها الدولي، وإن كانت نتيجة ذلك قد واجهت شتى الضغوط من الاستكبار العالمي، ومنها: الحصار العالمي على الأصعدة: السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والإعلامية. ولكنها راحت تتجاوز كل المؤامرات، مرفوعة الرأس مفتخرة برسالتها الإسلامية التي حدّدت لها المنطلقات والأهداف، والسبيل لتحقيقها، بكل وضوح.

مع الدستور الإسلامي الإيراني

وعند الرجوع إلى الدستور الإسلامي، نجده يعدّ موضوع العمل على طرد الاستعمار، والحيلولة دون النفوذ الأجنبي، وكذا فكرة بناء السياسة الخارجية على أساس المعايير الإسلامية، والالتزام الأخوي تجاه كل المسلمين، والوقوف التام إلى جانب قضايا المستضعفين والدفاع عنها، يعدّ هذا من أهداف الدولة الإسلامية. في حين تجعل المادة ٤٣ موضوع الحيلولة دون التسلّط الاقتصادي الخارجي على مرافق البلاد، من مسلمات الاقتصاد الإسلامي، وأسسّه.

أما المادة ١٤٦ فتمنع بتاتاً إقامة أية قاعدة عسكرية أجنبية، حتى ولو كان ذلك باسم الأغراض السلمية. وبالتالي فإنّ الفصل العاشر من الدستور، مخصّص للسياسة الخارجية، حيث تقول المادة ١٥٢: «إنّ السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية في إيران تقوم على أساس نفي أي نمط من فرض النفوذ أو القبول بذلك، والحفاظ على الاستقلال التام في جميع

النواحي ووحدة أراضي البلاد، والدفاع عن حقوق كل المسلمين، وعدم الالتزام بأي شيء تجاه القوى المتسلطة، والعلاقات السلمية المتبادلة مع الدول غير المحاربة». كما تقول المادة ١٥٣: «تمنع كل معاهدة تؤدي إلى التسلط الأجنبي على المصادر الطبيعية، والمرافق الاقتصادية، والثقافية، والجيش، وباقي شؤون البلاد».

أما المادة ١٥٤ فتقول: «تعتبر الجمهورية الإسلامية في إيران سعادة الإنسان في كل المجتمع البشري، هدفاً سامياً لها، وتعتبر الاستقلال والحرية وحكومة الحق والعدل، حقاً لجميع شعوب العالم. وبناءً على هذا، ومع نفي أي تدخل في الشؤون الداخلية للشعوب الأخرى، فإنها تؤيد وتدافع عن الكفاح العادل للمستضعفين في قبال المستكبرين، في أي بقعة من بقاع العالم». وأخيراً، فإن المادة ١٥٥ تؤكد أن: «دولة الجمهورية الإسلامية في إيران تستطيع أن تمنح حق اللجوء السياسي لكل من يطلب ذلك باستثناء الذين يعتبرون وفقاً لقوانين إيران مجرمين أو خونة».

الاستثناء الثاني:

عبّرنا عن فكرة انقسام العالم إلى دارين: دار الإسلام، ودار الكفر، بأنها حالة استثنائية في تصور الإسلام، بعد أن كانت الحالة الأولية المفروضة هي حالة الدولة العالمية الواحدة، ورأينا كيف تتم العلاقة بين المعسكرين في إطار هذا المفروض، وعلى أساس من الواقعية والأخلاقية الإسلامية. وقد افترضنا في الاستثناء الأول قيام دولة إسلامية واحدة، يقودها الإمام الذي تسلّم السلطة على أساس شرعي، وعاد ولياً للأمر في دار الإسلام. وهذه الحالة هي الحالة الطبيعية في دار الإسلام بملاحظة الأمور التالية:

(أ) وحدة التشريع الإسلامي الثابت.

(ب) صلاحية الإمام غير المحدودة بمنطقة معينة، في مجال ملء منطقة الفراغ، وهي التي تعالج الجانب المتغيّر من حياة المجتمع.

(ج) روح الإسلام التي تفرض الوحدة التامة، لا الشكلية في تحرك المسلمين. وتمنع مطلقاً من شق عصا المسلمين، وتعتبر ذلك من أعظم الأمور. ومن هنا فإننا لا نوافق على ما تفضّل

به بعض الأساتذة، من القول بأن قيام الدول المتعددة في دار الإسلام، لا يتعارض مع أحكام الإسلام مستنداً لذلك بأنَّ عصر وضع النظريات الإسلامية هو عصر الدولة العباسية الذي شهد دولاً إسلامية متعددة، هي: (دولة العباسيين في المشرق، والعلويين في المغرب، والأمويين في الأندلس)^١.

والغريب أن الاستاذ الجليل (عبد القادر عودة) يصرِّح: بأنَّ (الإسلام لا يتنافى مع نظام كنظام الجامعة العربية القائمة اليوم)، رغم أننا نشهد أن الجامعة العربية لا تعبر حتى عن أقل طموح. إننا نعتقد كون هذا التطبيق لا يستطيع مطلقاً أن يثبت صحته، خصوصاً وأننا نعلم أن العامل الرئيس في نفتيت الأمة وتقطيعها ما كان إلاَّ الأهواء، والطغيان، والاستتار، والنفعية، لا غير، وتبقى دولة الصدر الأول الواحدة هي الأصل بلاريب، والحالة المنسجمة مع تطلعات الإسلام.

ويبدو هذا الرأي أكثر وضوحاً عندما نركِّز على رأي مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مجال قيادة الإمام المعصوم للعالم، امتداداً لقيادة النبي صلى الله عليه وآله له، ومن بعد الإمام المعصوم يقوم الفقيه العادل بتولي أمر الأمة، واكتساب صلاحياته إلى حدٍ كبير. إلاَّ أننا إذ نواجه تعدد الدول والسلطة في دار الإسلام، علينا أن نعتبره استثناء آخر، يجب أن يعمل المسلمون على التخلص منه - مهما أمكن - والعودة إلى حالة الوحدة الطبيعية.

وعندما نفترض هذا الاستثناء الثاني، يضاف إلى أساسي التعامل الرئيسيين المذكورين سابقاً، أسس أخرى مثل (الأخوة الإسلامية) و(الوحدة الإسلامية) و(الالتزام بباقي أحكام الإسلام في مجال التعامل بين المسلمين)، ومقتضياتها التي تتجاوز منطق المصلحة، والربح والخسارة، إلى حيث يضع الإسلام للمسلم على المسلم حقوقاً لا يمكنه أن يتخطأها. وحينئذ يجب أن يحسَّ كل مسلم بالآلام كل مسلم آخر، ويجب أن يقيس نفسه إلى مستوى ما يعيشه المسلم الآخر، ويعمل على الدفاع عن كل شبر إسلامي أينما كان باعتباره وطنه، وأن ينسجم مع كل صرخة تنادي بتطبيق أحكام الإسلام، واعتبار كل ثروة في أعماق أي أرض إسلامية ملكاً في الأصل لكل المسلمين، وقياماً لهم، إلى ما هناك من التعاليم الإسلامية الحية.

١. التشريع الجنائي الإلهي: ٤٦٤.

وهنا - وفي خصوص هذه المساحة - يجب التنبيه على نقطة هامة في البين، هي: أننا إذا نظرنا إلى الواقع القائم اليوم على الأرض الإسلامية وجدناه، يعجُّ بأنماط مختلفة من الحكومات والسلطات، فهناك منطقة إسلامية لو قيس المسلمون إلى مجموع سكانها لشكّلوا الأغلبية الساحقة، ولكنهم مع ذلك، يرزحون تحت حكم إلحادي كافر يعلن الحرب ضد الإسلام، أو تحت حكم كافر يتستّر ببعض الأقنعة، أو تحت حكم آخر يعلن رفضه لأهم تعاليم الإسلام الحيوية، وتمسكه - في أسس تصوّره - بأفكار يرفضها الإسلام بتاتا، أو نظام متسلّط يتقنّ بالدين، في حين يعمل جهده على بيع المسلمين وثرواتهم للعدو، وتمهيد السبيل للقوى العظمى، كي تلعب لعبتها وتستعبد المسلمين، وهكذا دواليك. إننا نعتقد بكل وضوح بالمضمون القرآني الكريم حيث يردد:

﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^١.

﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^٢.

﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^٣.

ونؤمن بأن أي عمالة للأجنبي الكافر، تسم الحكم كله بالكفر، وأي تفريط واضح بحقوق المسلمين، يعني الحرب ضد الإسلام والمسلمين. وإننا لنعد أنفسنا - بمقتضى إسلامنا - مسؤولين، وعلينا العمل المشترك لإسقاط الطاغوت بشتى ألوانه، وإعادة الصورة الإسلامية الناصعة إلى الأمة الإسلامية الواحدة.

١ . سورة المائدة: ٤٤ .

٢ . سورة المائدة: ٤٥ .

٣ . سورة المائدة: ٤٧ .

فهرس بعض المصادر المعتمدة

١. قرآن الكرىم
٢. نهج البلاغه
٣. الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت.
٤. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تعليقات: السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٩ هـ، ق، ١٩٦٦ م.
٥. إحياء علوم الدين، ابو حامد الغزالي، نشر: دار المعرفة، بيروت.
٦. الاسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله الى العربية: عمر فروخ، دار العلم للملايين.
٧. الاصول العامة للفقهاء المقارن، السيد محمد تقي الحكيم، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٩ م.
٨. اصول الفقه، الشيخ، محمد الخضري، ط٢، الاستقامة، مصر ١٣٥٨ هـ / ١٩٢٨ م.
٩. أصول الفقه، محمدرضا، المظفر المطبعة العلمية، النجف الاشرف، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م.
١٠. اعلام الموقعين عن ربّ العالمين، ابن قيم الجوزية، رتبه وخرج آياته: محمد عبدالسلام ابراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩١ م.
١١. افاضة العوائد (تعليق على درر الفوائد للشيخ عبد الكرىم الحائري) آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلبايكاني، دار القرآن، قم، ط١، ١٤١٠ هـ.

١٢. اقتصادنا، الشهيد محمد باقر الصدر، مكتب الإعلام الإسلامي، خراسان، وبوستان كتاب قم ١٣٨٢ هـ . ش .
١٣. الأمالي للصدوق.
١٤. الأمالي للمرتضى
١٥. الإنسان والقدر للشهيد المطهري.
١٦. الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام الميكل أحمد بن حنبل، علاء
١٧. بحار الانوار، العلامة محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفا لبنان، ط ٢، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.
١٨. البحر المحيط، بدر الدين الزركشي، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط ٢، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م.
١٩. بحوث في علوم القرآن، للسيد الزرندي، نشر جامعة المدرسين.
٢٠. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ١، ١٣٧٦ هـ، ١٩٥٧ م، دار احياء الكتب العربية.
٢١. البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، مؤسسة احياء آثار الامام الخوئي، قم، ط ١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٧ م.
٢٢. تاريخ دمشق
٢٣. تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، السيد حسن الصدر، منشورات الأعلمي، طهران.
٢٤. التبيان، أبو جعفر الطوسي، تحقيق وتصحيح: حبيب قصير العاملي، مكتب الاعلام الاسلامي، ط ١، ١٤٠٩ هـ، ق.
٢٥. تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط ٢، ١٤٠٤ هـ، ق.
٢٦. تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، من منشورات المكتبة الرضوية لاحياء التراث الجعفري.

٢٧. التشريع الجنائي الاسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مكتبة التراث، القاهرة.

٢٨. تفسير البغوي

٢٩. تفسير الجواهر، الطنطاوي، طبعة مصطفى الباي، مصر، ١٣٥٠ هـ.

٣٠. تفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، صححه: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مكتبة الصدر، طهران، ط٢، ١٤١٦.

٣١. التفسير العلمي للآيات الكونية بالقرآن، حفني أحمد، مصر، ١٩٩٠ م.

٣٢. تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، وقف على تصحيحه: السيد هاشم الرسولي المحلاقي، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران.

٣٣. تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢.

٣٤. تفسير القرآن، محي الدين ابن العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ.

٣٥. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم القمي، صححه وعلق عليه: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، ط٣، ١٤٠٤ هـ، ق.

٣٦. التفسير الكبير المسمى البحر المحيط، أبي عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الاندلسي الغرناطي (أبو حيان) دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

٣٧. التفسير الكبير، الفخر الرازي، ط٣.

٣٨. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مصر، ١٩٥٣ م.

٣٩. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب للشيخ معرفت.

٤٠. التفسير والمفسرون، محمد حسن الذهبي، نشر: دار الكتب، مصر، ١٩٦١ م.

٤١. تلخيص التمهيد، محمد هادي معرفة، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ط١، ١٤١٦ هـ.

٤٢. التوحيد للصدوق.
٤٣. تهذيب الاصول ، تقارير بحوث الامام الخميني، الشيخ جعفر السبحاني، انتشارات دار الفكر، قم، ط ٣.
٤٤. جامع البيان، للطبري
٤٥. الجانب العلمي في القرآن، صلاح الدين الخطاب، مصر، ١٩٧٠م.
٤٦. جواهر الكلام، الشيخ محمد حسن النجفي، دار الكتب الإسلامية، ط ٣، انتشارات خورشيد ١٣٦٧ش.
٤٧. الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.
٤٨. الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٩٩ هـ، ق، ١٩٧٩م.
٤٩. حول الدستور الإسلامي للتسخيري، نشر مجمع التقريب - طهران.
٥٠. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٣ هـ.
٥١. الدين المرادوي، صححه وحققه: محمد حامد الفقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٣٧٧ هـ، ١٩٥٧م
٥٢. رحمة الامة في اختلاف الائمة، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن الدمشقي الشافعي، المطبوع بهامش الميزان الكبرى، لعبدالوهاب بن أحمد الشعراي، شركة ومكتبة مصطفى الباني وأولاده ط ١.
٥٣. روح المعاني، الألوسي، بيروت، ١٩٧٠م.
٥٤. زاد المعاد.
٥٥. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ط ١، ١٤١٠ هـ، ق، ١٩٩٠م.
٥٦. سنن الترمذي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م.

٥٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٩ م.
٥٨. شواهد التنزيل.
٥٩. صحيح البخاري، دار الفكر، دار الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.
٦٠. صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، نشر: دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٠٦ م، ١٣٧٧ هـ.
٦١. العقائد الإسلامية، مركز المصطف بقم.
٦٢. العقوبة للشيخ محمد أبو زهرة
٦٣. علم اليقين، محمد محسن الملقب بالفيض الكاشاني، انتشارات بيدار، قم، ايران ١٣٥٨ هـ. ش.
٦٤. علوم القرآن، الشهيد محمد باقر الحكيم، نشر: مجمع الفكر الاسلامي، قم، ط ١، ١٤٢٨ ق.
٦٥. العناوين الفقهية، الحسيني المراغي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط ١، ١٤١٨ هـ.
٦٦. عوالي اللثاء العزيزية في الأحاديث الدينية، محمد بن علي بن ابراهيم الاحسائي المعروف بابن أبي جمهور، تحقيق: آقا مجتبی العراقي، مطبة سيد الشهداء، قم، ١٤٠٣ هـ، ق، ١٩٨٣ م.
٦٧. عوائد الأيام، المحقق المولى أحمد النراقي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط ١، ١٤١٧ هـ.
٦٨. عيون أخبار الرضا، أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الصدوق، تصحيح: حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.
٦٩. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأمدي التميمي، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.
٧٠. الفتاوى الواضحة، الامام الشهيد محمد باقر الصدر، مطبعة الاداب في النجف الأشرف.

٧١. فقه القرآن، قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي، ط٢، ١٤٠٥ هـ، ق.
٧٢. الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ط٦، دار الفكر، بيروت.
٧٣. فهرست أسماء مصنفى الشيعة (رجال النجاشي)، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي، تحقيق: السيد موسى الشيرازي، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم.
٧٤. الفهرست، محمد بن اسحاق النديم، اوفسيت مروى، تهران، ايران، الطبعة الثانية، مع مقدمة لرضا تجدد، ١٣٩١ هـ، ١٩٧١ م.
٧٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
٧٦. القاموس الفقهي، الدكتور سعدي أبو حبيب، مطبعة دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
٧٧. القرآن في الاسلام، محمد حسين الطباطبائي، تعريف: السيد أحمد الحسيني.
٧٨. قواعد التفسير للشيخ الميدي، نشر مجمع التقريب بقم.
٧٩. القوانين المحكمة، الميرزا القمي، نسخة حجرية قديمة.
٨٠. الكافي، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧ هـ.
٨١. الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، تعليق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الاسلامية، تهران، ط٣، ١٣٨٨ هـ، ق.
٨٢. الكافية في الجدل، الامام الجويني، تقديم وتحقيق: د. فوية حسين محمود، ط عيسى البابي
٨٣. كتاب الوافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم، ١٤٠٤ هـ، ق.
٨٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله الزمخشري، تصحيح: مصطفى حسين أحمد، طبعة بولاق، ١٢٨١ هـ، ق.

٨٥. كفاية الاصول، الحجة محمد كاظم الخراساني، طبع مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ١٤٠٩ هـ .
٨٦. كلمة حول الرؤية للسيد عبدالحسين شرف الدين.
٨٧. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسان الدين الهندي، ضبطه: الشيخ بكري حياني، صححه: الشيخ صفوة السفا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م.
٨٨. لباب النقول، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٤ هـ، ق، ٢٠٠٣ م.
٨٩. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي، نشر: أدب الحوزة، ١٤٠٥ هـ، ق.
٩٠. مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، انتشارات الشريف الرضي، ط ٢ ١٣٦٨ ش، اوفسيت عن الطبعة الخامسة لدار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨ م.
٩١. متشابه القرآن لابن شهر آشوب.
٩٢. مجلة رسالة الإسلام السنة ١٢ .
٩٣. مجمع البيان لعلوم القرآن، أبو الفضل بن الحسن الطبرسي، دار التقريب بين المذاهب الاسلامية، القاهرة، ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٨ م، اوفسيت طهران، ١٣٧٩ هـ.
٩٤. مجموعة كتابات الشهيد المطهري.
٩٥. المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تصحيح: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الاسلامية، ١٣٧٠ هـ.
٩٦. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني، تصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم المقدسة، ط ٢ .
٩٧. المدرسة القرآنية لآية الله الصدر، مركز الأبحاث، قم.
٩٨. المستصفي من علم الاصول، ابو حامد الغزالي، ومعه كتاب فواتح الرحموت، دار الفكر للطباعة والنشر.

٩٩. مسند أحمد، الامام أحمد بن حنبل، طبع ونشر: دار صادر، بيروت.
١٠٠. مصباح الاصول، تقرير بحث آية الله العظمى الخوئي، السيد محمد سرور الواعظ الحسيني البهسودي، منشورات مكتبة الداوري، قم، ط ٥، ١٤١٧ هـ
١٠١. المصحف المفسر، فريد وجدي، طبعة دار الشعب.
١٠٢. المعاد الجسماني للشيخ مرتضى بويان، قم.
١٠٣. المعالم الجديدة للاصول، آية الله الشهيد الصدر، مطبعة النعمان، النجف ١٣٨٥ هـ.
١٠٤. معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الصدوق، تصحيح: علي أكبر الغفاري، انتشارات جامعة المدرسين بقم، ١٣٦١ هـ، ش.
١٠٥. المعتمد في شرح المختصر، نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن المحقق الحلي، تصحيح: عدة من الأفاضل، نشر: مؤسسة سيد الشهداء، ١٣٦٤ هـ، ش.
١٠٦. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، نشر كتاب، ط ٢، ١٤٠٤ هـ، ق.
١٠٧. من لا يحضره الفقيه، ابو جعفر الصدوق، تصحيح: علي اكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، ط ٢.
١٠٨. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٢.
١٠٩. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط ٢٦،
١١٠. المنطق، محمد رضا المظفر، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.
١١١. الموافقات، ابواسحاق الشاطبي المطبعة الرحمانية، مصر ١٩٦٥.
١١٢. ميزان الحكمة، محمد الريشهري، نشر: دار الحديث، قم، ط ١، ١٤٠٣ هـ، ق.
١١٣. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات جامعة المدرسين في الحوزة بقم.
١١٤. النص الخالد للسيد الدارابي، مجمع البحوث في مشهد.

- ١١٥ . النظم الاسلامية، صبحي الصالح، بيروت، ١٩٦٥ م.
- ١١٦ . نهج البلاغة، الشريف الرضي، شرح محمد عبده، دار المعرفة بيروت.
- ١١٧ . الوافية، الفاضل محمد التوني، تحقيق: السيد محمد حسين الرضوي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط ١، ١٤١٢ هـ .
- ١١٨ . وسائل الشيعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، عني بتصحيحه: عبدالرحيم الرباني الشيرازي، دار احياء التراث العربي، لبنان.
- ١١٩ . هداية المسترشدين، الشيخ محمد تقي الرازي، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.

- وغيرها

الفهرس

المقدمة	٧
أولاً: بطاقته الشخصية و قيس من حياة	١١
ثانياً: شخصيته العلمية والتمعن في آثاره	٢٣
ثالثاً: في حقل الفقه المقارن	٣١
رابعاً: في حقل التقريب بين المذاهب و الوحدة الإسلامية	٣٣
خامساً: في حقل الحضارة	٣٧
سادساً: في حقل الفكر الإسلامي	٣٨
سابعاً: في حقل العلوم الاقتصادية الإسلامية	٤١
ثامناً: في حقل الأدبي السياسي العالمي	٤٢
كلمة شكر و تقدير	٤٧
محاضرات في علوم القرآن وتفسيره	٤٩
القسم الأول: بحوث في علوم القرآن	٥١
الفصل الأول: تمهيد في علوم القرآن	٥٣
تعريف علوم القرآن	٥٣
الفصل الثاني: تاريخ القرآن	٦٩
نزوله على النبي ﷺ مرتين	٦٩
أسباب النزول	٧٢

٧٩	الفصل الثالث : في المكي والمدني
٧٩	معنى المكي والمدني:
٩٩	الفصل الرابع: حكمة وجود المتشابه في القرآن الكريم
١٤٩	الفصل الخامس: القرآن ذكر الهي سالم من التحريف
١٥٣	القرآن الكريم كما تصوّره روايات أصول الكافي
١٦٣	الفصل السادس: النسخ في القرآن
١٦٣	شبهة في إمكانه
١٦٥	أقسام النسخ
١٦٦	نماذج منها ادعي نسخه
١٦٩	الفصل السابع: حجية الظواهر القرآنية
١٦٩	مصادر التشكيك في حجية الظواهر القرآنية:
١٧١	القسم الثاني: الوحي والإعجاز وشبهات المستشرقين
١٧٣	متى نشأ الباعث على الحركة الاستشراقية؟
١٧٧	موقف المستشرقين من الإسلام و نزعاتهم
١٨٣	أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية
١٨٧	تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة
١٨٩	شبهات المستشرقين حول الوحي والقرآن
١٨٩	ما هو الوحي
١٩٧	أشكال الشعور الواعي
٢٠٣	القسم الثالث: حول التفسير والمفسرين
٢٠٥	الفصل الأول: التفسير واهتمام المسلمين به
٢٠٥	اهتمام المسلمين
٢٢٣	الفصل الثاني: نحو تفسير علمي للقرآن
٢٢٣	أهداف التفسير و التفسير العلمي
٢٢٤	المراد من التفسير العلمي

أنواع التفسير اللاعلمي.....	٢٢٤
العناصر والاتجاهات الشاذة في التفسير والأخطاء المنهجية فيه.....	٢٢٨
نماذج من تفسير غير القرآن على أنه قرآن.....	٢٢٩
القسم الرابع: نماذج من التفسير الموضوعي.....	٢٥٧
ما هو التفسير الموضوعي؟.....	٢٥٩
تمهيد.....	٢٦١
النموذج الأول: الفطرة فن الله وإبداعه الخالد.....	٢٦٣
النموذج الثاني: سيدنا إبراهيم عليه السلام.....	٢٧٥
النموذج الثالث: سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين.....	٢٨٩
النموذج الرابع: مستقبل المجتمع الإنساني.....	٢٩٣
النموذج الخامس: الحوار منطق الانسان.....	٣٠٥
النموذج السادس: حقوق الإنسان في الاسلام.....	٣١١
النموذج السابع: العلاقات الدولية.....	٣٣١
فهرس بعض المصادر المعتمدة.....	٣٥٣
الفهرس.....	٣٦٢